دكتور ابراهيم أحمد العدوى

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الأمويون والبيزنطيون

البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تجتاز الدول الإسلامية اليوم مرحلة هامة من مراحل اليقظة السياسية والاجتماعية ، والعمل على نيل مكانة لائقة بها بين مجموعة أمم العالم . وتتطلب هذه المرحلة دراسة دقيقة مستفيضة لمقومات الدول الإسلامية ، وفهم التطورات التى مرت بها فهماً علمياً صحيحاً ، حتى يستطيع أولو الأمر فى العالم الإسلامى السير على هدى هذه الدراسات فى توجيه بلادهم نحو مايحقق لها العزة والسؤدد . فالنهضات التى لاتدعمها الدراسات العلمية تتعرض للمعاثر والأخطاء التى قد تودى بها أو تحرمها من أن تؤتى أكلها .

ويعتبر عصر الدولة الأموية الحقبة الجديرة بالبحث والدراسة ، إذ تدين معظم الدول الإسلامية اليوم فى نشأتها ومايسودها من مظاهر حضارية إلى تلك الفترة المبكرة ، وما حفلت به من أعمال . فقد أخذ الإسلام ينتشر إذ ذاك بين البلاد التى دخلت حظيرة الدولة الأموية ، ولاسيما بعد أن أدرك سكانها أن هذا الدين نظام اجتماعى كذلك ، حافل بالقواعد والأنظمة التى تضمن لهم عيشة راضية فى ظلها . ثم توج الأمويون هذه الوحدة الدينية بغرس بذور الوحدة اللغوية والثقافية التى ما زال رباطها يصل بين الشعوب الإسلامية حتى الوقت الحاضر .

ويهدف هذا الكتاب إلى معالجة الدور الذى قام به بنو أمية فى توجيه سياسة الدولة الإسلامية فى الفترة المبكرة من تاريخها السياسى ، وبيان ما لأعمالهم

من أثر فى تدعيم صرح الإسلام وتقويته حتى شمخ وعلا . وكان التوفيق حليف بنى أمية فى خطواتهم لإعزاز دولة الإسلام لأنهم جهدوا على جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية منذ تقلدوا مركز الصدارة فى هذه الدولة . إذ أدرك الأمويون أن هذا البحر قلب العالم النابض ، وعصب الحياة لأية قوة تبغى البقاء وارتقاء مدارج الزعامة العالمية . وهذه الحقيقة حجر الزاوية فى صرح كل دولة كبرى عرفها العالم حتى الوقت الحاضر .

وقد تناولت فى الفصل الأول خبرة الأمويين زمن الجاهلية بالبحر الأبيض المتوسط لاتصالهم بإقليم الشام ، الذى ارتادته قوافلهم مراراً وتكراراً فى رحلات الصيف التجارية ؛ ووضع الأمويون هذه الخبرة فى خدمة الجيوش الإسلامية عند قيام الفتوحات على عهد الخليفتين أبى بكر وعمر . وأدى اشتراك الأمويين فى فتوح الشام إلى تنصيب أحدهم وهو معاوية بن أبى سفيان والياعليه . وهنا تطلع الأمويون إلى السيطرة على مقاليد الأمور فى الدولة الإسلامية الناشئة ، وتم لهم تحقيق أمنيتهم بفضل اعتمادهم على أهل الشام ومرافقه .

وبدأت منذ ولاية معاوية بن أبى سفيان على الشام سياسة الأمويين إزاء البحر الأبيض المتوسط والاهتمام به لخدمة مصالح دولة الإسلام . إذ عرف معاوية أن البيزنطيين أعداء المسلمين يعملون فى دأب على استرداد ما استولوا عليه من شواطىء هذا البحر . فعالجت فى الفصل الثانى جهود معاوية لإنشاء بحرية إسلامية ساعدته فى الاستيلاء على الجزر البيزنطية التى تهدد أرض المسلمين ، والإطاحة بقوة البيزنطيين البحرية فى معركة ذات الصوارى التى انقلب المسلمون بعدها إلى سياسة التوسع البحرى .

وكانت آية هذا التطور حملات المسلمين على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، إذ أدرك الأمويون أن تدعيم قوة المسلمين البحرية تتطلب كسر شوكة هذه العاصمة التى تقف لمشاريعهم البحرية بالمرصاد . ومن ثم تناولت

فى الفصل الثالث اضطلاع دمشق عاصمة الدولة الأموية بتنسيق القوى الإسلامية الحربية ،وإعداد ثلاث حملات كبرى حاصرت القسطنطينية ونالت من سطوتها وشلت حركتها مدة طويلة .

وقد تردد صدى الحملات الأموية على القسطنطينية فى جبهة أخرى هامة مطلة على البحر الأبيض المتوسط . إذ تطلع الأمويون إلى بسط سلطانهم على شمال إفريقيا وطرد البيزنطيين منه ، ليبعدوا عن أرض الإسلام كل خطر يتهددها من هذه الناحية . فتناولت فى الفصل الرابع حملات الأمويين المتكررة على شمال إفريقيا ، وكيف استفادت من أحداث حصار القسطنطينية . وتجلت هذه الحقيقة السالفة عندما أسس عقبة بن نافع الفهرى مدينة القيروان التى أصبحت مركز الحملات الإسلامية فى قلب شمال إفريقيا البيزنطية ، إذ صادف تأسيس عقبة للقيروان انشغال الدولة البيزنطية بالدفاع عن عاصمتها ضد الحصار الأموى الثانى المعروف بحرب السنوات السبع . ومن ثم قضى عقبة ثلاث سنوات فى تخطيط القيروان دون أن يخشى هجوماً من الحاميات البيزنطيةفى المدن الساحلية بشمال إفريقيا لافتقارها إلى الأمداد والعتاد .

وباستيلاء الأمويين على شمال إفريقيا خرج البيزنطيون من آخر معقل لهم فى الشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ، الذى ورثوا عن أمهم الدولة الرومانية القديمة تسميته « بحرالروم » ، وغدا حرياً أن يدعى « بحرالمسلمين » . على أن قيام الدولتين الأموية والبيزنطية جنباً إلى جنب أدى إلى ظهور تجاوب حضارى بينهما . ومن ثم عالجت فى الفصل الخامس مظاهر التجاوب الحضارى بينهما ، وبيان ما تمتع به الأمويون من عقلية سكان البحر الأبيض المتوسط ، وما اتسمت به من اتساع الأفق ومقدرة على الاستفادة من التراث الذى خلفه البيزنطيون فى البلاد التى دخلت فى حظيرة الدولة الاسلامية .

واستطاع الأمويون بذلك أن يضعوا أسس الحضارة الاسلاميـة التى

ازدهرت على شواطىء البحر الأبيض المتوسط، وغدت رباطاً قوياً شد أزر الشعوب الإسلامية المطلة عليه. وكان عمال بنى أمية فى الدول الإسلامية نماذج عالية للتفانى فى الواجب والإخلاص للسلطة المركزية وتنفيذ مايعهد إليهم به على أحسن مايرتجى. ولذا استطاعت الدولة الأموية أن تشعر بالترابط والتضامن بين أجزائها، وسارت فيها النهضات العلمية والمظاهر الحضارية الاسلامية سيراً موحداً مضطرداً.

وأدى اهتمام الأمويين بالبحر الأبيض المتوسط وتقوية بلادهم المطلة عليه إلى ترك القسم الشرقى من دولتهم ملجأ للعناصر المعادية لهم. فاضطربت العراق وفارس بالحركات المناهضة للبيت الأموى، واستطاعت أن تطيح به فى النهاية عن عرش الخلافة الاسلامية. وكان لذلك الانقلاب نتائج بعيدة المدى فى تطور حياة الدولة الاسلامية وتاريخها. إذ ارتبطت أحداث الدولة الاسلامية بما نبع فى آسيا من قوى وحركات، وغدا البحر الأبيض المتوسط لا يلقى اهتماماً إلا من الدويلات الإسلامية التى جنحت إلى الانفصال عن السلطة المركزية ببغداد، أو استقلت بشئونها عنها تمام الإستقلال.

وقد ظل التراث الأموى رغم هذه التطورات ماثلا أمام أولى الأمر فى الدولة الإسلامية على مر العصور. فكانت جهود الأمويين فى تحقيق التعاون السياسى بين قوات المسلمين، وتدعيم هذا التعاون بغرس بذور اللغة العربية وتهيئة الجو لانتشارها، نماذج حية فى العالم الاسلامى يعمل قادته على محاكاتها والسير بها إلى الأمام. وإن الدراسات التفصيلية للعصر الأموى كفيلة أن تهيىء للدول الاسلامية اليوم خير القواعد التى تقيم عليها سياستها ونهضتها، وتشيد عليها صرح علاقاتها الثقافية وما تبغيه من تضامن جماعى. وبذلك تستطيع الدول الاسلامية أن تعيد سالف مجدها وعظمتها على البحر الأبيض المتوسط الذى يعد حتى الوقت الحاضر محور أحداث العالم.

القاهرة فى { ١٥ رجب سنة ١٣٧٢ هـ
٣٠ مارس سنة ١٩٥٣ م }

ابراهيم أحمد العدوى

بنو أمية للأنباء ما فتحوا

وللأحاديث ما سادوا وما دانوا

كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم

فهل سألت سرير الغرب ما كانوا

عالين كالشمس فى أطراف دولتها

فى كل ناحية ملك وسلطان

أحمد شـــوقى

أمير الشعراء

الفصل الأول

مهد الخلافة الأموية
ورحـــلة الصيف

عرب الشام قبل الإسلام

الشام على عهد البيزنطيين :

شاهد حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى منذ فجر تاريخه قصة صراع عنيف بين الشرق والغرب حين اصطدمت فى القرن السادس قبل الميلاد أطماع الفرس القدماء بحركة امتداد الاستعمار الأغريقى على شواطىء آسيا الصغري المطلة على بحر إيجة . وظل أوار هذه الحرب ، التى عرفت هذه الحلقة الأولى من سلسلتها باسم الحروب الميدية [1] ، يتأجج على أدوار متباينة متتابعة ، من يقظة الجانب المغلوب على أمره سواء فى الشرق أو الغرب لمحو العار الذى لحقه ، واسترداد سلطانة وكيانه ، والانتقام لما نزل بأرضه من هوان وإذلال .

وتجلت بداية هذه الحروب الطويلة الأمد حين عبىء الملك دارا الفارسى (٤٩١ ق . م) [2] جيوشه ، وزحف بها على بلاد اليونان وصال فيها وجال ، منزلا بها ما حل له من ضروب الهزائم والدمار . وظهرت صحوة الغرب فى صورة

---

(١) ميديا هى المقاطعة الفارسية الواقعة شرق آسيا الصغرى . والحروب الميدية تعتبر أول صراع عنيف بين فكرة الأوتقراطية الشرقية ممثلة فى الإمبراطورية الفارسية ، والديمقراطية الإغريقية ممثلة فى ولايات العالم الإغريق . وهذا لا يمنع أن صراعاً سابقاً قد نشب بين الفرس والإغريق ممثلا فى الثورة الأيونية ، ولكن الصراع لم يكن قد امتد بعد إلى العالم الأوربى ، وإنما اقتصر على آسيا الصغرى ، حيث أيونيا الإغريقية التى خضعت للفرس .

(٢) هزم دارا اليونانيين فى معركة مارثون (Marathon) سنة ٤٩١ ق . م .

واضحة للرد على حركات الفرس حين استطاعت مقدونيا أن تلم شمل الأغريق وتعبىء قواتهم . فانبعث الغرب تحت لواء الإسكندر المقدونى (٣٣٦—٣٢٣ق.م) الذى جاب الكثير من بقاع الشرق حتى قوض أركان دولة الفرس وخلد اسمه فى حوليات هذا الكفاح .

ومنذ غزوة الاسكندر لبلاد الشرق وقصة الصراع بين الشرق والغرب تمثل فصولا طويلة فى تاريخ القسم الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط ، حتى أن كر العصور ومر الأزمان لم يخفف من حدة هذا النضال الذى عرك أوصال الطرفين . ولكن إذا تركت جانباً الفترات التى اندفعت فيها عجلة الطرفين الحربية تطوى ما أتاحته لها قوتها الذاتية من أراضى و بلاد الطرف الآخر ، ثم تكر راجعة بعد أن تلفظ أنفاسها الأخيره ، تظهر سمة خاصة اتصفت بها هذه الحروب ؛ وتلك الظاهرة هى اتجاه كل من الفريقين المتناضلين إلى حماية وتقوية حدود البلاد القريبة من تخومه . وتجلت هذه السمة بأوضح صورها حين ورثت الأمبراطورية البيزنطية تراث أمها الأمبراطورية الرومانية الكبرى فى الشام والأراضى المطلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقى .

وكان للعوامل الجغرافية أثر كبير فى تحديد مجرى الحروب الفارسية وحمل الأمبراطورية البيزنطية على المحافظة على تقاليد الدولة الرومانية الكبرى فى الدفاع عن أراضيها والسير على نهجها خطوة بخطوة فى تلك السبيل . ذلك أن سياسة الدولة البيزنطية اصطدمت فى هذه البقعة من أمبراطوريتها بالصحراء الشامية التى واجهت من قبل روما وأباطرتها . فهذه الصحراء أشبه بمثلث قاعدته على خط عرض ١٠° ورأسه تقترب من آسيا الصغرى حيث تتلاقى أراضى الشام الخصبة بمروج العراق . وأقصر جوانب هذا المثلث يطل على الغرب حيث يحده شبه جزيرة سيناء والبحر الميت ووادى الأردن وجبال لبنان ، وينتهى رأس المثلث عند حلب تقريباً . أما الجانب الثالث فيمتد من الجنوب الشرقى لحلب و يحده

نهر الفرات الذى يلتقى عند الطرف الجنوبى الشرقى لزاوية المثلث بنهر دجلة فى المجرى المعروف بشط العرب [١] .

وهذه الصحراء لم تكن كما يتصور المرء امتداداً شاسعاً من رمال لا يمكن اجتيازها وفلاة موحشة مقفرة ، إذ على النقيض من ذلك لعبت هذه الصحراء دوراً هاماً فى حلقة الاتصال التجارى بين الشرق والغرب ، فقد اشتملت على بعض مسالك تجارية اخترقت بقاعها ذات الحصى والتى انتشر فيها بين هنا وهناك بعض الحشائش والنباتات . وقد أدرك القدامى طبيعة هذه الصحراء وقسموها أقساماً تساعدهم على الأفادة من مسالكها . فأطلق بطلميوس على قسم منها إسم بلاد العرب الصخرية (Arabia Petraea) نسبة إلى مدينة البتراء [٢] التى ازدهرت لمرور القوافل التجارية بها ، على حين سمى الجزء الأوسط والجنوبى الشرقى من الصحراء باسم بلاد العرب الصحراوية (Arabia deserta) ، أما الجزء الباقى من الصحراء الذى نال قسطاً كبيراً من التأثير الرومانى فسماه الشام (سوريا) [٣] .

وهذا التقسيم الجغرافى يفسر السياسية التى وجدت الامبراطورية البيزنطية نفسها ملزمة باتباعها فى تلك البقعة من أراضيها . ذلك أن قيام عدوتها دولة الفرس على الطرف الشرقى من هذه الصحراء فرض عليها لوناً جديداً من الدفاع وضعت الدولة الرومانية الكبرى أسسه ومعالمه العامة . إذ كانت سياسة الرومان

---

(1) C. P. Grant, The Syrian desert, 1, 2 :
T. Mommsen, The provinces of the Roman Empire II, 19.

(٢) البتراء (Petra) كلمة يونانية معناها صخر ، يقابلها الرقيم فى المراجع العربية ، واسمها الحديث وادى موسى ، وكانت تقع على طريق القوافل العام من سبأ ببلاد اليمن الى البحر الأبيض المتوسط .

(٣) Grant, op cit , 6, 10, 11 .
دأب عرب الشام على تقسيم هذه الصحراء ، التى أطلقوا عليها اسم بادية الشام ، الى قسمين هما بادية الشام وبادية العراق . على أن هذا التقسيم كان عاماً ، ولم يكن له أثر ملحوظ فى حياة سكان هذه البادية عامة .

اتخاذ البحار والأراضى التى لا يمكن اجتيازها كالجبال مثلا حدوداً طبيعية تقف عندها أطراف فتوحاتهم ، أما الحدود التى لا تتمتع بهذه الحصانة الطبيعية فدأبوا على حمايتها بعقد أواصر الصداقة والتحالف مع الجيران المطلين عليها . ووقفت الصحراء الشامية بمعزل عن تطبيق السياسة الرومانية الخاصة بالحدود الطبيعية ، مما حمل روما على اتباع نمط خاص فى هذه الصحراء جاء فذا وفريدا فى تلك البقعة المطلة على عدوها اللدود ، إذ اتجهت روما إلى إقامة سلسلة من الحصون على طرف الصحراء المطلة على الفرات للمحافظة على الحدود ، مع الاستعانة أيضاً بالقبائل الضاربة فى هذه الصحراء فى أعمال الحراسة والدفاع [١] .

ومنذ القرن الرابع الميلادى تولت الامبراطورية البيزنطية أيضاً تنظيم هذه البقعة من أراضيها التى تفصلها عن منافستها دولة الفرس ، وفضلت اتباع سياسة روما الخاصة بعدم الاندفاع وراء مشاريع حربية لا طائل من ورائها فيما وراء الفرات . فدعمت سلسلة الحصون فى الصحراء الشامية ، ثم نظمت ولايتها الشرقية بأن جعلت سوريا وفلسطين ولاية واحدة عرفت باسم الولاية الشرقية (Oriens) [٢] .

وكانت هذه الحصون أشبه بمعسكرات تقيم بها فرق الجيش التى عهدت إليها مهمة حراسة الحدود والطرق التجارية التى تجتاز الصحراء . فكان فى بصرى معسكر رئيسى يتبعه عدة مراكز أخرى لحاميات انتشرت فى بعض مناطق ذات أهمية حربية أو تجارية . ومن أمثلة ذلك حصن نمارا (Namara) الذى تحكم فى منطقة حوران لسيطرته على الينبوع الوحيد بهذه البقعة . وكان كل حصن من هذه الحصون الهامة عبارة عن بناء مستطيل الشكل على جانبيه الأبراج ، ويحيط به جدار سميك [٣] .

---

(1) Garnt, op cit, 1 - 11 .

(2) J. B. Bury, History of later Roman Empire I, (1931), 27.

(3) Bury, op cit, 94 ;
Mommsen, op cit, 153: Cambridge mediaeval History II, 32, 33

واقترن بإقامة الحصون اعتماد الامبراطورية البيزنطية على الإمارات العربية التى قامت فى صحراء الشام بالدفاع عن أراضيها ضد الفرس . وهذه السياسة تبين مدى ارتباط الحروب الفارسية بالهجرات العربية التى استقرت فى بلاد الشام ، إذ رأت الدولة البيزنطية اتخاذ القبائل العربية الضاربة فى صحراء الشام وكلاء وحواجز تنفذ سياستها فى تقليم أظافر الخطر الفارسى . فاتجهت إلى اصطناعهم بالمال وإغداق أرفع الألقاب على رؤسائهم الذين كانوا خير وسيلة لتأدية مهمة الدفاع فى هذه البيئة الصحراوية . ولكن المهم هنا هو بيان دور هذه الإمارات العربية فى خدمة الدولة البيزنطية إبان حروبها مع فارس ، وأثر ذلك فى مجريات الأحداث فى بلاد الشام .

تعتبر سياسة البيزنطيين إزاء الإمارات العربية صورة صادقة لما سارت عليه الإمبراطورية الرومانية الكبرى إزاء الإمارات المعاصرة لها ، وربما اتخذ البيزنطيون أعمال روما نموذجا نهجوا على منواله . وأقدم هذه الإمارات مملكة الانباط التى اتخذها الرومان حاجزا يقيهم شر دولة البارثيين الفارسية(١) . واتسعت رقعة هذه الامارة فى القرن الأول المسيح حتى امتدت من عاصمتها البتراء إلى دمشق شمالا وإلى مدائن صالح أو الحجر جنوبا وإلى الفرات شرقا . ولكن الامبراطور الرومانى تراجان قضى على نفوذ هذه الامارة سنة ١٠٥ م(٢) . وكان ذلك جزءاً من السياسة الرومانية التى دانت بها الامبراطورية البيزنطية فيما بعد ، وهى تقليم أظافر هذه الامارات العربية والقضاء عليها إذا غدا استقلالها خطراً يهدد سلامة الامبراطورية .

---

(١) تسمى المقاطعة الجنوبية من إيران موطن الفرس باسم « بارس » ، وحرف اليونان كلمة بارس إلى برسيس وأطلقوها على كل البلاد ، ودولة الفرس البارسية هى التى حاربت الإمبراطورية الرومانية الكبرى . ولكن تولت أسرة الساسانيين مقاليد الحكم فى فارس سنة سنة ٢٢٦ م ، وهى التى حاربت الإمبراطورية البيزنطية .

(٢) Hitti, History of Syria, 382 .

وتجلت هذه السياسة الرومانية مرة أخرى مع إمارة تدمر التى بلغت أزهى عصورها بين سنتى ١٣٠ و ٢٧٠ م . فقد حالفت هذه الامارة روما ، ونفذت سياستها ضد الفرس ، إذ نجح أذينه حاكم تدمر فى طرد شابور الأول الفارسى من الشام سنة ٢٦٥ م ، ومنحه الامبراطور الرومانى لقب حاكم الشرق (Dux Orientis) اعترافاً بجهوده وخدماته . ولكن ما أن اعتزت هذه الامارة بقوتها وسطوتها حتى حطمها الامبراطور أورليان ، وقضى على عاصمتها تدمر سنة ٢٧٣م [١] .

ومهد القضاء على تدمر إلى ظهور مملكة الغساسنة التى عاصرت حولياتها الإمبراطورية البيزنطية . إذ بينما أخذت روما تهدم سلطان الامارات العربية الواحدة بعد الأخري كانت قبيلة عربية أخري تسير قدماً فى التدعيم لنفسها على أنقاض البتراء وتدمر ، ونجحت فى إقامة حكم لها فى المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقى من دمشق [٢] . وحوالى نهاية القرن الخامس الميلادى دخل أفراد هذه القبيلة الذين عرفوا بالغساسنة فى دائرة النفوذ البيزنطى ، واتخذتهم الإمبراطورية وكلاء لتنفيذ سياستها ضد الفرس .

وعلا شأن الغساسنة لاشتداد موجة الأطماع الفارسية فى القرن السادس الميلادى . إذ فضلا عن الحملات الفارسية التى هاجمت الشام وتوغلت كثيراً فى غيره من الأراضى البيزنطية ، أقام الفرس إمارة عربية أخرى هى دولة اللخميين فى الحيرة لمناوئة البيزنطيين وعمالهم الغساسنة . فالدولة الفارسية نهجت على سياسة البيزنطيين فى استخدام القبائل العربية الضاربة فى المنطقة الخصبة الواقعة إلى غرب الفرات والأطراف الشرقية لصحراء الشام ، وجعلت منهم دولة أخذت إسمها من عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن لخم الزعيم الحقيقى لهذه القبائل التى لم شملها [٣] . وفى القرن السادس الميلادى وصلت دولة الغساسنة ومنافستها دولة اللخميين

(1) Hitti, op cit, 393 - 396 .
(2) Lammens, L' Arabie Occidentale, 310.
(3) Hitti, op cit, 402.

إلى أقصى نفوذهما ، واشتبكتا فى حروب مريرة لخدمة الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية . وأدرك البيزنطيون قيمة أعمال الغساسنة وجهودهم الحربية ، فأغدق الإمبراطور جستنيان على الحارث الثانى الغسانى — الملقب بالأعرج (٥٢٩ — ٥٦٩ م) لقب فيلارخ ، ونصبه سيداً على كل قبائل عرب الشام ، لما بذله من جهود فى حرب الفرس واللخميين ولما ناله من انتصارات رائعة . إذ قضى الحارث فى معركة من أشهر الوقائع التى نشبت بين الغساسنة واللخميين وتسمى « يوم حليمة » على المنذر الثالث (٥٠٥ — ٥٥٤ م) المعروف بابن ماء السماء ، وكان المنذر رمز عظمة اللخميين وشوكة أرقت البيزنطيين فى بلاد الشام[١] .

وإذا كانت « أيام العرب »[٢] قد حفلت بالكثير من الوقائع التى جرت بين الغساسنة واللخميين ، فإن الإمبراطورية البيزنطية نظرت إلى الغساسنة وأعمالهم من ناحية ما يعود عليها من نفع خاص . إذ عندما بلغ مجد الغساسنة السماكين وظنوا أنهم قادرون على الشام وأهله تنكرت لهم الإمبراطورية البيزنطية ، وبادرت بتطبيق سياسة أمها روما القديمة ، فى كسر شوكة الغساسنة وإبقائهم على التبعية لها فى الصورة التى تحددها لهم[٣] .

وإذا كانت هذه السياسة البيزنطية صورة مكررة لنهج قديم خضعت له الامارات العربية التى علا نجمها فى الشام ، فإن أعمال الامبراطورية البيزنطية فى ميدان الغساسنة خلفت نتائج جنى ثمارها العرب بعد أن لم الاسلام شملهم و بدأوا فتوحاتهم الباهرة فى بلاد الشـــام . ذلك أن السياسة الرومانية التى ورثتها

---

(1) Hitti, op cit, 402 .

(٢) يقصد بأيام العرب الغزوات القبلية التى قامت بين القبائل بسبب النزاع على أرض المراعى وعيون الماء . وكانت المعارك تبدأ أول الأمر بين أفراد قلائل نتيجة النزاع على الحدود ثم ينغمس الجميع فى المعركة . ومن أشهر هذه المعارك حرب البسوس ، ويوم داحس ، وكذلك المعارك بين الغساسنة واللخميين .

(٣) نلدكه ، أمراء غسان ، ص ٣١ ، ٣٢ .

الامبراطورية البيزنطية فى الاعتماد على العرب الضاربين فى الصحراء الشامية للدفاع عن حدودها ضد الفرس وحركاتهم الحربية غرست بذوراً نمت وترعرعت فى صالح القبائل العربية وإماراتها .

ولم تتبين الدولتان الرومانية والبيزنطية ما يحمله الاعتماد على العرب من أخطار رغم قضائهما على إماراتهم . إذ أن إقصاء الرومان والبيزنطيين لأبناء بلادهم و بنى جلدتهم عن شئون الدفاع عن إقليم الشام ، و إلقاء الزمام فى أيدى القبائل العربية مهد الطريق لعظمة أولئك العرب الذين لم تؤثر فيهم مطلقاً التيارات السياسية التى رفعتهم حيناً وحطت بهم حيناً آخر . فكانت تلك القبائل تستمد قوة وحيوية مضطردة دائمة من منبع دافق فياض ، هو الهجرات التى وصلت إليهم تباعاً من بلاد العرب . إذ فضلا عن أن قيام العرب بمهمة الدفاع عن الحدود البيزنطية ضد الفرس جعلتهم القوة الفعالة الرئيسية فى بلاد الشام ، جاء اهتمام البيزنطيين بالحروب الفارسية وتكريس جهودهم لها عاملا ترك الجبهة الجنوبية من إمبراطوريتهم بالشام المواجهة لبلاد العرب مفتوحة سهلة الاجتياز لدى القبائل العربية[1] . فأخذت هذه القبائل تدخل أراضى الشام زرافات ووحدانا ممثلة بشائر عهد جديد قطف بنو أمية ثماره فيما بعد من مقر دولتهم بالشام .

القبائل العربية فى الشام البيزنطى :

يتضح من خريطة آسيا أن بلاد العرب تمتد شمالا على شكل لسان طويل ضيق أشبه بإسفين بين فارس والامبراطورية البيزنطية . ويسمى هذا الامتداد بادية الشام ، وقد اقترن تاريخها بالأطماع السياسية التى جاشت بها نفوس الفرس والبيزنطيين ، لما كان لموقعها الجغرافى من أثر كبير فى توجيه نشاط الفريقين الحربى وسيطرتها على منافذ البحر الأبيض المتوسط التجارية[2] . على أن الحقيقة

(1) Mommsen, op cit, 115, 119 .
(2) De Lacy O'leary, Arabia before Muhammed, 153.

الكبرى التى توجت مميزات هذا الموقع الجغرافى الفريد هى أن الصحراء الشامية جزء طبيعى من بلاد العرب خضع لما تبعثه إليها تلك البلاد من مؤثرات بشرية، وميدان تردد فيه ما اضطرم به جوفها من حركات قبلية. فكانت أبرز هذه المظاهر والمؤثرات الهجرات البشرية التى جاءت بلاد الشام من الجزيرة العربية. إذ يرى بعض علماء السامية أن بلاد العرب كانت تزدحم بالسكان ازدحاماً يزيد كثيرا عما تتحمله مواردها الاقتصادية، مما حمل سكانها على الهجرة إلى الأراضى الخصبة التى تحيط ببلادهم شمالا.

(وهذه الحقيقة تفسر مدى ارتباط صحراء الشام ببلاد العرب، إذ كانت الهجرات تبدأ بارتياد القبائل العربية للأطراف الشمالية من بلادها ضاربة فى صحراء الشام دون أن تشعر بفارق يذكرها بأنها غادرت أرضاً غير أرضها، أو تقابل حاجزاً يجعلها تدرك أنها فى بيئة غير بيئتها. غير أن هذه القبائل لا تلبث أن تعمل على الاستقرار فى تلك الصحراء منتهزة فرصة مواتية للاغارة على إقليم الشام الخصيب أو للتسلل إليه جاهدة على الأخذ بنصيب من خيراته). وظلت أراضى الشام الخصيبة تسيل لعاب أولئك البدو الضاربين على حدودها، حيث كانت تفيض بالنبيذ والزيت والقمح، المثل الأعلى للبدوى عن حياة النعيم [(١)].

وتعتبر هجرة الأنباط العرب نموذجاً يوضح حركات البدو فى الصحراء الشامية وتأقلمهم بالبيئة هناك، ثم وضعهم أساس صرح نفوذ العرب السياسى فى بلاد الشام قبل ظهور الإسلام. إذ حوالى سنة ٥٠٠ ق. م. غدت الصحراء الشامية من شرق سوريا وفلسطين إلى الفرات منتجع العرب الانباط الذين أطلق عليهم الرومان اسم أهالى الخيام (Scenites). وكانت حياتهم نموذجاً لما كان عليه البدوى فى مهده الأصلى، إذ كانوا فى نضال مستمر حول استغلال أماكن

---

(1) Mommsen, op cit, 136.

الرعى والتكالب على الأراضى التى يمكن فلاحتها، حتى أصبحت حياتهم مليئة بالنشاط والكفاح، (Vita est illis semper in fuga)[1].

ولكن الجماعات التى استقرت منهم فى الجهات التى أمكنهم استثمارها عرفوا تأسيس الإمارات. فظهرت البتراء التى اتخذها الأنباط عاصمة لهم، وبلغت أوجها فى القرنين الأول والثانى الميلاديين. وعندما قضى الرومان على البتراء سنة ١٠٥م، أسس أولئك العرب الضاربون فى صحراء الشام إمارة أخرى فى تدمر. وهكذا ظل العرب فى مهجرهم يمثلون حياتهم البدوية الأولى، منهم الحضر أو المستقرون الذين عرفوا تأسيس الامارات، على حين ظل القائمون منهم على حياتهم البدوية فى تنقل وترحال وحب للاغارة، يستفيدون من الأحوال التى تفشت من حين إلى آخر نتيجة الحروب الفارسية، وما صاحبها من اختلال واضطراب[2].

وكانت هذه الامارات تلقى دائماً مددا لا ينقطع من الهجرات، بعثت بها بلاد العرب التى شجعت أحوالها على اتجاه هذه الهجرات إلى بلاد الشام، إذ دخلت بلاد العرب السعيدة وهى أرض اليمن فى فترة من الانحلال والاضمحلال الاقتصادى، تلاها خضوع لاستعمار أجنبى فى القرن الرابع الميلادى. فكانت آية التدهور الاقتصادى انهيار سد مأرب ومظاهر الاستعمار سيطرة الأحباش على صنعاء. وارتبط بهذه الأمور هجرة بنى غسان إلى منطقة حوران فى الشام خلال فترة من الفترات التى تصدع فيها سد مأرب[3]. وهؤلاء الغساسنة هم الذين سيطروا فيما بعد على قبائل الشام وهيأوا لها كياناً سياسياً بعد سقوط تدمر حتى ظهور الاسلام. فبسقوط تدمر أمنت روما شر القبائل العربية فترة قصيرة،

---

(1) Bury, op cit, 95.

(2) Bury, op cit, 95.

Grant, op cit, 16, 18.

(٣) نلدكا، أمراء غسان، ص ٧، ٨.

ولكن منذ عهد الامبراطور يوليان ظهرت حركة جديدة من استقرار بعض القبائل العربية فى الأراضى الشرقية من إقليم الشام .

وكان أصل أولئك العرب الذين استقروا إذ ذاك بالشام من قبيلة تنوخ التى نزلت فى بادئ الأمر على الحدود الفارسية إبان فترة الاضطرابات التى تلت سقوط الدولة البارثية القديمة . وكانت هذه القبيلة بدورها من أصل يمنى تقاطرت بعد اضطراب أحوال اليمن على وادى دجله والفرات . ولكن لما استقرت الأمور فى فارس للملوك الساسانيين قامت محاولة لإدخال هؤلاء العرب فى حظيرة الدولة الفارسية الجديدة . فهاجر كثير من عرب تنوخ إلى الشام حوالى سنة ٢٣٠ م ، أى قبل نهاية تدمر . ويطلق أحياناً على هذه المجموعة من القبائل التى هاجرت إلى أراضى الشام إسم قضاعة ، وهو الأصل الذى تفرعت عنه تنوخ . واتسمت طبيعة حركات هذه القبائل بالانضواء تحت زعامة أقوى القبائل هيبة ونفوذاً ، إذ لم تلبث قبيله تدعى سليح أن هزمت من بالشام من قبيلة قضاعة ، وأخذت منها عصى الزعامة التى انتزعها منهم أخيراً الغساسنة[1] .

وحوالى القرن الخامس الميلادى اتجهت الإمبراطورية البيزنطية إلى استخدام الغساسنة فى مراقبة حركات القبائل البدوية التى كانت تجوب بين شمال بلاد العرب وصحراء الشام وصد تيارها إذا ما حاول الانثيال على أراضى الشام الخصبة، وذلك فضلا عن استخدام الغساسنة فى حركاتها الحربية ضد دولة الفرس . وفى عهد الإمبراطور البيزنطى جستنيان العظيم ٥٢٩ م ، بلغ الغساسنة أوج عظمتهم إذ نجحوا بعد انتصاراتهم على اللخميين عملاء الفرس ، فى ضم شيوخ القبائل العربية المبعثرة فى فلسطين وغيرها من الأراضى فى جنوب الشام إلى دائرة نفوذهم. فاستطاع الحارث الأعرج (فى المراجع البيزنطية Arethas) على عهد جستنيان

(1) R. Dussaud, les Arabes en Syrie avant l' Islam, 9; O,leary, op cit, 161 , 162 .

أن يهيمن على كثير من شيوخ القبائل العربية الضاربة بالشام ، وغدت له اليد العليا عليها حتى جبال لبنان شمالا وإلى الشاطىء الفينيقى غربا وفى فلسطين ووادى الأردن(١) .

ولكن سياسة الدولة البيزنطية التى لم تدع لأية إمارة عربية بالشام فرصة تدعم فيها قوتها أخذت تعمل أعمالها منذ عهد المنذر بن الحارث نفسه . إذ أدى إمتهان الإمبراطورية البيزنطية لسلطان الغساسنة وكسر شوكتهم إلى فرط عقد القبائل المنضوية تحت لواء بنى غسان وتحرك الأحقاد القبيلة القديمة فى نفوسهم . وكان شيوخ هذه القبائل — ممن ائتمروا بأوامر الغساسنة زمن الحروب وأظهروا لهم الطاعة أيام السلم — يحقدون على الغساسنة علو كعبهم لدى الامبراطورية البيزنطية وما نالوه من ألقاب ورتب وعطايا وافرة . فما أن قبضت السلطات البيزنطية على المنذر بن الحارث أثناء حضوره الاحتفال بتدشين كنيسة فى حوران ونفيه إلى صقلية حتى هب شيوخ القبائل صاحبة السيادة القديمة بالشام جاهدين على استرداد ما ضاع من سلطانهم(٢) .

ويتضح من النزاع الذى نشب بين الغساسنة وغيرها من القبائل سوء السياسة البيزنطية وتهيئتها الجو لاستقرار كثير من القبائل العربية الأخرى . فكانت الامبراطورية البيزنطية لا تتدخل فى المنازعات القبيلة بين الغساسنة وغيرها من القبائل إلا حين يمتد خطر منازعاتهم من المناطق الصحراوية إلى المدن الآهلة بالسكان(٣) ، ولكن منذ أن قلبت الامبراطورية البيزنطية للغساسنة ظهر المجن بعد أن أدركت تخاذلهم فى نصرتها فى الحروب الفارسية ، واهتمام بنى غسان أيضاً بالمذهب المونوفيزينى حتى شجعت القبائل العربيـة على مناهضة سلطان الغساسنة(٤) .

(1) O' leary op cit, 164, 165.

(٢) نلدكه ، أمراء غسان ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٣) نلدكه ، نفس المرجع ، ص ١٧ .

(4) A. Kammerer, petra ét la nabatine, 244 .

ويتضح أيضا من القصائد التى أنشدت فى مدح الغساسنة المتأخرين أن قوتهم كانت آخذة فى الضعف وعهدهم آذن بالأفول رغم ما كسبوه من نصر فى بعض الجهات . فبينما تشير هذه القصائد إلى أن نفوذ أمراء الغساسنة المتأخرين وصل فى نضالهم إلى قبيلة عوف بن مرة الضاربة فى شمال الحجاز ، أو فى الشمال الغربى من نجد ، يتضح من ناحية أخرى ما طرأ على الغساسنة من وهن وعجز على عهد النعمان الذى حكم فى العقد الأول من القرن السابع الميلادى . فكان محاطاً بأعداء أقوياء ناصبوه العداء ، ونازعوه السلطان . ولذا على حين نجح فى القضاء على بعضهم مثل قبيلة أسد الضاربة شمالى مكة ، اكتفى بتهديد قبيلة فزارة التى ينتسب إليها النابغة ، وفشل فى غزوة الأراضى التابعة لبنى عذرة الذين كانوا يقطنون وادى القرى الواقع شمالى مكة (١) .

ويعزى فشل الغساسنة فى كبح جماح القبائل العربية إلى أنهم كانوا يناضلون فى جبهة أخرى ، وهى مهاجمة أراضى الدولة البيزنطية نفسها حباً فى الأخذ بالثأر والانتقام لما نالهم من هوان بالقبض على زعمائهم . وكانت إغاراتهم موجهة إلى مراكز الحاميات البيزنطية بالشام ، ونجحوا نجاحاً مؤقتاً فى القاء الذعر فى تلك الحاميات ، منها حامية بصرى التى تعتبر أعظم مركز حربى فى الشام بعد دمشق ، ونجحوا فضلا عن ذلك فى الاستيلاء على كثير من ذخائرها . على أن هذه السياسة باءت أخيراً بالفشل وأجهدت الغساسنة ومكنت البيزنطيين من القضاء عليهم فى النهاية . ذلك أن الأمبراطورية البيزنطية لم تمكن الغساسنة ، رغم استخدامهم فى الحروب الفارسية وعطفها عليهم إبان أوجهم ، من السيطرة على المراكز الحربية التى أقامت بها القوات البيزنطية . فلا توجد أية إشارة إلى سيطرة الغساسنة على أى مكان محصن أو مدينة اتخذها الجيش البيزنطى مركزاً له داخل نطاق أراضيهم ،

---

(١) نلدكه ، أمراء غسان ، ص ٣٨ ، ٣٩

مثل دمشق و بصرى وتدمر التى أعاد تحصينها الأمبراطور جستنيان (١) .

ويلاحظ بموت النعمان الغسانى إنقسام الرعايا التابعين لهم إلى خمس عشرة فرقة ، لكل واحدة منها رئيس خاص ، ويحتمل أن هذه الفرق كانت خمس عشرة قبيلة ورؤساؤهم الشيوخ القدامى الذين تقلص جانب كبير من نفوذهم زمن الحارث والمنذر (٢) . وإلى جانب ذلك علا ذكر بعض القبائل العربية الأخرى إلى جانب الغساسنة . إذ أن امتداد إغارات الغساسنة إلى أراضى الحجاز دليل علي إحساسهم ميل القبائل العربية هناك إلى الهجرة إلى الشام ورغبتهم فى الاستقرار بها . وكان نجاح القبائل التى استطاعت أن تهاجر إلى الشام فى تلك الفترة من انهيار سلطان الغساسنة عاملا هيأ المسرح الذى مثل عليه بنو أمية قصة خلافتهم وما حفلت به من أعمال وآيات . إذ قبضت هذه القبائل على دفة الأمور بالشام زمن الخلافة الأموية ، وغدت قطب الرحى فى سياسة بنى أمية .

ومن أشهر هذه القبائل العربية التى استقرت بالشام إذ ذاك قبيلة بنى كلب ، إذ نزل أفرادها زمن الجاهلية بدومة الجندل وتبوك وأطراف الشام ووادى القرى. وكانوا فى تلك الفترة مثالا للحياة العربية التى مر بها كل عربى ، إذ كان بعضهم بدوا والبعض الآخر حضراً . وسيطرت هذه القبيلة على الينابيع والواحات فى شرق حوران وجنوبها ولاسيما فى دومة الجندل . وفضلا عن ذلك أقام بعض أفراد قبيلة كلب حول سلامية وتدمر على الطريق التجارى الهام إلى الشام (٣) . وورثت كلب مجد الغساسنة وحلت مكانهم فى الزعامة على سكان إقليم الشام زمن الأمويين ، وأصبحت العمود الفقرى لسياسة خلفاء بنى أمية ولا سيما زمن معاوية مؤسس الدولة الأموية .

---

(١) نلدكة ، نفس المرجع ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٣١ ، ٥١ .
(٢) نلدكة ، نفس المرجع ، ص ٣٣ ، ٣٥ .
(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣١٦ .
Encyc. of. Islam (artkalb B. wabar)

واستقرت قبائل أخرى بالشام إلى جانب قبيلة كلب فى نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادى . وكان بعضها ممن حارب الغساسنة ، وأفلح فى الإقامة بالشام حيث طاب لها المقام . ومن الصعب تحديد الجهات التى نزلت بها كل قبيله ، إذ تداخلت أراضى القبائل مع بعضها بعضاً . وكل ما يمكن أن يذكر فى هذا الصدد هو المكان الذى استوطنت به الغالبية الكبرى من أفراد القبيلة . فمن ذلك أن معظم مساكن كلب استقرت فى بادية السماوة ولم يخالطها هناك أية بطون لقبائل أخرى . وهكذا استقرت القبائل العربية فى نواحى متفرقة من بلاد الشام . فاستوطن بنوجمح من قريش منطقة أذرعات ، وأقامت لخم بين الرملة ومصر ، وإن كان بعضها قد نزل حوران . وأقامت جذام بين مدين وتبوك على حين نزل فخذ منها فيما يلى طبرية من أرض الأردن (١) .

ونالت هذه القبائل بدورها قسطاً من الحضارة البيزنطية ، كما عرفت الديانة المسيحية ودانت بها قبل ظهور الإسلام . ويرجع ذلك إلى الرهبان والنساك الذين أقاموا لهم خلوات فى صحراء الشام منذ القرن الرابع الميلادى . وأصبحت هذه القبائل مسيحية العقيدة فى القرن السادس الميلادى ، وقامت بدور أشبه بما قام به الغساسنة من قبل . إذ غدت عاملا هاما فى إيصال المسيحية وتعاليمها إلى بلاد الحجاز قبل ظهور الإسلام ، كما كانت حلقة الاتصال التى حافظت

---

(١) القلقشندى ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣ ؛
الهمدانى ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٩ :
وروى الهمدانى (فى ص ٢٠٦) شيئاً من شعر أحد القدامى ، يتضح منه الجهات التى استقرت بها فروع من القبائل العربية زمن الجاهلية .

وقد فارقت منا ملوك بلادها … فصاروا بأرض ذات مبدى ومحضر
وغسان حى عزهم فى سيوفهم … كرام المساعى قد حووا أرض قيصر
وقد نزلت منا قضاعة منزلا … بعيداً فأمست فى بلاد الصنوبر
وكلب لها ما بين رملة عالج … إلى الحرة الرجلاء من أرض تدمر

على أواصر الروابط بين هذه البلاد و إقليم الشام(١) .

والمقصود من ذكر هذا المظهر الحضارى هو الإشارة إلى الدور الذى قام به أولئك العرب الذين استقروا فى الشام من إيجاد ضرب من الصلة بين سكان بلاد العرب ولا سيما الحجاز و بين البيزنطيين . وهذا الدور مهد السبيل فيما بعد لبنى أمية أن ينعموا بتراث القبائل العربية التى استوطنت الشام زمن الجاهلية . إذ كان ميدان النشاط الذى دعمت فيه هذه القبائل أقدامها هو الميدان التجارى وحرصها على التمتع بخيراته . فكانت القبائل العربية بالشام خير وسيط ساعد على انتظام طرق القوافل التى كانت تصل إلى الشام من بلاد العرب محملة بالمتاجر الشرقية ، واتصلت فى هذا الميدان التجارى بأبناء البيت الأموى ، الذين سيطروا على تجارة الحجاز ، وترددوا على إقليمهم .

واستطاع بنو أمية أن يدعموا علاقاتهم مع القبائل العربية بالشام . فأدركوا مقوماتها وطرق كسب ودها وصداقتها ، ثم لجأوا أخيرا إلى رحابها بإقليم الشام ، واتخذوه عضدا ونصيرا حين رأوا فرصتهم قد سنحت لتأسيس خلافة لهم بعد أن سطعت شمس الإسلام فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، و بدوت سلطة البيزنطيين الجاثمة على إقليم الشام .

---

(1) O'leary, op cit, 163 .
Bury, op cit, 65 .
Encyc. of Islam (Art al - sham) .

بنو أمية ورحـــلة الصيف

استطاعت القبائل العربية التى استقرت فى إقليم الشام أن تسيطر على النشاط التجارى الذى كان المحرك وراء الأطماع التى جاشت بها نفوس الفرس والبيزنطيين. فبينما جهدت فارس مراراً فى الاستيلاء على إقليم الشام وتفانت الإمبراطورية البيزنطية فى الاحتفاظ بهـذا الإقليم فى دائرة نفوذها ، خطت القبائل العربية الضاربة فى صحراء الشام شوطاً بعيداً فى تقلد أعنة التجارة ، عصب الحياة فى القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط. ذلك أن دور هذه القبائل فى الصراع الحربى بين الفرس والبيزنطيين ، الذى دونته حوليات الفريقين ، يعتبر ثانوياً فى تاريخ حياتها ونشاطها إذا قيس بما بذلته من جهود فى حركة التبادل التجارى بين الشرق والغرب .

فالقبائل العربية التى نزلت بالشام أقامت فى بقاع تنتهى عندها طرق القوافل الآتية من بلاد اليمن ، وتسيطر على المحطات التجارية التى تنقل منها المتاجر الشرقية إلى البحر الأبيض المتوسط . وكان الطريق التجارى من اليمن إلى الشام أهم الشرايين التى حملت منتجات الشرق إلى الغرب منذ أقدم العصور ؛ وكان له مجريان ، أحدهما بحرى يتجه إلى أيلة (العقبة) ، والآخر يبدأ من موزع أو صنعاء فى بلاد اليمن ، ثم يسير شمالا مخترقاً الحجاز ومارًّا بمكة التى كانت إذ ذاك محطة تجارية على هذا الطريق ، ثم ينتهى عند العلا (ديدان) وهى إحدى المحطات التجارية على حدود مملكة الأنباط . وظل اليمنيون حتى القرن الأول الميلادى ينقلون متاجرهم بأنفسهم إلى شمال بلاد العرب[1] ، إذا وصلت سفنهم بحراً إلى

---

(١) فردريك بيك ، تاريخ شرق الأردن وقبائلها ، س ٦٧ ، ٦٨ ؛
O' Leary, op cit, 162.

أيلة ، وقوافلهم براً إلى ديدان وأحياناً تيمية التى غدت نهاية طريق القوافل المار بالحجاز . ثم تولى الأنباط بعد ذلك أمر نقل المتاجر من هذه المحطات إلى بصرى وتدمر ودمشق (١) .

وظل هذا الطريق التجارى حكراً على الممالك التى ظهرت بجنوب بلاد العرب حتى امتدت أطماع الرومان إلى نزع السيادة التجارية من أيدى عرب الجنوب . وتجلى حرص الرومان على تنفيذ سياستهم التجارية فى حملة جايوس جالوس (٢٥ ق . م) ، التى فشلت فى عهـد دولة حمير الأولى ، وعجزت عن إخضاع عرب اليمن . ولـكن نشطت السفن الرومانية رغماً عن الهزيمة السالفة فى مزاحمة سفن عرب الجنوب فى الطريق التجارى البحرى بسبب اكتشافهم الرياح الموسمية واستغلالهم لها (٢) . وكان لهذه المنافسة البحرية أثرها فى نشاط عرب الجنوب ، إذ حولوا جهودهم إلى الطريق البرى المار بالحجاز بعد أن قل نشاطهم البحرى . وظل الأمر قاصراً على ذلك حتى العصر الحميرى الثانى . إذ حدث تغيير جوهرى فى الطريق البرى قوامه ظهور سادة جدد ، هم عرب الحجاز . فقد ألقت إليهم مجريات الأحداث إذ ذاك زمام التجارة الشرقية ، التى سيطر عليها اليمنيون مدى طويلا .

ويعزى السبب فى هذا الانقلاب إلى سياسة الامبراطورية البيزنطية إزاء جنوب بلاد العرب وامتداد أطماعها التجارية إلى هذه البقعة الحيوية ، إذ كان قيام الأسرة الساسانية بفارس واحتكارها للطرق التجارية الأسيوية المؤدية إلى القسطنطينية عاملا دفع البيزنطيين على إحياء سياسة روما الخاصة بالسيطرة على طريق البحر الأحمر التجارى ، البعيد عن خطر الفرس . ولـكن الظروف قد

(١) O' Leary, op cit, 103, 104.

(٢) العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥ ، حاشية ١ ؛ ص ٢١

تبدلت حينئذ (١)، ولم تسفر جهود الإمبراطورية البيزنطية عن شيء غير التمهيد والتمكين لعرب الحجاز من السيطرة على طريق القوافل البرى المؤدى إلى الشام. ذلك أن سياسة الإمبراطور جستنيان فى الاعتماد على الحبشة فى السيطرة على تجارة اليمن عجلت بزوال عظمة الحميريين. إذ خضعوا للأحباش (٢) وانكمشوا فى بلادهم تاركين لعرب الحجاز مهمة نقل المتاجر إلى بلاد الشام. ولم يلبث عرب الحجاز أن انفردوا بنقل المتاجر لأن الأحباش عجزوا عن إعادة الحياة إلى الطريق البحرى، فلم تستطع سفنهم مناهضة السفن الفارسية فى المحيط الهندى، حيث تجمعت حاصلات الشرق فى جزيرة سيلان.

وهكذا أضحى الطريق البرى بين اليمن والشام المسلك الحيوى منذ مطالع القرن السادس الميلادى، وحكراً على عرب الحجاز وحدهم. وكان وصول عرب الحجاز لهذه المكانة منذ القرن السادس الميلادى حدثاً شجعت العوامل الطبيعية عليه. إذ غدا وصول المتاجر آمنة إلى الشام رهناً بكسب صداقة عرب الحجاز بعد أن زالت هيبة عرب الجنوب وفقدوا استقلالهم السياسى. فالبدوى معروف منذ أقدم العصور بالإقدام والشجاعة وحبه للنضال إذا دعا داعى الجهاد، أو حدث ما يكرهه على أداء عمل لا يرغب فيه، ولكن إذا كسب أحد صداقته وأخذ منه المواثيق على أداء عمل أوفى بما عاهد عليه ولو ضحى فى ذلك بالمال والنفس (٣).

وانعكست صورة هذه الصفات التى تحلى بها البدوى فى النشاط التجارى عبر طريق قوافل الحجاز، إذ كان اعتزاز العربى بكرامته وشجاعته حافزاً أدى إلى ضرورة نيل موافقته وأخذ وعده قبل أن تجتاز أية قافلة الأرض التى تسيطر

---

(١) Vasiliev, Histoire de L'Empire Byzantin I, 214, 215

(٢) العدوى، الامبراطورية البيزنطية، ص ١١.

(٣) O'Leary, op cit, 149

عليها قبيلته . فقد اعتبر البدوى هذه الأرض ملكه المقدس الذى يجب أن يزود عنه ويحميه بأى ثمن ، وكانت موافقة البدوى تتم نظير دفع مبلغ معين من المال أو مقابل أى شىء آخر يرتضيه الطرفان . ولكن النشاط التجارى حفز عرب الحجاز على أن يخطوا خطوة إلى الأمام أوسع من مجرد المحافظة على سلامة القوافل أثناء اجتيازها لبلادهم ، إذ رأوا من مصلحتهم أن يساهموا فى نقل هذه المتاجر ويعدوا أنفسهم لأداء هذه المهمة[١] . ولذا عندما تغيرت الأحوال فى جنوب بلاد العرب غدوا وسطاء فى نقل المتاجر ، وحين خلا لهم الجو تماماً بعد انهيار مجد دولة حمير قبضوا على ناصية التجارة نفسها . ورضى جيرانهم المحيطون بهم فى الجنوب والشمال أن يكلوا إليهم مهمة نقل المتاجر لدرايتهم بمسالك الصحراء ودروبها ، ولجدارتهم على تدبير شئون القوافل أثناء ترحالها فى البيئة الصحراوية[٢] .

وهكذا ألقى زمام التجارة الشرقية فى أيدى عرب الحجاز عامة . ولكن النشاط التجارى تركز بصفة خاصة فى أيدى أولئك العرب الذين استقروا بمكة ، التى ارتفعت مكانتها من مجرد محطة على طريق القوافل القديم إلى مركز تجارى هام[٣] . فاشتغلت جماعات من سكان مكة بنقل المتاجر جنوباً إلى اليمن ، وأخرى بالذهاب شمالا إلى الشام . على أن الغالبية العظمى منهم كرست جهودها فى نقل المتاجر إلى الشام ، إذ ظل الأحباش واليمنيون يسهمون بنصيب فى نقل المتاجر من جنوب بلاد العرب إلى مكة . أما الطريق من مكة شمالا إلى بلاد الشام فغدا حكرا على أهل مكة وحدهم ، ووفد إليهم وكلاء من قبل الامبراطورية

---

(١) O'Leary, op cit, 180

(٢) O'Leary, op cit, 181

(٣) وقد ظلت مكة تتحكم فى الطرق التجارية الهامة التى تخترق بلاد العرب حيث كانت تقع فى ملتقى هذه الطرق جميعاً .

البيزنطية لعقد الصفقات التجارية ، كما استقر بينهم عمـلاء من فارس وغيرها من الحبشة (١).

وكان علو شأن مكة سبباً فى منح أصحاب النفوذ بها مكانة عالية على سائر عرب الحجاز ، وتمتع بهذا المركز الرفيع دون سائر القبائل قبيلة قريش ، أو أولئك القوم الذين عرفوا باسم قريش البطاح . ويبدو أن هذه القبيلة اشتركت فى النشاط التجارى بالحجاز قبل أن تصل إلى مركز الزعامة بمكة ، وأن رؤساءها الذين لموا شملها أدركوا أهمية تجارة مكة مع بلاد الشام . فيذكر أن قصى ، الجد الذى ينسب إليه اتحاد بطون قريش الضاربة حول مكة فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، قضى أيام نشأته الأولى بين إخوته لأمه من بنى عذرة النازلين على حدود الشام . ذلك أن أباه كلاب بن مرة القرشى توفى تاركا لأمه فاطمة ولدان ، زهرة وزيد . وكان زيد طفلا عندما مات أبوه ، فتزوجت أمه رجلا من قضاعة ، أخذها معه إلى بلاده من أرض بنى عذرة بأطراف الشام . فاحتملت فاطمة إبنها زيدا معها لصغره ونشأ بعيداً عن وطنه مكة مما دعا إلى تسميته قصى (تصغير قصى) (٢) .

ولما بلغ قصى مبلغ الرجولة وقع بينه و بين شخص من قضاعة شئ من الجفاء ، دفع القضاعى إلى تعيير قصى بالغربة ، قائلا له ألا تلحق بقومك ! ؛ فلما عرف أصل موطنه الحقيق بمكة خرج فى الأشهر الحرم إليها مع حاج قضاعة ، وأقام هناك جاهداً على إعادة مجد قريش . إذ عز على قصى أن يرى خزاعة سادة بنى قومه القرشيين (٣) ، وناصب خزاعة العداء حتى تمكن من إقصائها عن مكة

---

(١) O'Leary, op cit, 183

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٣) فى القرن الثانى الميلادى هاجرت عدة قبائل من اليمن موطنها ، واستقرت إحدى قبائلها وهى خزاعة فى مكة ، وسيطرت فى القرن الثالث الميلادى على كافة السلطات بها ولم تترك لقريش سكان مكة الأصليين إلا المناصب القليلة الأهمية مما آلم قصى فيما بعد .

(فى القرن الخامس الميلادى) وولى أمر البيت الحرام ، وجمع قبائل قريش التى كان بعضها مقيما فى الشعاب ورؤوس جبال مكة ، وقسم منازلهم بينهم مما أكسبه لقب المُجَمِّع (١).

و بعد وفاة قصى سنة ٤٨٠ م آلت السلطات التى تمتع بها فى مكة إلى أبنائه وأحفاده من بعده ، ولكن كان المشتغلون من هؤلاء الأبناء فى التجارة إلى الشام هم أصحاب النفوذ الأعلى والسطوة . وتجلى ذلك حين انقسم أحفاد قصى نتيجة التنافس على رئاسة إدارة مكة إلى معسكرين ، أحدهما تزعمه بنو عبد الدار والآخر بنو عبد مناف الذين كان أظهرهم عبد شمس . فما أن تداعى الفريقان للسلم حتى تم الاتفاق بينهما على أن تكون الحجابة والندوة واللواء فى أيدى بنى عبد الدار ، على حين آلت السقاية والرفادة إلى عبد شمس بن عبد مناف (٢) . وكانت سقاية الحاج والرفادة ، وهى الإشراف على جمع الضريبة التى تخصص لإطعام فقراء الحجاج مقيمين أو مسافرين ، من الأمور التى تكسب القائم عليها ذكراً عاليا وتجعله الرئيس الفعلى لمكة .

وكانت هذه الشئون الخاصة بالحاج تحتاج إلى رجل موسر للقيام عليها ، ولم يستطع عبد شمس أن ينهض بأعبائها لفقرة وكثرة أسفاره . فتنازل عما بيده من سلطات إلى أخيه هاشم الذى كان أكثر منه ثراء . وكان هاشم يستمد ثروته من نشاطه التجارى فى الشام ، فقد تردد على هذه البلاد كثيرا ، وجلب منها ما تحتاج إليه مكة ، إذ حدث أن أصاب قريش قحط مرة ، فرحل هاشم إلى فلسطين واشترى منها دقيقا وعاد به إلى مكة ، ثم أمر به أن يخبز ونحر الجذور لقومه وأطعمهم ، وسمى من هذه الحادثة هاشما ، حيث كان يدعى من قبل عمرو (٣) .

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ص ١٨١ ، ١٨٢ ؛
Sir William Muir, The Life of Mohammad, 59.

(٢) محمد مبروك نافع ، عصر ما قبل الاسلام ، ص ١٦٩ .

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ؛
المقريزى ، النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم ، ص ٨ .

ويعتبر هاشم المؤسس الحقيقى لمجد مكة التجارى وواضع أساس نشاط قريش التجارى فى بلاد الشام ، إذ أعطى هذه التجارة طابعاً منظما وعمل على تنميتها . فينسب إلى هاشم أنه أول من سن لقريش رحلة الشتاء إلى بلاد اليمن ورحلة الصيف إلى بلاد الشام (١) ، ويبدو أن هاشم نظم رحلات قريش وأعطاها هذا المظهر الثنائى مما جعل الروايات تعده مبتكر نظام رحلتى الشتاء والصيف . ودعم هاشم هذا النشاط التجارى الجديد على أسس ثابتة ، إذ عقد مع الدول والممالك المجاورة للحجاز معاهدات ومحالفات حتى تضرب قوافل الحجاز فى أراضيها آمنة مطمئنة وتتجر بها فى هدوء ونشاط . فعقدهاشم بنفسه معاهدة مع البيزنطيين وأمراء غسان غدا بمقتضاها لقريش حق التجوال فى بلاد الشام (٢) . وازدهرت حياة مكة التجارية فى عهد هاشم ، ونعم أهل قريش بحياة رغدة هنية .

ولكن منذ عهد هاشم يمكن تلمس بداية نشاط الأمويين التجارى وحرصهم على استعادة ما سلف من نفوذهم ، الذى تنازل عنه عبد شمس لفقره . وتجلى ذلك عندما تحركت كوامن الغيرة فى نفس أمية بن عبد شمس لما ناله عمه هاشم من مكان رفيع فى مكة ، إذ طمع فى انتزاع الشرف الذى بلغه هاشم بأن يطعم قريشاً كما فعل عمه . فكان هاشم يخرج سنوياً مالا كثيراً ينفقه على إطعام قريش وحجاج مكة كما تجلى حين أصاب مكة القحط . ولكن أمية عجز عن مناهضة هاشم فى هذا المضمار وباء بفشل جعله موضع شماتة قريش وسخريتهم وعابوه على أفعاله . فغضب أمية ونافر هاشماً على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة ، وعلى جلاء عشر سنين لمن يكسب الموقف . وربما كان شرط الجلاء عن مكة يبين مدى ما أهاج نفوس بنى أمية من سيادة بنى هاشم لهذه المدينة التجارية ورغبتهم فى إبعادهم عن مصدر ثرائهم ونفوذهم . واحتكم هاشم وأمية إلى كاهن

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .
(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

من خزاعة أصدر حكمه فى صالح هاشم . فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعم من حضر المنافرة ، وخرج أمية خاسراً إلى بلاد الشام ، وأقام بها عشر سنوات (١) .

تعتبر هذه الحادثة ، التى تتخذها الروايات أول مظاهر العداء بين بنى هاشم وبنى أمية ، حجر الزاوية فى سياسة بنى أمية التجارية ، إذ أدركوا ضرورة القبض على أزمة النشاط التجارى إلى الشام للوصول إلى مركز الرئاسة بمكة ، واستعادة ما كان لأبيهم عبد شمس من سلطان . وجاء اتجاه أمية إلى الشام وإقامته بها مدة العشر سنوات رمزاً جذب أنظار بنى أمية إلى هذا الاقليم وحثهم على التزود من منابعه الاقتصادية . وجاءت الأحداث تترى بما تهيئ لبنى أمية الاستيلاء على تراث قريش التجارى فى بلاد الشام ، إذ بموت هاشم فى إحدى رحلاته إلى الشام (حوالى سنة ٥١٠ م) ودفنه بغزة ، التى حوت بذلك رفات أول قرشى بأرض الشام (٢) ، خلى الجو لبنى أمية ورأوا الفرصة مواتية لاعتلاء مدارج نشاط مكة التجارى مع بلاد الشام .

ويرجع السبب فى نجاح بنى أمية إلى أن أبناء هاشم كرسوا جهودهم للاشراف علي إدارة مكة وتدبير شئونها الدينية أكثر من بذل عنايتهم للنواحى التجارية . ولذا لم يستطيعوا النهوض بأعباء الرئاسة الدينية مع مطالب الرحلات التجارية إلى الشام على نحو ما فعل هاشم . فكان اتجاه أبناء هاشم إلى الشام أمراً غير ملموس لانصرافهم إلى تدبير شئون الحاج والإشراف على البيت الحرام . فاقتنص بنو أمية هذه الظروف وأخذوا مقاليد إعداد الرحلات التجارية والخروج على رأس القوافل إلى الشام ، مسيطرين بذلك على العمود الفقرى الذى ارتكزت عليه حياة مكة والشام التجارية .

واتضح هذا التبدل الجوهرى فى حياة بنى أمية وبنى هاشم حين أعيد تنظيم

---

(١) المقريزى ، نفس المرجع السابق ، ص ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٢) الطبرى ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

الاشراف على مكة الادارية بعد كشف عبد المطلب لبئر زمزم فى القرن السادس الميلادى[1] . إذ وزعت الاختصاصات الادارية بين الأعضاء البارزين من أحفاد قصى ، وغدت مناصبهم تنتقل وراثياً إلى أكبر أبنائهم . فاختص بنو هاشم بالشئون الدينية من هـذه الادارة ، حيث عهد إليهم الاشراف على بئر زمزم وسقاية الحاج ، ونال بنو أمية اللواء ، الذى يعتبر صاحبه كبير القواد ، والقائم على شئون الركب فى الأسفار سواء في القتال أو فى الخروج للتجارة . وظل هـذا الأمر يتوارثه بنو أمية حتى نهض به فى الأيام الأولى من فجر الإسلام أبو سفيان ابن حرب[2] والد معاوية مؤسس الدولة الأموية . ومن ثم يلاحظ أن بنى أمية غدوا نتيجة هذا التعديل الأخير أكثر فروع قريش ثراءاً وأعلاها نفوذاً فى القرن السادس الميلادى ، إذ هيأ لهم نشاطهم التجارى سبل الاتصال بكثير من البيوت الكبيرة ، فضلا عن أن نجاحهم التجارى وما نالوه من ثراء عوضهم عما عجزوا عنه من قبل من الحصول على سيادة مكة ، حتى اعتبر بعض المؤرخين بنى أمية قادة مكة وأصحاب الحل والعقد فيها قبل ظهور الاسلام .

وهكذا قبض بنو أمية بفضل زعامتهم التجارية وإشرافهم على إعداد رحلة الصيف على أزمة الأمور فى مكة ، وورثوا ثمار الجهود التى بذلتها الهجرات العربية من قبل فى الشام وتأسيسها بعض الممالك هناك . وإن نظرة على تنظيم بنى أمية لرحلة الصيف وقوافلها تبين التيارات التى أدرك الأمويون فيما بعد أهميتها ، وكيف حولوا مجراها إلى خدمة مآربهم فى الشام حين سنحت لهم الفرص بعـد قيام الفتوحات الإسلامية .

---

(١) اجتاز تاريخ بئر زمزم أدوارا متباينة ، فقد كان يسكن إلى جوار مكة قبل أن ينبع الماء فى زمزم الجراهمة ، الذين احتفظوا بسدانة البيت العتيق بعد ضعف بنى إسماعيل ، وأشرفوا على شئون بئر زمزم كذلك . ولـكن جرهما بغت بمكة وضعف أمرهم مما جعل خزاعة تنجح فى التغلب عليهم . ولـكن قبل أن يبرح آخر ملك جرهمى مكة رمى فى بئر زمزم تحفه وذخائره ثم طم البئر ، وظل حال البئر على ذلك حتى أكتشفه عبد المطلب .

(٢) مبروك نافع ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

كانت دار الندوة بمكة [١] طبقاً للنظام القبلى تغص بعلية القوم ، ينعقد جمعهم على هيئة مجلس حين يأتى ميعاد خروج قافلة من مكة قاصدة الشام . وكانت إدارة دفة المجلس وتدبير شئون الأعمال التجارية التى تتناولها مناقشاته خاضعة لما يشير به بنو أمية . فقد اشتهروا بالخبرة الواسعة فى ميدان المال ،فضلا عن أن اختصاص النظر فى مثل هذه الأمور التجاريه منوط بهم حسب تقسيم شئون مكة الادارية . وكان يعهد إلى كبيرهم قيادة القافلة وإعدادها ، لما يعلقه أهالى مكة من آمال على ضروره نجاح القافلة وجلال مطالبها . إذ كان كل فرد فى مكة أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادى يساهم بنصيب معين فى تكاليف إعداد القافلة .

واشترك فى إعداد القافلة الغنى والفقير ولا سيما النساء بصفة خاصة . فحياة أهالى مكة ، الغنى منهم والفقير، متوقفة على القوافل التجارية الذاهبة إلى الشام ومدى ما تدره عليهم من أرباح . إذ تطلعت الأسر الغنية إلى زيادة ثرائها فى هذه المشاريع التجارية الرائجة والإعلاء من شأنها بين البيوت التجارية الكبرى ، على حين رأت الأسر الفقيرة فى استغلال أموالها الضئيلة فى هذا الميدان سبيلا يعاونهم على قضاء مطالب الحياة ، والحصول على مورد خارجى يمكنهم من النهوض بأعبائها . فكل فرد منهم كان يقتصد من دينار إلى دينارين أو كل ما يستطيع أن يدخره من مال ليساهم فى إعداد القافلة [٢] .

كذلك اشتركت النساء فى مكة فى إعداد القوافل ، إذ رأت الكثيرات

---

(١) يقترن اسم دار الندوة دائما بمكة ، وهى المكان الذى اجتمع فيه سادة المدينة ليدرسوا شئون مدينتهم .وكانت دار الندوة فى الأصل البيت الذى بناه قصى مسكنا له سنة ٤٤٠ م بالقرب من الناحية الجنوبية الغربية للكعبه . وعرف هذا البيت باسم دار الندوة لأن قريش دأبت على الاجتماع به لمناقشة مسائلها العامة . وكان يحضر هذه الاجتماعات الفرد الذى لا يقل سنه عن أربعين سنة . وكان قصى يسلم فى هذه الدار اللواء أو العلم لقائد الحملات الحربية . وقد آلت امتيازات قصى الى أولاده وأحفاده من بعده .

(2) Grant, op çit, 189,187.

منهن ، ولا سيما من كبار البيوتات المكية ، طريقاً لتنمية مواردهن والعيش فى حياة رغده هانئة . ومن أمثلة هؤلاء خديجة التى تزوجها الرسول الكريم ،والذى أشرف على إدارة أموالها واستثمارها عن طريق هذه القوافل التى اتجهت إلى الشام . على أن نساء البيت الأموى كن أكثر النساء نشاطاً فى هذا الميدان التجارى . فكانت أم أبى جهل تتاجر فى العطور ، وهند زوجة أبى سفيان تبيع متاجرها بين بنى كلب فى الشام (١) .

وكان العبء الأكبر فى إعداد القافلة وتمويلها ، رغماً عن هذه المساهمات السابقة الذكر ، يقع على كاهل بنى أمية وحدهم . فهم يجمعون الأموال من كل راغب فى التجارة ، ثم يزودون القافلة بما تحتاجه إلى جانب هذه المساهمات من مال ، وكان ذلك هو القسط الأوفر غالباً . فمن ذلك أن المال الذى طلب لإعداد القافلة التى أدت إلى غزوة بدر بلغ مقدار ٥٠٫٠٠٠ دينار ، قدم بنو أمية أغلبيته الكبرى . فدفعت جماعة أبو أحيحة وحدها من عائلة سعيد بن العاص الأموى، مبلغ ٣٠٫٠٠٠ دينار ، إذ كانوا عبارة عن نقابة تجارية تستغل رأس مالها فى هذا النشاط . وفضلا عن ذلك ساهمت بيوت بنى أمية الأخرى بمبلغ ١٠٫٠٠٠ دينار ، و بعبارة أخرى أمد بنو أمية قافلة بدر بأربعة أخماس المبلغ الذى طلب لإعدادها. وهذه القافلة أطلق عليها اللطيمة ، وذلك إسم يقصد به غالباً القافلة التى تحمل العطور (٢) ، وهى أهم المتاجر الشرقية التى تنقل إلى الشام .

وهذه القافلة التى تعتبر نموذجا لغيرها من القوافل الذاهبة إلى الشام تبين مدى ما بذله الأمويون من مال فى الميدان التجارى ، وأنها توحى بضرورة وضع القافلة تحت إشراف شخصية لها خطرها حتى لا تصاب بسوء يعد كارثة تصيب

---

(1) O'Leary, op cit 183;
Encyc of Islam (art Mecca) .
(2) Grant, op cit. 126.
Encyc. of Islam (art Mecca)

كل فرد فى مكة جميعها ، غنياً كان أو فقيراً . وكانت مهمة اختيار الرئيس أمراً لا يقل خطراً عن إعداد الرحلة نفسها ، إذ على شخصيته وهيبته وحدها تتوقف سلامة الرحلة . فكان لا بد أن يختار من ذوى المكانة العالية والحسب العريق ، إذ يعتبر هو وأقاربه مسئولين عن تعويض المشتركين فى إعداد القافلة عن أية خسارة تلحق بتجارتها[١] . ولذا كان إسناد هذه القافلة إلى أبى سفيان يوحى بما تمتع به هذا الرجل من مكانة وهيبة فى مكة ، فضلا عن وظيفته الرسمية فى الخروج على رأس أشباه هذه القوافل الهامة .

وهكذا كان قيام أموى على رأس القوافل التجارية أمرا لا تتطلبه الشئون التجارية فحسب ، وإنما ضرورة تقتضيها سلامة الرحلة والاطمئنان على تكليل نشاطها بالنجاح . وهذا الأمر السالف يحمل معنى السلطات الواسعة التى خولت لبنى أمية ، إذ كان رئيس الرحلة يخرج على رأس قافلة هائلة تحتاج إلى يد حازمة وسلطان مطلق . فبلغ عدد الجمال التى خرجت فى قافلة بدر ٢٥٠٠ بعير فضلا عن عدد كبير من الحراس بلغ حوالى ٣٠٠ رجل بين دليل وخفير[٢] . وقد منح رئيس الرحلة كافة السلطات التى تخوله الاتفاق مع من يشاء لإحاطة قافلته أثناء الطريق بالأمن والهدوء . فكان يدخل فى مفاوضات مع قبائل البدو التى تجتاز قافلته أرضها ، ويأخذ منهم حراس للمحافظة على القافلة عند اجتيازها أى منطقة مخوفة . وإذا اقتربت القافلة من إحدى المدن يعمل على الاتفاق مع السلطات بها على إرسال حامية من الجند تدفع عن القافلة غائلة العدوان[٣] .

وإلى جانب هذه الامتيازات الواسعة التى تمتع بها بنو أمية لتوليهم رئاسة القوافل إكتسبوا بفضل التجارة مراناً على الإستعداد للنوازل والعمل على تفاديها

---

(1) Grant, op cit. 128,129

(2) Grant, op cit 127, 128

(3) Ibid, 128

قبل وقوعها . فتعلموا فى رحلات الصيف تكريس جهودهم للمحافظة على سلامة متاعهم أولا وقبل كل شيء ، والاحتيال على تحقيق أهدافهم مهما كلفهم من وسائل . فكان رئيس القافلة إذا مادهمه خطر يبعث نذيراً له هيئة مفزعة يستنفر الناس للدفاع ، ولكن النجاح فى هذا الأمر يتوقف على حيطة الرئيس وبعد نظره .

وتجلى ذلك حين عاد أبو سفيان بقافلته من الشام إلى مكة . إذ عندما اقترب من الحجاز أخذ يتجسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان عن أحوال الطريق ، وحين علم أن الرسول خرج للثأر لنفسه وللمهاجرين من عير قريش القادمة من الشام استأجر شخصاً يدعى ضمضم بن عمر الغفارى وبعثه إلى مكة ليستنفر أهلها للدفاع عن ثروتهم وكيان حياتهم (١) . وكان هذا النذير يمنح مبلغاً كبيراً نظير تأدية مهمته ، إذ أعطى أبو سفيان ضمضم مقدار عشرين ديناراً ، ولكن هذا القدر يعد قليلا إلى جانب الأرباح الهائلة التى تدرها تجارة القوافل ومايترتب على نجاحه من إنقاذ أموالهم .

وكان خروج القافلة إلى الشام يعتبر يوماً عاماً عند جميع أهل مكة ، إذ يخرجون جميعاً لتوديعها معلقين الآمال على تأديتها تجارتها فى أمن وسلام (٢) . واتبع بنو أمية فى قيادتهم لهذه الرحلات الطريق التجارى القديم ، إذ بعد اجتياز بلاد الحجاز يؤدى الطريق إلى الأراضى البيزنطية عند أيلة (العقبة) التى ضمها الرومان إليهم سنة ١٠٥ م . وعند هذه المدينة يبدأ طريق تراجان الذى يمتد بين البحر الأحمر وفلسطين وينتهى عند غزة . فكانت القوافل تتابع سيرها من أيله إلى غزة وأحياناً يذهب فرع آخر منها إلى بصرى ، التى كانت عاصمة الولاية العربية بالشام (٣) وسوقاً كبيراً وفدت إليه القوافل التجارية قبل الإسلام .

---

(١) الطبرى ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) Encyc. of, Islam, (art Mecca)

(٣) O'Leary, op cit, 186, 187

وتمتع قادة قوافل قريش من بنى أمية بشهرة عالية فى ميدان التجارة هيأت لهم جنى ثمار الامتيازات التى حصل عليها هاشم من البيزنطيين والغساسنة . فكانت القوافل تجد كل معونة من السلطات البيزنطية عند دخولها أيلة ، وكانت مقر الفيلق العاشر الذى احتل جزء منه جزيرة «جوتابا» لإكمال حركة الرقابة على أية تجارة قد تأتى بحراً . ففى أيلة كان التجار الأمويون يحرصون على الحصول على الدينار البيزنطى لتصريف شئونهم التجارية ، على حين لقوا كل ترحيب فى المدن الأخرى التى سادها نفوذ الغساسنة(١) . وكانت أهم السلع التى تحرص قوافل مكة على الحصول عليها من الشام هى المنسوجات القطنية والحريرية والأقمشة المصبغة ذات اللون الأرجوانى ، على حين تجلب من بصرى الأسلحة والحبوب والزيت ، وهذه كلها أشياء تهافت البدو على الحصول عليها(٢) .

واشتهر بقيادة قوافل قريش إبن جعدان وأبو أحيحه وأبو سفيان ، وغالبيتهم من البيت الأموى . وقد ذاعت شهرتهم ليس بين بنى جلدتهم فحسب ، وإنما حظوا بالمكانة العليا كذلك بين السلطات البيزنطية . فكانت الدولة البيزنطية تعمل كل ما وسعها من جهد لإعلاء شأن أمثال هؤلاء القادة العظام ؛ وربما قلدت السياسة الرومانية القديمة فى إقامة تماثيل لهم تخليداً لذكراهم ولما أبدوه من ضروب الشجاعة والمهارة الفائقة(٣) . ولذا يحتمل أن أبناء البيت الأموى تمتعوا بمركز رفيع بين السلطات البيزنطية فى الشام ، حيث غدوا أساة الشريان التجارى البرى وسادته الذين بعثوا فيه دم الحيلة نابضاً بعد أن هبط نشاط النقل البحرى عبر البحر الأحمر .

ولا مراء فى أن علو شأن بنى أمية عند حكام الشام البيزنطى أوقفهم على

---

(1) Lammens, op cit, 310 312, 313

(2) Encyc. of Islam (art Mecca)

(3) O'Leary, op cit, 184;
Lammens, op cit, 313

أمثل الطرق لاكتساب عطفهم والعمل على نيل رعايتهم ، مما يقتضى دراية وعلما بالشخصيات ذات الحظوة لدى أولئك الحكام ، واتخاذهم وسطاء لديهم . وهذا من خلق التاجر الذى يتخذ من توثيق الصلات بين الناس ، ومعرفة طبائعهم وإرضاء نزواتها شعاراً للمحافظة على متاجره وترويجها بينهم . «فإن كان جريئاً على الخصومة . . . مقداماً على الحكام كان ذلك أقرب إلى النصفة . . . وإلا فلا بد له من جاه يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من معامليه[1] » . هذا إلى أن التاجر يشتهر بعين الفاحص الخبير التى تمكنه من معرفة أحوال البلاد التى يحط فيها رحاله ، وضروب السلع التى تحتاجها ، والتطورات التى تطرأ على أذواق أهاليها . كل ذلك بما يضمن له تصريف متاجره فى أمن وسلام . ومن ثم كانت رحلة الصيف إلى الشام المدرسة التى تلقن فيها الأمويون دروساً فى طريقة خطب ود أهالى الشام ومراناً على إرضاء أذواقهم ، وعرفوا حين سنحت لهم الظروف فيما بعد سبل السيطرة على أزمة هذا الإقليم وهيئة الاشراف به .

وإلى جانب هذه الخبرة الواسعة التى عرفها الأمويون عن أهالى الشام أدركوا كذلك بفضل إشرافهم على القوافل التجارية مصادر السلطة والهيلمان فى بلاد الحجاز وأيسر السبل لاجتذاب خيرة رجالاته إلى جانبهم . وذلك أن قيامهم على جمع أنصبة المساهمين من أهل الحجاز فى القافلة الذاهبة إلى الشام جعلهم يخبرون شتى أصناف الشخصيات ودراسة خلقها وطباعها . فكان وصول القافلة من الشام إلى مكة يوم عيد عند الجميع يخرجون فيه جميعاً لتحية الركب بقرع الطبول ، ويحدوهم الأمل بالربح الوفير[2] الذى يحمله لهم قادة القافلة من بنى أمية .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٠

(2) Grant, op cit, 130
O'Leary, op cit, 185

وكانت القافلة تدخل مكة تباعاً أشبه بالجيش وما يحدثه فى النفس من رهبة . ثم يقبل الجميع يتزاحمون لأخذ أنصبتهم وأرباحهم من أبى سفيان الذى جلب لهم من الشام الخير العميم ؛ ويعودون مرحين مغتبطين بما أصابوا من ثراء . على أن أبى سفيان وأهل بيته من الأمويين يجمعون إلى جانب أرباحهم الخبرة الواسعة عن شخصيات عرب الحجاز ومدى صلابة عودهم . ولذا عند ما حصلوا على ما ادخره لهم الزمن من سلطان عظيم فى دمشق بعد فتح الشام وجدوا لديهم قوائم جاهزة بأسماء الأعوان والأنصار الذين تفانوا فى نصرة قضيتهم وتحقيق ما جاشت به نفوسهم .

وهكذا استطاع بنو أمية بفضل نشاطهم التجارى ، ومثابرتهم على الخروج فى رحلات الصيف إلى الشام أن يكونوا أصحاب المركز الأول فى الحجاز ، والقابضين على أزمة حياته الاقتصادية . ومن ناحية أخرى كسب الأمويون مكانة مرموقة فى إقليم الشام ، ولا سيما أنهم حرصوا على اقتناء الأملاك والعقار الذى منحهم هيبة بين السكان . فاشترى أبو سفيان ضيعة فى البلقاء [1] بفضل ما أغدقته عليه التجارة من ثراء وافر . ولا شك أن هذه الخطوة التى قام بها أبو سفيان جعلت الأمويين المشتغلين بالتجارة على صلات قوية مع أهل الشام وقربت الألفة بينهم .

وأصبح الأمويون بذلك قبل ظهور الإسلام مباشرة العمود الفقرى فى النشاط التجارى بين الشام والحجاز وأصحاب الكلمة المسموعة فى كل ما يتصل بهذا الميدان . وعرف الأمويون بعد ظهور الإسلام كيف ينعمون بالأسس التى وضعها زعماؤهم زمن الجاهلية فى إقليم الشام حتى شيدوا عليها صرح دولتهم عاليا .

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٣٥ .

قيام البيت الأموى فى الشام

يعتبر العقد الأول من القرن السابع الميلادى مشرق ظهور الأمويين على مسرح الأحداث السياسية فى بلاد الشام ، إذ أدت سياسة البيزنطيين فى إضعاف الغساسنة والقبض على سادتهم إلى غروب شمسهم بشكل ملموس واضح ، وتهيئة المسرح لسلطان بنى أمية فى الشام . وآية ذلك أن الأباطرة البيزنطيين لم يغضوا الطرف عن الغساسنة بعد تشتيت أمرائهم ونفيهم خارج بلاد الشام ، وتابعوا السياسة التقليدية الخالدة التى تنادى « فرق تسد » . فأخذوا يوقعون الشقاق بين قبائل الغساسنة بعد أن انفرط عقد اتحادهم وسطوتهم ويغرون القبائل العربية الأخرى على التحرش بهم والإجهاز على البقية الباقية من نفوذهم . وكان الأمويون المترددون بقوافلهم التجارية على بلاد الشام يرقبون هذه الأحداث عن كثب ، جاهدين على الابتعاد عن تيار المنازعات وقانعين بما يجدونه من رعاية وطمأنينة لدى هذه القبائل جميعاً .

وظل الأمويون على هذا النهج حتى اتجهت السلطات البيزنطية إلى الاستعانة بالقبائل العربية الضاربة فى شمال الحجاز على إخماد حركات بعض الغساسنة الذين لم ينكسوا راية العصيان . وكانت وسيلة الإيقاع التى عمد إليها البيزنطيون هى إثارة حفيظة هـذه القبائل العربية على ما ارتكبه الغساسنة نحوهم من عسف فى أيام أوجهم . وجاءت الأحداث بما يمهد للبيزنطيين السبيل ، إذ اتخذت من ادعائها حق حماية المسيحيين ببلاد العرب تكأة للاتصال بالقبائل العربية فى الحجاز ، وكان القرشيون فى مكة إذ ذاك سادة القبائل العربية وأقواها بسبب زعامتهم التجارية التى نالوها بفضل بنى أمية ونشاطهم التجارى .

اتجه البيزنطيون إذ ذاك إلى الاتصال بقبيلة قريش متذرعين بحماية المسيحيين فى الحجاز حيث كان يرأسهم شخص يدعى « أبو الأمير الراهب »[1] . على أن

(1) Kammerer, op cit. 345

القرشيين أبوا على البيزنطيين تدخلهم فى شئون قبائل الحجاز خشية ترجيح كفة قبيلة على أخرى . فانتدبت قريش أحد سادة البيت الأموى ، وأوسعهم تجارة ، وهو عثمان بن عفان ، لمفاوضة السلطات البيزنطية وحملها على الحد من نشاطها فى الحجاز ، ومبيناً لها مغبة سياستها ، إذ عليه أن يذكر البيزنطيين بسيادة مكة على سائر القبائل الأخرى وما لها من أهمية كبرى فى النشاط التجارى للامبراطورية البيزنطية ، وأن الأفضل هو كسب تأييدها السياسى ، لا شد أزر المسيحيين[1] .

وذهب عثمان بن عفان إلى عمال الحدود البيزنطيين (فى إقليم الثغور) المقيمين فى بصرى ، وفاوضهم على الأسس السالفة ، وأضاف إليها بيان الدور الذى يمكن أن يلعبه العرب فى تعضيد البيزنطيين فى حروبهم المستمرة إذ ذاك مع الفرس . فانتهز البيزنطيون هذه السفارة العربية وعملوا على اجتذاب عرب الحجاز إليهم للقضاء على فلول الغساسنة ، فأغدقوا على عثمان بن عفان لقب « فيلارخ » وهو من أرفع الرتب البيزنطية ، ولكن يبدو أنهم راوغوا فى تحقيق مطالبه الأساسية وهى الكف عن منازعة قريش سيادتها فى الحجاز[2] .

عاد عثمان بن عفان إلى مكة وهو يدرك تماماً أهداف البيزنطيين فى إيقاع الفرقة والشقاق والشحناء بين صفوف العرب ، فأبى أن ينفذ مطالب البيزنطيين بتحريض عرب الحجاز ضد الغساسنة ، حيث أدرك أيضاً بثاقب نظره ما عليه الإمبراطورية البيزنطية من ارتباك وما بدت عليه من علامات الأفول فى تلك الرقعة من أراضيها المطلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقى . وجاءت الأحداث تترى بما يزيل للبيزنطيين من نفوذ فى الشام وفى شمال بلاد العرب ، ويحقق ما أدركه عثمان بن عفان ، إذ سرعان ما غزا الفرس بلاد الشام (٦١٣/٦١٤م) ، وقوضوا أركان البيزنطيين هناك[3] . ثم إن هرقل لم يكد ينعم باسترداد الشام

(1) Kammerer, op cit. 345
(2) Ibid , 345.
(3) Ibid, 343 346.

وإبعاد الشبح الفارسى عن أراضى دولته المطلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقى حتى ظهر نور الاسلام وكتب للعرب الذين ذاقوا من البيزنطيين ألوان التعذيب والتشتيت العزة عليهم ، ثم دفعهم على حمل لواء الإسلام إلى الشام وإزالة نفوذ البيزنطيين نهائياً منه .

وتعتبر سفارة عثمان بن عفان دليلا على مطالع نفوذ الأمويين السياسى فى إقليم الشام قبل الهجرة بزمن قليل . ثم لم يلبث الأمويون أن حازوا قصب السبق فى الميدان السياسى فى ذلك الاقليم كذلك حين أخذ الرسول الكريم يدعو القبائل العربية الضاربة فى شمال الحجاز وجنوب الشام إلى الدخول فى دين الإسلام . إذ استعان الرسول فى تلك البقاع بعمال من بنى أمية وبغيرهم ممن عرف بالحظوة عند الأمويين والدخول فى دائرة نفوذهم . فكانت سياسة الرسول تهدف إلى استخدام نفوذ الأمويين بين القبائل العربية فى جنوب الشام لنشر الدين الاسلامى بينهم ، وإيفاد غيرهم من مشاهير العرب الدائرين فى فلكهم على رأس السرايا التى بعثها إلى قبائل الشام .

جعل الرسول الكريم عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر وتبوك وفدك [١] ، تلك البلاد الوثيقة الاتصال بالحدود البيزنطية وبالقبائل العربية الضاربة على تخومها . وبعث عمرو بن العاص ، صاحب اليد الطولى على معاوية فيما بعد زمن التحكيم [٢] ، إلى أرض عمان بالقرب من الشام ، إذ وجهه الرسول إلى تخوم الشام التى نزلت بها أقوام بلى وعذرة ، حيث تربطه صلة القربى بأولئك العرب هناك . فكانت أم العاص بن وائل امرأة من بلى ، مما حدى بالرسول إلى اختيار عمرو لاستنفار تلك القبائل لمهاجمة الشام اعتماداً على صلة القربى بينه وبين أخوال أبيه فى أرض بلى [٣] .

(١) المقريزى ، المرجع السابق ، ص ٣٢

(٢) كان والد عمرو ، وهو العاص بن وائل ، من أعز أصدقاء أبى سفيان أيضا والد معاوية

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٠٤

وهكذا كانت سياسة الرسول فى إطلاق يد هذا النفر من بنى أميه وغيرهم من الموالين لهم سياسة صحيحة ، تستند إلى تأليف قلوبهم للاسلام والإفادة من مجهوداتهم فى نشره . وتجلى ذلك حين خرج عمرو بن العاص إلى تخوم الشام [١] . إذ عندما بلغ عين ماء فى أرض جذام يقال لها السلاسل توقف حتى يسبر غور هذه البقعة ، و بعث إلى رسول الله يطلب منه مدداً . فوجه إليه الرسول أباعبيدة من الجراح على رأس الأمداد ، ثم زود الرسول أبا عبيدة بتعليمات صريحة تجعل لعمرو مركز الصدارة على الجند جميعاً . ولما وصل أبو عبيدة إلى معسكر عمرو إنضوى تحت لواءه إمتثالا لأمر الرسول ، إذ حين خاطب عمرو أبا عبيدة قائلا : « إنما جئت مدداً لى ، قال أبو عبيدة ، يا عمرو ، إن رسول الله قال لى لا تختلفا ، وأنت إن عصيتنى أطعتك ، فقال عمرو فأنا أمـــير عليك ، فقال أبو عبيدة ، فدونك ذلك [٢] .

وكان الرسول حازما خبيراً فى إتخاذ هذه السياسة وكسب ولاء بنى أمية وأنصارهم فى غزواته لمنطقة تخوم الشام ، إذ رأى بعد غزوة مؤته ضرورة نشر الإسلام بين عرب الشام و إخراجهم من حظيرة البيزنطيين . فقد واجهت حملة مؤته عند معان من أرض الشام قوات البيزنطيين التى انضم إليها حال وصولها أرض البلقاء المستعربة من لخم وجذام و بهراء و بلى ، فى مائة ألف رجل ، عليهم قائد من بلى [٣] . وهــذا يدل على حصافة الرأى فى انتداب عمرو بن العاص لكسب ود بلى ونشر الإسلام بينهم لما كان لهم من مركز الصدارة فى تلك البقعة من تخوم الشام .

---

(١) كان خروج عمرو إلى تخوم الشام لمحو آثار غزوة مؤته ، ونشر الإسلام بين القبائل العربية فى شمال بلاد العرب وإخراجهم من دائرة التبعية للبيزنطيين .

(٢) الطبرى ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ؛
Muir, The Life of Mohammad, 397

(٣) الطبرى ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

ولما توفى الرسول كشف الأمويون القناع قليلا عن أطماعهم السياسية فى إقليم الشام . إذ أبى عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية وأبناؤه البقاء على عمالتهم فى تبوك وفدك وغيرها ، ورفضوا طلب أبى بكر للدخول فى إدارته لتصريف شئون تلك النواحى المتاخمة للشام ، وأجابوا بقول يحمل الكثير من المعانى ، فسرتها الأيام فيما بعد حين قبضوا على أزمة الخلافة الإسلامية « نحن أبناء أبى أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا[١] » .

على أن بنى أمية وجهوا نشاطهم نحو إقليم الشام ، واشتركوا فى المغازى التى أرسلت إلى شتى أرجاءه دون القناعة بإدارة بلدة من البلاد المتاخمة له . إذ أدركوا أن الشام المسرح الذى يجدر بهم إظهار مواهبهم فيه ، وأن يكسبوا بحمل الدين الإسلامى إلى أهله أسمى الذكر ، ليعوضوا ما فاتهم من سبق فى اعتناق الإسلام . فحارب أبناء سعيد بن العاص بن أمية فى مغازى الشام وقتل منهم الكثير حتى قيل : « ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاص ميتاً »[٢] .

وهكذا خضب بنو أمية بدمائهم أرض الشام وغذوا به بذور سلطانهم الذى أينع على عهد معاوية ، بعد أن استفاد بنفسه من أحداث الفتوحات زمن الخليفتين أبى بكر وعمر . وتجلى إقبال الأمويين على الشام بعد انتهاء أبى بكر من حروب الردة واتجاهه إلى إعداد الجيوش لفتح هذا الاقليم . فكان نصيبهم هو الأوفر فى المساهمة فى العمليات الحربية من حيث قيادة الجيوش وعدد الجند الذين وضعوا تحت تصرفهم .

جهز أبو بكر أربعة جيوش ، جعل عليها يزيد بن أبى سفيان الأموى وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنه وأبو عبيدة بن الجراح . وضم جيش يزيد

---

(١) المقريزى ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .
(٢) المقريزى ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

بن أبى سفيان أعظم المحاربين مراساً وأعزهم نفراً وخرج أبو بكر بنفسه مع يزيد بن أبى سفيان يودعه ، وسار الخليفة ماشياً ويزيد راكباً ، إجلالا لهذا القائد الذى رغب الخليفة فى تكريمه لما له من شأن فى هذه الحملة المتجهة إلى الشام ، وليجعل له مركز الصدارة فيها عوضاً عن خالد بن الوليد الذى ذهب إلى العراق . وسار جيش يزيد فى المقدمة ، يحمل علمه معاوية بن أبى سفيان أخو القائد ومؤسس الدولة الأموية فيما بعد (١) .

واتجه كل جيش من الجيوش الإسلامية صوب منطقة معينة من إقليم الشام ، لوحظ فيها مدى صلة القربى أو دراية قادة الجيوش بقبائلها وأحوالها . فنزل أبو عبيدة الجابية ، وشرجيل بن حسنة الأردن فى المنطقة القريبة من بصرى وعمرو بن العاص القريات ، ويزيد بن أبى سفيان البلقاء . وكان اختيار القائد الأخير للبلقاء على أساس معرفته الوطيدة بها . فكان لأبى سفيان بالبلقاء قرية أو ضيعة تابعة له إسمها « بقبش » مما يبين جليا مدى نشاط الأمويين وخبرتهم بالشام قبل ظهور الإسلام وإبان انتشار الفتوحات الإسلامية به (٢) .

ولم يقتصر نشاط الأمويين فى هذه الفتوحات الإسلامية الأولى فى إقليم الشام على يزيد بن أبى سفيان وأخيه معاوية وخروجهما معاً على رأس جيش واحد . إذ بعث يزيد بأخيه معاوية إلى جيش أبى عبيدة بن الجراح لشد أزرة فى زحفه على بلاد الشام ، مما يحمل علي الاعتقاد بأن قادة الجيوش الإسلامية الأخرى فى الشام إعتمدوا على خبرة أفراد البيت الأموى بتلك البلاد . وفضلا عن ذلك سارع سائر أفراد البيت الأموى إلى المساهمة فى حملات المسلمين على الشام ، واضطلعوا بمهمة بث روح الحماس والحمية فى نفوس المقاتلين المسلمين . فاشترك

---

(١) الطبرى ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٩ ؛
المقريزى ، المرجع السابق ، ص ٤٠ ، ٤١

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ١٣٥ .

أبو سفيان نفسه فى جيش ابنه يزيد المحارب فى الشام ، وصاحبه بعض أفراد بيته من النساء .

وكان للنسوة من البيت الأموى نصيب ملحوظ فى العمليات الحربية التى قامت بها جيوش المسلمين ، فضلا عن تشجيع الجند على مواصلة القتال . إذ أمر أبو سفيان النساء اللائى خرجن مع الجيوش وأجلسن خلف الصفوف بأن يقذفن بالحجارة كل من رجع إليهن من جند المسلمين . وكذلك اشترك نساء البيت الأموى اشتراكا فعليا فى معركة اليرموك الحاسمة التى جلبت الشام إلى المسلمين ، إذا قاتلت جويرية إبنة أبى سفيان مع زوجها فى هذه الواقعة ، إلى جانب غيرها من النساء ، اللائى ظهر منهن أيضاً هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان. وتوج هذا النشاط الحربى الذى أبداه الأمويون فى هذه المعركة الكبرى أعمال أبى سفيان نفسه ، الذى أصيبت عينه يومئذ مسطراً إسمه بذلك فى سجل كفاح آل بيته فى حروب الشام [1] .

وعرف الأمويون كيف ينعمون بثمار جهودهم فى فتوحات الشام على عهد الخليفتين أبى بكر وعمر . إذ استطاعوا أن يكسبوا ثقة هذين الخليفتين وأن يحتفظوا بمركزهم الرفيع فى إدارة شئون إقليم الشام وأن يوسعوا سلطانهم فيه . فبينما ساءت العلاقات بين الخليفة عمر والقائد خالد بن الوليد ، وعزل الأخير عن قيادة الجيوش الإسلامية ، وعلى حين حاسب الخليفة عمر عمروا بن العاص فاتح مصر حساباً شديدا ولم يدع له فرصة يدعم فيها نفوذه فى مصر ، نجد أبناء البيت الأموى فى إقليم الشام يسيرون قدماً فى مدارج السلطان وتدعيم قبضتهم على شئونه . إذ تجنب أبناء البيت الأموى فى الشام التردى فى المصير الذى لاقاه خالد وعمرو ، وزادت دعائمهم قوة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب نفسه . وتعتبر سياسة هذا

---

(١) الطبرى ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٦ ؛
كرد على ، خطط الشام ، ج ١ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

الخليفة تجاه أفراد البيت الأموى بالشام ، سواء جاء ذلك عفواً أو تحت إملاء ظروف خاصة ، ظاهرة تسترعى الانتباه إذا ما قورنت بسياسته إزاء غيرهم من القادة والولاه .

وتجلت هذه السياسة حين توفى يزيد بن أبى سفيان ، فقد عهد الخليفة عمر إلى معاوية بن أبى سفيان إدارة ما كان خاضعاً لأخيه يزيد من بلاد الشام . هذا إلى جانب توسيع الخليفة عمر سلطان معاوية فى إقليم الشام حين نظم إدارة هذا الإقليم ، إذ عندما توجه عمر إلى إقليم الشام للمرة الأخيرة سنة ١٧ هـ ، ورتب الجيوش بها وقوى حصونها ، عزل شرحبيل بن حسنه وأقام مكانه معاوية . واتضح ميل عمر إلى تفضيل أبناء البيت الأموى حين سأله شرحبيل « أعن سخطة عزلتنى يا أمير المؤمنين ؟ فأجاب لا ، إنك لكما أحب ، ولكنى أريد رجلا أقوى من رجل »(١) ، وبذلك كان معاوية يتولى الأردن ودمشق عند وفاة عمر .

وإذا كان الأمويون قد نعموا بميزات جعلت أبا بكر وعمر يفضلانهم على غيرهم فى إدارة إقليم الشام ، فإن الأمويين ساروا وفق سياسة مرسومة تهدف إلى تجنب إثارة شكوك الخليفة عمر نحوهم ، وما ينجم عن ذلك من إقصائهم عن الشام محط آمالهم . إذ قدم معاوية من الشام مرة وهو والى عليها من قبل عمر ودخل على أمه هند بالحجاز لزيارتها ؛ فقالت له « يا بنى ، .. قد استعملك هذا الرجل (أى عمر) ، فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته » . ثم دخل على أبيه أبى سفيان ، فقال له « يا بنى ، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين ... قد قلدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالفن أمرهم ، فإنك تجرى إلى أمد لم تبلغه ، ولو قد بلغته لتنفست فيه »(٢) . وإن هذا الاتفاق فى المعنى رغم اختلاف اللفظ يوضح تماماً

---

(١) الطبرى ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ١ ص ١٤ ، ١٥ .

آمال الأمويين فى البقاء عمالا على إقليم الشام ، فضلا عن أن نصيحة أبى سفيان كشفت عما راودهم من طموح جهدوا على تحقيقه رويداً ، عامدين أولا إلى كسب ود الخلفاء وعطفهم .

وتوالت الأحداث بما يكسب الأمويين نفوذاً وحظوة عند الخليفة عمر ، الذى أدرك بثاقب نظره أهليتهم عن غيرهم فى تصريف شئون الشام . إذ حدث أن وفد عمرو ومعاوية على الخليفة ليتحدثا معه فى شئون ولايتيهما ، واعترض عمرو على بعض أقوال معاوية مما حمل الأخير على أن يهم بذكر مثالب عمرو فى إدارة مصر . على أن عمرو أدرك بدهائه قصد معاوية ، وعمل على أن يصرفه عن الخوض فى أحوال مصر بأن لطمه على وجهه . فاستاء الخليفة وأمر معاوية أن يقتص لنفسه . ولكن كياسة معاوية تجلت حين أجاب « إن أبى أمرنى ألا أقضى أمراً دونه » ، فأرسل عمر إلى أبى سفيان ، الذى تجلت كياسته كذلك فى فض هذه المهاترة وما يحتمل أن تجلبه وراءها من أضرار بأن تنازل عما لحق بابنه من إهانة فى هذا القول الحكيم « لهذا بعثت إلى ! أخوه وابن عمه ، وقد أتى غير كبير ، وقد وهبت ذلك له[١] » .

ومن أمثلة نجاح معاوية فى التخلص من المآزق والعمل على نيل رضى الخليفة عمر ليظل والياً على إقليم الشام ما حدث بينه و بين الخليفة حين قدم على ذلك الإقليم فى إحدى زياراته المتكررة . إذ خرج معاوية فى موكب حافل لاستقبال عمر ، لكن الخليفة لم يرقه ذلك وأعرض عنه ، فسار معاوية راجلا إلى جوار الخليفة حتى قال له عبد الرحمن بن عوف ، أتعبت الرجل . حينئذ سأل الخليفة معاوية عما دعاه إلى الخروج فى هذا الزهو والركب الحافل ، فأجاب معاوية « لأنا فى بلاد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ، ولابد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان ، فإن أمرتنى بذلك أقمت عليه ، و إن نهيتنى عنه انتهيت » . وهكذا

(٢) ابن عبد ربه ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٠ .

استطاع معاوية بلباقته التى افتقر إليها غيره من الولاه أن يفوز برضى الخليفة ، إذ أجابه عمر قائلا : « لئن كان الذى تقول حقاً فإنه رأى أريب ، وإن كان باطلا فإنها خدعة أديب ، وما آمرك به ولا أنهاك عنه[1] » .

وهكذا دعم الأمويون نفوذهم فى هذه المرحلة الأولى من تاريخهم السياسى فى صدر الإسلام ، لاشتراكهم فى الحملات التى بعثها الرسول إلى إقليم الشام ، وكذلك فى الجيوش التى فتحت هذا الإقليم . ثم سرعان ما بذوا غيرهم من قادة المسلمين ، حتى مكنوا لأنفسهم فى إقليم الشام . واسترعى علو شأنهم المقريزى حيث يقول « فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى أعمال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أحد من بنى هاشم ، فهذا وشبهه هو الذى حد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وفتل أمراسهم[2] » .

ولما توفى الخليفة عمر بن الخطاب خطا الأمويون خطوتهم الثانية نحو تثبيت أقدامهم فى إقليم الشام ، واعتباره الحصن الذى يحميهم من النوازل والخطوب . وكللت هذه الخطوة بالنجاح لأن البيت الأموى فى الحجاز إستطاع أن يفوز بالخلافة بعد عمر بن الخطاب . إذ جاء انتخاب عثمان بن عفان خليفة فرصة أتاحت للأمويين فى الشام أن يثبتوا دعائم سلطانهم وهيلمانهم ، معتمدين على أن أحد أفراد البيت الأموى هو الخليفة فى الحجاز .

ولم يستطع الأمويون أن يخفوا شعورهم بأن انتخاب عثمان خليفة أمر حقق لهم ما كانوا يطمحون إليه من السيادة والرئاسة . إذ عبر عن ذلك أبو سفيان ، والد معاوية مؤسس الخلافة الأموية ، حين وفد على عثمان غداة انتخابه خليفة ومعه رهط من بنى أمية . فقال أبو سفيان للمجلس الذى ضمهم من بنى أمية ، وكان إذ ذاك قد عمى «أفيكم أحد من غيركم؟» ، فقال الحاضرون لا ، فقال عندئذ

---

(١) ابن عبد ربه ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦ .
(٢) المقريزى ، المرجع السابق ، ص ٤١ .

« يا بنى أميـة تلقفوها تلقف الـكرة ، فوالذى يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لـكم ، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة[١] » .

وإذا كان أبو سفيان تطلع إلى خلافة عثمان على أنها بداية لوصول بنى أمية إلى تولى شئون المسلمين ، فإن ابنه معاوية أدرك أهمية إقليم الشام والدور الذى يمكن أن يؤديه للاحتفاظ بالخلافة دائماً فى بيت أمية ، وأنه المقر الذى يجب أن تنتقل إليه حاضرة هذه الخلافة . وتجلت هذه السياسة التى رسمها معاوية بشكل واضح حين أطلق له عثمان ولغيره من بنى أمية العنان فى إدارة الولايات الإسلامية . إذ دعم معاوية نفوذه وسلطانه فى إقليم الشام وأصبح والياً عليه كله بعد سنتين من خلافة عثمان[٢] . ولذا ما أن ثارت الولايات الإسلامية على عثمان لتحيزه لأقاربه وتفضيلهم على غـيرهم فى تصريف شئون المسلمين حتى انطلق معاوية للدفاع عن عثمان معتمداً على جاهه وسلطانه فى إقليم الشام .

وأفصح معاوية عن نواياه فى نقل حاضرة الخلافة إلى الشام وعن اعتزازه بهذا الإقليم حين وفد على عثمان سنة ٣٤ هـ مع سائر الولاة من بنى أمية وغيرهم للتشاور فى هذه القلاقل والفتن التى انتشرت ضد عثمان . إذ حضر معاوية مع عثمان مجلساً ضم عليا بن أبى طالب وطلحه والزبير ، وفهم مدى سخط الناس على تفضيل عثمان لأبناء البيت الأموى ، وأن الموقف غدا بالحجاز خطـيراً . فعندما انفرط عقد المجلس وخلى معاوية بعثمان أشار عليه قائلا « يا أمير المؤمنين ، انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا »[٣] .

وهذه الفكرة التى دان بها معاوية رفض تنفيذها عثمان ، وأبى مفارقة

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .
(٢) الطبرى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٩ .
(٣) الطبرى ، المرجع السابق ، ج ٥ ص ١٠١ ؛
Browne, Literary History of Persia, 216.

الحجاز . ولـكن معاوية صمم على متابعة خطته ، وهى الدفاع عن بقاء الخلافة فى بيت بنى أمية . إذ مر فى طريق عودته إلى الشام بعـد انتهاء مؤتمر الولاة الأمويين بقوم من المهاجرين فى المدينة ، وخاطبهم قائلا « قد علمتم أنه ليس منكم رجل إلا وقد كان قبل الإسلام مغموراً فى قومه ... حتى بعث الله رسوله، فسبقتم إليه ... فسدتم بالسبق لا بغيره ... وسيدوم هذا الأمر ما استقمتم ، فإن تركتم شيخنا هذا (أى عثمان) يموت على فراشه ، وإلا خرج منكم ولا ينفعكم سبقـكم وهجرتـكم[1] ». وكشف معاوية بذلك القناع تماما عن سياسة الأمويين فى بقاء الخلافة بينهم ، وأن الاعتداء على عثمان والالتجاء إلى القوة فى تنفيذ ذلك يرجح كفة بنى أمية بفضل مؤازرة أهل الشام لهم .

وكان معاوية حصيفا بعيد النظر حين لوح لعثمان بترك الحجاز والانتقال إلى الشام والاعتماد على قوة ذلك الإقليم . إذ أثبتت الحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذى تدار منه شئون الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت رقعتها . فقد هاجرت معظم القبائل الهامة من بلاد الحجاز وأقامت فى المعسكرات التى تحولت إلى مدن زاهرة فى الأقاليم المفتوحة ، وفقدت بلاد العرب بذلك مكانتها باعتبارها محور ارتكاز الدولة الإسلامية . وعجل أهل المدينة أنفسهم بالقضاء على ما تبقى لحاضرتهم من هيبة وسلطان ، و بينوا أن منابع القوة غدت مركزة فى مدن خارج إقليم الحجاز حين وفد الثوار من سائر الأمصار لشد أزر الناقمين على عثمان بالمدينة . إذ تطورت أحداث الثوار وقتلهم عثمان إلى أن المسألة أضحت مسألة قوة ، وأن إزالتهم شخصية عثمان لن تجدى فتيلا ، لأن القوة كامنة خارج إقليم الحجاز والفوز لمن يسيطر على أعنتها[2] .

وتجلت هذه الظاهرة بعد أن بويع على بالخلافة ، إذ أقام مقر حكمه فى الـكوفة

---

(١) الطبرى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٠٠ .

(2) Wellhausen, The Arab Kingdom, 53, 54.

تاركا الحجاز ، وسيطر منها على الدولة الإسلامية عدا الشام التى تحصن بها معاوية وناصب علياً العداء . ويعتبر النزاع بين علي ومعاوية نزاعاً بين العراق والشام ، استطاع أن يصمد فيه معاوية ، رغم انتصارات على بن أبى طالب الحربية ، بفضل طاعة أهل الشام وولائهم له . فقد تلى رجحان كفة على فى معركة صفين حادثة التحكيم التى جلبت الفرقة فى صفوف جيش على بن أبى طالب ، على حين جنى معاوية بعد هذه المعركة ثمار جهوده فى إقليم الشام وبقاء أهله على الولاء له . ثم لم تلبث الأحداث أن هيأت الجو لمعاوية تماما حين قتل على بن أبى طالب . إذ آثر الحسن التنازل لمعاوية [1]، الذى أصبح بذلك خليفة المسلمين (٤١ هـ/٦٦١م) ، وورث جهود أسلافه وآبائه من بنى أمية فى إقليم الشام . وقد تابع معاوية جهوده فى إعزاز دولة الإسلام ، حتى سجل له التاريخ إحلال المسلمين مكان البيزنطيين فى سيادة البحر الأبيض المتوسط .

---

(١) آثر الحسن التنازل عن حقه فى الخلافة حين رأى تقاعس جند العراق عن نصرته ، وعقد صلحاً مع معاوية اعترف فيه بأن معاوية خليفة المسلمين طوال حياته . ولكن جاء هذا التنازل نقطة تحول فى تاريخ معاوية وسلالته من بعده .

الفصل الثانى

معـــاوية قاهر البيزنطيين

المرحلة الأولى فى الجهاد الأموى

ضد البيزنطيين

استيلاء معاوية على منطقة الشام الساحلية :

كان الرعيل الأول من أولى الأمر فى الدولة الإسلامية قادة من الطراز الأول فى إدارة شئون دولتهم ، وإيثار ما يضمن لها الاستقرار والازدهار ، ويهيىء لها سبل الطمأنينة والسؤدد ، على ما عداه من الأمور التى يزينها الهوى أو التى يعوزها رائد نفع أرض الإسلام . وحمل لواء هذه الطبقة الأولى من مؤسسى الدولة الإسلامية الخليفة عمر بن الخطاب ، الذى سجل له التاريخ الفوز بقصب السبق فى تنظيم البلاد التى استظلت على عهده بلواء الإسلام . إذ وضع لإدارتها دستوراً سار خلفاؤه على هديه فى النهوض بشئون دولة الإسلام ، والعمل على رفاهيتها وتنظيم أحوالها ، حتى ساد السلام « دار الإسلام » على حد قول المصطلح الذى أطلقه الرحالة المسلمون الذين جابوا بقاع الدولة الإسلامية فيما بعد ، وأسهبوا فى وصف ما رفلت فيه من أمن وهدوء وسعادة .

وكانت إحدى الخطوات التى اتخذها الخليفة عمر بن الخطاب فى ميدان تنظيم الدولة الإسلامية وتدعيمها تنصيب معاوية بن أبى سفيان والياً على ما كان تابعاً لأخيه يزيد بن أبى سفيان من أرض الشام ، حين اختطفت المنية هذا القائد الأموى الأول من مسرح الأحداث فى تلك البلاد . إذ جاءت خطوة

الخليفة عمر بن الخطاب فرصة أتاحت لمعاوية متابعة الجهود التى بذلها من قبل فى الدفاع عن الدولة الإسلامية ، فرد غائلة البيزنطيين عنها وحصرهم فى عقر أرضهم من « دار الحرب » على حد قول المصطلح الإسلامى ، الذى نعت الأمبراطورية البيزنطية بالعدوان والتحرش بأرض الإسلام .

تلقى معاوية أولى دروس الجهاد ضد البيزنطيين فى مدرسة الفتوحات الاسلامية التى قامت زمن الخليفتين أبى بكر وعمر . وقد خرج منها بفائدة اختص بها وحده ، وجعلته قادراً على متابعة الرسالة التى ادخرها له الزمن فى جهاد البيزنطيين بعد أن انفرد بحكم الشام وغدا المهيمن عليه . إذ اضطلع معاوية بمهمة فتح المدن الساحلية من بلاد الشام ، وأدرك من العمليات الحربية التى دارت رحاها بينه و بين البيزنطيين فى تلك المدن ما عليه خصومه من بأس وصلف وعناد . فقد عجم عودهم وعرف حقيقة أمرهم وطبيعة معدنهم مما خفى على غيره من قادة المسلمين الذين غابت عنهم هذه الأمور — التى مسها معاوية — وسط أحداث انتصاراتهم الباهرة وسحقهم البيزنطيين فى ساحة اليرموك وأرض أجنادين .

وكان لطبيعة الميادين الحربية بأرض الشام أثرها فى تفتق ذهن معاوية وتحديد خططه إزاء البيزنطيين ، إذ دارت رحى المعارك الحربيـــة بين المسلمين والبيزنطيين فى الشام فى جهات حددتها جغرافية هذا الاقليم ، ورتبت أحداث الوقائع حسب مسرحه الطبيعى . ذلك أن تضاريس الشام تمتاز بتتابع من أراضى منخفضة وأخرى مرتفعة ، تمتد موازية لبعضها البعض من الشمال إلى الجنوب مع ميل نحو الشرق . وكان لكل قسم منها مميزاته ، ولـكن اقتصرت هـذه الأقسام على أربع مناطق متباينة ، الأولى على الساحل ، والثانية أرض جبلية بها الغابات ، والثالثة وديان الأردن ، والأخيرة للمنطقة الملاصقة للصحراء[1] .

(1) Hitti, Histary of Syria, 130.

وبدأ المسلمون فتوحاتهم فى المنطقة الأخيرة المتصلة بالصحراء ، حيث ينتهى عندها الشريان التجارى القديم الذى سارت فيه القوافل التجارية من مكة والمدينة إلى دمشق ، عروس المنطقة الرابعة فى الشام . وامتدت العمليات الحربية الإسلامية إلى البلاد الواقعة شرق الأردن والبحر الميت ، التى كانت أولى البقاع التى استولى عليها المسلمون من أرض الشام . ثم تلى ذلك سقوط دمشق ومحاولة المسلمين تدعيم ما سيطروا عليه من أراضى الشام . فأحسوا ضرورة الزحف إلى ما وراء دمشق والاستيلاء على المنطقة الشمالية بمدنها من أنطاكية وحمص وحلب ، وتم لهم النصر فى تلك الجبهة كذلك ، وثبتوا أقدامهم فى شطر هام من إقليم الشـام .

وهكذا انتصر المسلمون على طول الطريق القديم الذى ارتادته قوافلهم التجارية فى رحلة الصيف ، تاركين المنطقة الساحلية التى فصلتها سلسلة جبال لبنان عن داخلية البلاد . وهذه المنطقة الساحلية كانت موضع اهتمام البيزنطيين ورعايتهم ، إذ أقاموا بمدنها المعاقل للدفاع عنها وخصصوا حاميات كبيرة لشد أزرها ، منها حاميات قيصرية وعسقلان وغزة ويافا ، فضلا عن الحاميات المرابطة فى المدن الأخرى الهامة مثل عكا وصور . وترجع العناية بهذه المدن إلى أنها نقط قريبة من أماكن يمكن أن يجتاز عندها الحاجز الجبلى الذى يفصل الساحل عن داخلية البلاد . فكان اتصال الساحل بالمنطقة الخلفية يتم عبر عدة فتحات هامة ، الأولى عند خليج الإسكندرونة ، حيث تؤدى إلى العراق ، والثانية فتحة عند وادى نهر الـكلب شمال طرابلس ، وأخيراً فتحة عند مرج بن عامر شرق عكا (١) .

وأدرك المسلمون أثناء فتوحاتهم فى إقليم الأردن خطورة بقاء المدن الساحلية ولاسيما صور وعكا فى أيدى البيزنطيين (٢) . إذ جاءت الأمداد البيزنطية من هذه

---

(1) Hitti, History of Syria, 130, 131.

(٢) أطلق اليونانيون على المنطقة المحيطة بصور مباشرة اسم (سوريا) ، ثم عمموا الاسم =

المنطقة الساحلية لدفع المسلمين ، وعرقلت تقدم عمرو بن العاص . واستدعى ذلك تآزر القوات الإسلامية ، حيث طلب القائد العام للمسلمين بالشام ، وهو أبو عبيدة بن الجراح ، من يزيد بن أبى سفيان أن يسير من دمشق لمعاونة القوات الإسلامية بمنطقة الأردن . وقد لبى يزيد الدعوة ، إذ سار بجيوشه إلى سواحل الأردن وعلى مقدمتها أخوه معاوية[1] الذى بدأ منذئذ يدرك حقيقة هذه المنطقة وأنها مفتاح الشام والخناق الذى يجب انتزاع سيطرة البيزنطيين عنه لضمان بقاء المسلمين بهذا الإقليم .

أظهر معاوية فى فتح هـــذه المنطقة الساحلية عبقرية مبكرة ، وبذل فيها جهوداً ذات « بلاء حسن وأثر جميل »[2]، على نحو ما شهد له بذلك قادة المسلمين بالشام . فاستهل أعماله الموفقة فى هذه المنطقة بالاستيلاء على عرقه ، على حين استعصت سائر المدن الساحلية الأخرى على أخيه يزيد . إذ كانت هذه المدن فضلا عن متانة حصونهـا ومنعتها متصلة بالبحر مباشرة تتلقى منـه الأمداد البيزنطية والمؤن التى تضمن لها المقاومة والبقاء . فترك يزيد لأخيه معاوية مهمة إخضاع هذه المدن ، وعاد إلى دمشق[3] .

واتجه معاوية نحو مدينة من أهم المدن الساحلية بالشام وهى قيصارية . وكانت هذه المدينة قد استعصت على عمرو بن العاص نفسه ، ذلك القائد الماهر الذى

= فيما بعد حتى أصبح يشمل سائر الأراضى التى خضعت لهم . ولم يستخدم العرب ذلك الاسم للدلالة على الأراضي الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط كما فعل اليونان ، وانما أطلق العرب إسم الشام على هذه المنطقة جميعها ، ابتداء من جبال طوروس التى بها ممرات قيلقيا شمالا إلى شبه جزيرة سيناء جنوبا ، والتى يحدها غربا البحر وشرقا صحراء بلاد العرب . وتنقسم هذه المنطقة جغرافيا إلى أربعة أقسام ، الأولى المنطقة الساحلية تليها المنطقة الجبلية ثم دويان الأردن وأخيراً المنطقة الملاصقة لصحراء بلاد العرب .

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٢٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

فتح منطقة فلسطين . إذ بعد مغادرة عمرو بن العاص فلسطين متجهاً لفتح مصر ، سار معاوية إلى هذه المدينة وألقى عليها الحصار . وظل معاوية مثابراً فى حصاره أمام مقاومة المدينة وعنادها ، إذ كانت مثل سائر المدن الأخرى تتلقى الأمداد وآلات الدفاع من البحر ، وصدت هجمات المسلمين المتوالية . وظل الحصار الاسلامى على قيصارية عدة سنوات حتى تمكن معاوية أخيراً من اقتحامها سنة ١٩هـ/٦٤٠م بفضل خيانة يهودى بالمدينة يدعى يوسف . إذ أتى ذلك الرجل إلى المسلمين ليلا ودلهم على طريق يمكن مهاجمة المدينة منه بعد أن أخذ منهم أماناً لنفسه وأهله . ونجح معاوية بذلك فى اقتحام المدينة ، وأخذ منها كثيراً من الأسرى والغنائم أرسلها إلى المدينة بالحجاز ليعلن للسلطات المركزية بها نبأ هذا النصر المبين . واستقبل الخليفة عمر هذه الأنباء بالفرح العظيم وقدر لمعاوية هذه الجهود الطيبة والتفانى فى تأدية واجبه(١) .

وكانت الأحداث تسير فى الشام فى ذلك الوقت بما يزيد فى قوة معاوية ويجعله ينعم بثمار انتصاراته ، إذ كان انتقال عمرو بن العاص إلى ميدان مصر ، ثم وفاة يزيد أخى معاوية عاملا مهد له الجو للانفراد بإدارة شئون الشام واستكمال فتوحاته(٢) . فكتب إلى الخليفة عمر يستأذنه فى فتح ما بقى من المدن الساحلية ويصف له حال المنطقة الساحلية بالشام الخاضعة للمسلمين ، ويذكر أنها معرضة للخطر البيزنطى . فأمره الخليفة بالعناية بتحصين المدن الاسلامية على الساحل ، وترتيب الجند فيها ، وإقامة الحرس على مناظرها ، واتخاذ المواقيد لها زيادة فى الحيطة من أى هجوم مفاجئ . ثم أمره بعد ذلك بغزو ما تبقى من مدن فلسطين(٣) .

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ ، ١٤٧ ؛ Miur, The Caliphate, 124, 143.

(٢) تولى أبو عبيده بن الجراح إمرة الشام ، ولما توفى أثناء الوباء (الطاعون) الذى اجتاح الشام (١٨ هـ / ٦٣٩ م) عين الخليفة عمر بن الخطاب مكانة يزيد بن أبى سفيان ، ثم خلف معاويه أخاه يزيد .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٩ .

سار معاوية لفتح مدينة عسقلان ولقى جهداً شديداً فى حصارها ، إذ يستدل من أوصاف الرحالة المسلمين المتأخرين لها أنها كانت شديدة المنعة قوية الحصون ، لها أسوار مزدوجة ، وأهلها يستطيعون مقاومة الحصار مهما طال لكثرة آبار المياه العذبة بها ، وأشجار الجميز التى تقيم أود السكان . وكانت هذه المدينة تدعى لأهميتها وعظمتها عروس الشام ، ويكثر بها الزيتون والكرم (١) . ولذا لقى معاوية تعباً وعناءاً فى حصار المدينة ولم يستطع الاستيلاء عليها إلا صلحا . وما أن دخلها حتى أقام بها جنداً لحراستها والدفاع عنها (٢) . على أن الطريقة التى خضعت بها هذه المدينة زادت معاوية يقيناً بما عليه أعداؤه البيزنطيون من عناد ، ودأبهم على قض مضاجع المسلمين ، وأنهم لا يسلمون أية مدينة فى سهولة ويسر .

وآتت سياسة معاوية فى تحصين المدن الساحلية التى استولى عليها ثمارها حين جدد البيزنطيون إغاراتهم بشكل عنيف على سواحل الشام أواخر عهد الخليفة عمر وأوائل خلافة عثمان . إذ تمكنت المدن الاسلامية من دفع هذا الخطر المفاجىء ، ثم سار إليها معاوية حيث شد أزرها وأصلح ما خرب منها . ووضع معاوية فى هذه المدن جندا جديدا أغراه على الاقامة فيها بمنحه إقطاعات من الأرض يستثمرها ويتمتع بخيراتها .

وتابع الخليفة عثمان سياسة سلفه عمر بن الخطاب فى السماح لمعاوية بفتح ما تبقى من مدن الشام الساحلية ، وزاد عثمان على ذلك بأن ترك الحرية التامة لمعاوية فى تصريف شئونه بإقليم الشام . فاتجه معاوية إلى مدينة طرابلس التى كانت ميناء دمشق ومفتاح حياتها الاقتصادية . وكانت هذه المدينة تبذ سائر مدن الشام فى حصونها وبهائها ، ولها ميناء عظيم يسع عدداً كبيراً من السفن .

(1) Le Strange, Palestine under the Muslims, 401, 402.

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٤٩ .

وامتازت هذه المدينة كذلك بأن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، تصل أمواجه إلى أسوارها ، على حين يحيط بسورها البرى خندق عظيم ، ويعلو الجدار آلات الدفاع من العرادات . وزاد فى منعة هذه المدينة وسهولة حصولها على الأمداد وجود أربع جزر صغيرة تقع إحداها وراء الأخرى [1] فى مياه البحر القريبة منها وتدخل فى تبعيتها .

وجه معاوية إلى هذه المدينة سفيان بن مجيب الأزدى وأعد خطة محكمة للاستيلاء عليها ، وكانت تهدف إلى تضييق الحصار عليها براً وبحراً ومنع الأمداد من الوصول إليها من الأساطيل البيزنطية . فبنى القائد الأموى حصناً فى مرج يقع على أميال من المدينة نسب إليه وسمى حصن سفيان ، وضيق الخناق على أهالى طرابلس . ولكن يبدو أن الحصار البحرى لم يكن على نسق الحصار البرى وأن البحر كان مفتوحاً أمام الأهالى . إذ لما اشتد الحصار كتب سكان المدينة إلى إمبراطور الدولة البيزنطية يطلبون منه إرسال أمداد أو إيفاد مراكب يهربون عليها . ولما لم يكن ثمة مناص من التسليم بعث إليهم الامبراطور البيزنطى سفناً هربوا عليها فى جنح الليل ، وخلت حصون المدينة من المدافعين عنها [2] .

وفى صباح اليوم التالى حين هاجم المسلمون حصون المدينة لم يلقوا مقاومة ، حيث هجرها الجند ومن كان قادراً على الدفاع ، فاستولى عليها سفيان وأخبر معاوية بذلك . فاهتم معاوية بإعادة تعمير هذه المدينة لما لها من أهمية فى حياة الشام الاقتصادية ، ولا سيما لمنطقة دمشق خاصة . فأرسل إليها جماعة كبيرة من اليهود وكذلك حامية عظيمة للدفاع عنها . وكان يجدد أفراد هذه الحامية كل عام ليجعل القوة المدافعة عن المدينة دائماً من الجند الشديدى البأس والمراس [3] .

ويعتبر معاوية بذلك أول مدعم للفتوحات الاسلامية بالشام ، والمتمم للتنظيم

---

(1) Le Strange, OP Cit, 348

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص١٣٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

الادارى الذى سبق أن وضعه الخليفة عمر بن الخطاب لهذا الاقليم . إذ كانت الأجناد ، وهى الأقاليم الحربية التى أنشأها الخليفة عمر بن الخطاب فى بلاد الشام حين وفد إليها وعقد بها مؤتمر الجابية سنة ٦٣٩ م ، تفتقر إلى المنافذ الطبيعية لها على البحر . فجند الأردن كان مبتوراً لبقاء عكا وصور بأيدى البيزنطيين ، وجند دمشق مضيقاً عليه بسبب مقاومة مدينة طرابلس ، وكذلك جند فلسطين كان يعوزه الاستقرار بسبب بقاء عسقلان على المقاومة . وهكذا جاء معاوية واضطلع بمهمة الاستيلاء على هذه الثغور الهامة ، وحقق للمسلمين الاستقرار فى ربوع الشام ..

على أن معاوية أدرك الشيء الكثير عن البيزنطيين إبان العمليات الحربية التى اشتبك فيها معهم ، كما تفتحت مواهبه فى تلك الفترة وهيأته لما ادخره له المستقبل من مشاريع كبرى فى سبيل إعزاز الإسلام ورفع رايته . إذ عرف معاوية أن بقاء المسلمين فى الشام لن يأخذ صبغة تامة ولن تستقر دعائمه طالما دأب البيزنطيون العناد ، وما تحدثه به أنفسهم من الاعتداء على أرض الإسلام . فاتجه معاوية إلى التصدى للبيزنطيين وجعلهم يدركون حقيقة الفتح الإسلامى بالشام ، وأن العرب الجدد الذين حملوا لواء الإسلام يختلفون تماماً عما عرفوه عن عرب الغساسنة وغيرهم من بدو شمال بلاد العرب .

ولم يكن معاوية الشخصية التى ترتجل الأعمال وتقبل على ما تحدثه به نفسه دون روية وإعداد ، إذ أدرك ضرورة الاهتمام أولا بولايته بالشام وخلقها خلقاً جديداً حتى تصبح قادرة على أداء الرسالة التى ألقيت على عاتقه وكاهل رعاياه من هذا الاقليم . وأثبت معاوية فى هذه المرحلة التمهيدية أنه حرى بأن يلقب «قيصر العرب ، وقاهر البيزنطيين ».

أداة الجهاد ضد البيزنطيين

عرف معاوية بعبقريته الفذة أن الجهاد يتطلب حسن إعداد طاقات البلد الذى يدير شئونه ، وما يتصل بذلك من تأمين سلامته الداخلية بالقضاء على عناصر الاضطراب وإزالة كل ما يؤدى إلى القلق وعدم الاستقرار ، ثم انتقاء الأشخاص الذين يعرفون كيف ينفذون خططه وأهدافه . وكان معاوية حراً فى تنفيذ هذه السياسة وإعداد الأداة الحربية لمناهضة البيزنطيين منذ أطلق الخليفة عثمان بن عفان يده فى إقليم الشام يتصرف فى إدارته كيفما شاء . ولذا استهدف معاوية فى سياسته الداخلية تحويل إقليم الشام وأهله ، بثروته وقواته وما به من شخصيات ذات مواهب عالية ، إلى الدفاع عن أرض الاسلام وإعلاء كلمة المسلمين .

وضع معاوية نصب عينيه تحرق البيزنطيين ألما لضياع ممتلكاتهم فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وأنهم لن يهدأوا إلا باستردادها وإخراج المسلمين منها مرة أخرى ، وألا طمأنينة للمسلمين ولا استقرار لهم إلا إذا اتحدت كلمتهم وتم إعدادهم لتأدية ما يعهد إليهم به من واجبات الجهاد . وأظهر معاوية فى هذا الاتجاه من ضروب الحذق والكياسة ما مكنه من أن يخلق من العرب سادة الصحراء أمراء للبحار ، وأن يقودوا الأساطيل عبر عباب المياه بنفس المهارة والبراعة التى قادوا بها سفن الصحراء عبر الرمال والكثبان ، وحقق بذلك انقلابا كفل للمسلمين الكلمة العليا على البيزنطيين . ثم دعم معاوية مجهوداته بلم شمل رعاياه فى صعيد واحد ، جاعلا من نظامهم القبلى وتقاليدهم البدوية مادة مدربة قادرة على زلزلة صرح أعدائهم .

أقبل معاوية على تنظيم المادة التى أمامه بجهد وحماسة وتهيئتها لمهمتها الجديدة . فوجد فى الشام غالبية عظمى من السكان العرب اليمنيين ، الذين حلوا

أرض هذا الاقليم منذ أمد بعيد قبل الاسلام . وقام إلى جانبهم جماعات من عرب الشمال[1] الذين وفدوا إلى الشام مع تيار الفتوحات الاسلامية . وكان هذان العنصران يحملان فى نفوسهما ما فطرا عليه منذ أقدم العصور من إحن و بغضاء تولدت عندهما قبل ظهور الاسلام . وقد عرف أهل الجنوب باليمنيين ، وكان لهم قديماً قسط وافر من الحضارة والمدنية وكذلك السيادة على عرب الشمال الذين عرفوا بالمضريين . وقد جهد المضريون قبل الاسلام على التخلص من ربقة عرب الجنوب ، ولكن لم يتيسر لهم غير الزعامة الثقافية ، حيث أصبحت لغتهم العربية اللغة السائدة فى أنحاء الجزيرة . وظلوا من الناحية السياسية يؤدون الجزية لعرب الجنوب ، واشتبكوا معهم فى بعض الوقائع الحربية أججت نيران الحقد والبغضاء .

ولما ظهر الإسلام قضى على النزاع القبلى ، واستطاع الرسول أن يطهر قلوب العرب من الضغائن والأحقاد ، وتجلى ذلك بصورة واضحة فى المدينة بصفة خاصة . ثم جاءت موجة الفتوحات الإسلامية وحملت كثيراً من المضريين معها إلى الشام ، واستقرت غالبيتهم فى دمشق وفلسطين . و يظهر أن عوامل البغضاء كانت كاللظى فى الرماد ، قابلة للاشتعال إذا ما تهيأت لها الفرص . غير أن عمر بن الخطاب لم يتح تلك الفرص أمام هذه الأحقاد لما ألقاه على عاتق العرب من أعمال الفتح الرائعة . ولكن ما أن جاء عهد الخليفة عثمان حتى وجدت البغضاء بين القبائل

---

(١) انقسم سكان بلاد العرب إلى قسمين رئيسين ، هم عرب الشمال وغالبيتهم أقاموا فى نجد والحجاز ، وكانت لغتهم هى العربية الفصحى ، والقسم الآخر عرب الجنوب وغالبيتهم سكنوا اليمن وعلى طول الساحل المجاور ، وكانت لغتهم السبئية أو الحميرية . وكانت السيادة دائما لعرب الجنوب فى النواحى السياسية على حين سادت لغة عرب الشمال سائر البلاد قبل الاسلام . وكانت العداوة منتشرة بين هذين القسمين ، ولم يضع حـدا لها إلا ظهور الاسلام . على أن المطامع الشخصية فيما بعد أثارت العداوة القديمة ؛ وظهر التنافس بين عرب الجنوب وعرب الشمال فى آخر أيام الدولة الأموية ، وكان من العوامل الهامة التى قضت على هذه الدولة .

العربيـــة متنفساً لها ، وبدأت طلائعها جلية فى إقليم الشام بين المضريين واليمنيين(١) .

وهكذا وجد معاوية تركة مثقلة لا بد من تصفيتها والاستفادة مما بها من مميزات للقيام بمشاريعه الحربية ضد البيزنطيين . وكانت مهمته غير سهلة ، إذ هو من المضريين أو عرب الشمال ، على حين معظم سكان إقليم الشام القدامى من اليمنيين أو عرب الجنوب . ولكن معاوية إستطاع أن يذلل هذه العقبة بتقربه إلى القبائل اليمنية فى الشام حتى استطاع أن يوجههم إلى حيث يريد . وخطى خطواته الموفقة فى تلك السبيل بضم قبيلة بنى كلب ، التى كانت أهم وأقوى القبائل اليمنية فى الشام إذ ذاك ، إلى دائرة نفوذه .

وكانت هذه القبيلة وريثة مجد الغساسنة وأفرادها سادة إقليم الشام حتى أصبح اسم بنى كلب مرادفاً لعرب الشام . وكانت عظمتهم تستند إلى أسس إقتصادية قوية ، إذ كانوا يملكون غوطة دمشق ومنطقة جنوب جبل حوران وواحة دومة الجندل وتبوك . وهيأت لهم هذه البقاع السيطرة على الطرق التجارية التى تخترقها فضلا عن الينابيع المائية الكثيرة بها(٢) . وكان معاوية يدرك أهمية هذه القبيلة منذ أيام الخليفة عثمان ، الذى تزوج إمرأة من بينهم تدعى نائلة .

وأبدى معاوية مهارة وكياسة فى إزالة طلائع التنافر التى كادت تندلع فى إقليم الشام بين قبيلة كلب وغيرها من القبائل اليمنية و بين المضريه من عرب الشمال . إذ كان أولئك العرب اليمنيون بالشام ممن تأثروا بالنظم البيزنطية وتعودوا بذلك الخضوع للنظام الذى يعتبر من أهم أركان الدول . ثم إنهم كانوا على وفاق مع سكان الشام الأرامى الأصل ، وامتزجوا معهم فى المدن الكبرى غير متخذين لهم معسكرات خاصة يقيمون بها . وكان لهذه الظاهرة أثر كبير بعد الفتح الإسلامى ،

---

(١) سيد أمير على ، نفس المرجع ، ص ٦٧ .

(2) Lammens, Etudes sur Le régne du Calife Mo' Awia Ier. 286, 289.

إذ بينما أقام العرب الغزاة فى العراق فى معسكرات جديدة منفصلة عن السكان ، سار العرب النازحين حديثاً إلى الشام مع تيار الفتوحات على نهج أسلافهم القدامى وعاشوا داخل جدران المدن الشامية . ولذا كان من السهل القضاء على بوادر الشقاق القبلى بالشام ، إذ استطاع معاوية أن يجذب إليه عرب الجنوب القدامى ، الذين ألفوا طاعة الأمراء والحكام ، ولم يجدوا فارقاً فى تحويل ولائهم إلى هذه الشخصية الإسلامية الجديدة(١) .

وتوج معاوية جهوده فى هذا الميدان بمحاكاة سلفه عثمان بن عفان ، إذ صاهر قبيلة بنى كلب ليضمن له شيعة وأنصاراً ويحقق لنفسه استقراراً وأمناً . فتزوج بابنة أحد سادة قبيلة بنى كلب وتدعى ميسون ، وكانت من بيت عريق يقيم بالقرب من تدمر . وفضلا عن ذلك كانت غالبية منازل هذه القبيلة لا تبعد عن دمشق ، مقر معاوية ، سوى بضعة أميال . وكان والد ميسون ويدعى بحدل ممن نال مكانة عالية فى الشام بعد الفتح الإسلامى ، إذ منحه المسلمون إقطاعاً من الأرض فى دمشق ، مما يدل على الخدمات التى أداها للمسلمين فى فتوحاتهم فى الشام(٢) .

وجنى معاوية ثمار جهوده فى تنظيم قبائل الشام وضمها إلى صفوفه ، إذ غدا اليمنيون يكونون غالبية الجيش الشامى وعدة معاوية فى حملاته ضد البيزنطيين ، ورددوا له دائماً قولهم أنهم رهن مشيئته وطوع إرادته . وساهم اليمنيون كذلك بشكل رائع فى الحملات البحرية ، حيث فضل معاوية الاعتماد عليهم فى الميدان البحرى ، وتعبئة أساطيله منهم للقيام بالجهاد فى هذه الجبهة التى تتطلب اخلاصاً تاماً . وأثبت اليمنيون أنهم جديرون بثقة معاوية حيث امتازت حملاتهم البحرية على البيزنطيين بالعنف والشدة(٣) . ولم يتردد معاوية فى إجزال العطاء للجند

(1) Wellhausen, op cit, 131, 133 ؛

كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب العربية ، ص ١٤٨ ، ١٤٩

(2) Lammens, op cit, 286.

(3) Lammens, op cit, 52, 53.

اليمنيين ، فكان الكلبيون منهم يأتون فى المرتبة التالية للسفيانيين فى العطاء ، ونال ألفان منهم شرف العطاء ، لكل فرد ألف درهم من الجبالة . ومنحهم الخليفة حق تنظيم شئونهم المحلية دون تدخل من الحكومة المركزية (١) .

وأكل معاوية هذا العمل بمراقبة شيعته من بنى أمية ، فعاملهم بحذر وتبصر وحكمة ، حتى لا يصبحوا موضع خطر عليه فى يوم من الأيام . ونجح فى هذه المهمة أيضاً لأنه أخفى عن نفسه مظاهر الطاغية فى حكم أتباعه ، وإنما عاملهم كسيد من سادة القبائل القديمة ، يعقد اجتماعات لهم بعد صلاة الجمعة فى المسجد ويباحثهم فى شئونهم ، كما عقد لهم أشباه هذه المجالس فى القصر واستقبل وفودهم التى تأتى من سائر الأمصار ، ويصغى إلى شكاياتهم (٢) .

واهتم معاوية بالنواحى الاقتصادية لإقليم الشام ، ليستطيع الانفاق منها على مشاريعه الحربية ضد البيزنطيين . وكان هذا الاهتمام موضع عنايته منذ أن انفرد بشئون الشام . إذ كتب إلى الخليفة عثمان بن عفان يطلب منه الحصول على أراضى وضياع الشام التى يذهب ريعها إلى بيت المال فى مكة نظراً للحملات الحربية الواسعة التى يشنها ضد البيزنطيين ، فضلا عما يتطلبه من نفقات لاستقبال سفراء الدولة البيزنطية ، وتدبير مصاريف البعثات التى يوفدها إلى القسطنطينية (٣) . وأجابه الخليفة إلى طلبه (٤) ، مما جعل معاوية يضع الحجر

---

(1) Kremer, Orient under the Caliphs, 319

(٢) كارل بركلمان ، نفس المرجع ، ص ١٤٩ .

(3) Kremer, op cit, 125.

(٤) كانت الأرض التى طالب بها معاوية تابعة فى الأصل للأنباط الذين دخلوا فى الولاء للدولة البيزنطية . ولما هزم البيزنطيون هرب عدد من بطارقة الأنباط وهجروا مزارعهم ، على حين قتل كثير منهم أيضا فى حملات المسلمين على الشام . فصارت مزارعهم وقراهم تابعة للسلطات المركزية الاسلامية مباشرة ، « ولم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت المال ، فيخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج ، حتى كتب معاوية فى إمرته على الشام إلى عثمان أن الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائها ، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها . وصف فى كتابه هذه المزارع الصافية =

الأول فى بناء اقتصاديات الشام والاستقلال بمرافقه الاقتصادية ليوجهها حسبما يشاء فى النواحى الحربية .

وانتقل معاوية من تنظيم الشام وأهله ومرافقه إلى إعداد الهيئة المباشرة التى تقوم بتنفيذ مشاريعه الحربية ضد البيزنطيين . وكانت هذه الهيئة من شيعته المخلصين له وغدت ساعده الأيمن فى أداء كل ما يريد . وكان اختيار معاوية لهذه الطبقة من الرجال اختياراً سليما دل على صدق فراسته وحسن مواهبه . ذلك أن اشتغال معاوية بعد إسلامه مع الرسول الكريم جعله يدرس عن كثب الشخصيات التى كتب له التاريخ أن يتصل بها فيما بعد سواء فى ميدان المحبة والصداقة أو العداوة والبغضاء . إذ كان كثير من الشخصيات التى ناهضت معاوية فيما بعد ، وكذلك التى استطاع أن يجذبها إلى جانبه ، من صحابة الرسول وممن التفت حوله واضطلعت بأداء مشاريعه .

وكان للبيئة التى نشأ فيها معاوية أيضاً أثر كبير فى اختيار معاونيه ، فهو ابن أبى سفيان زعيم مكة وأعظم شخصياتها حنكة وتجربه ، وأوسعها اتصالا بالبيوتات الكبرى فى مدن الحجاز ومع القبائل العربية بها كذلك ، إذ استلزمت أعماله التجارية توسيع دائرة اتصالاته ودراسته مع من يتعامل معهم ، ومعرفة كل واحـد منهم معرفة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض . فتلقن معاوية على يد هذا الرجل العظيم أصول الحكم وإدارته كما يفهمه أهل مكة ، ووفق وجهة النظر التى رآهـا أبوه ، من حيث تكوين الانصار والأشياع واصطناع الرجال والعمال .

وهكذا أخذ معاوية يقلب النظر فى صفحات رجال الحجاز ومدنها لينتقى منهم من هو جدير بثقته ، وحرى بالنهوض بمشاريعه التى تعينه على تأمين دولة

= وسماها له، وسأله أن يقطعه إياها ليقوى بها على ما وصف له . فكتب إليه عثمان بذلك كتابا . ولم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر ، فأقرها على حالها » :
أنظر ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ١٨٣ .

الإسلام وتقليم أظافر أعدائه البيزنطيين . فأخذ من أبناء مدينة الطائف [١] بعض رجالاتها الممتازين . وكان أبناء ثقيف أشهر أهالى هذه المدينة التى اعتبرها تجار قريش توأم مكة فى البهاء والعظمة ، كما نظر إليها المسلمون على قدم المساواة مع مكة والمدينة بعد انتشار الإسلام فى أرجاء بلاد العرب . وكان لقريش إتصال وثيق مع بنى ثقيف قبل الإسلام ، وعرفوا فيهم الذكاء اللماح والنشاط الوافر ، فضلا عما كان لقريش من أملاك بالطائف جعلتهم أشد اتصالا ومعرفة بحقيقة سكانها والتمييز بين طبقاتها . ونبغ من بنى ثقيف على عهد معاوية شخصية المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه [٢] ، وكانت لهما جهود موفقة فى تأمين سلامة الدولة فى الداخل ، وتهيئة الجو لمعاوية للتفرغ إلى مشاريعه الخارجية .

وظهر من شيعة معاوية فى ميدان العمليات الحربية ضـــد البيزنطيين عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وحبيب بن مسلمة ، وبصر بن أبى أرطاه ، والضحاك بن قيس ، وأبو الأعور السلمى ، وشرحبيل بن الصامت الكندى . وكان الأربعة الأول من أصل مكى ، أما أبو الأعور فمن القيسية أو عرب الشمال الذين يمت لهم معاوية بصلة القربى . وفضلا عن ذلك كان والد أبو الأعور من الشخصيات التى حاربت إلى جانب أبى سفيان فى معركة أحد ومن المؤيدين لبنى أمية ، مما جعل ابنه موضع عناية معاوية ورعايته [٣] ، ولم تكن المحاباة وحدها هى الأساس الأهم والأوحد فى انتقاء معاوية لهؤلاء الرجال دون غيرهم ، وإنما كان كثير منهم ممن خدم أبا بكر وعمر ورأى أن يستفيد بجهودهم ومواهبهم ، ولا سيما أولئك الذين أظهرتهم أحداث الفتوحات الاسلامية بالشام [٤] .

(١) تقع مدينة الطائف على ارتفاع كبير من الأرض يبلغ ستة آلاف قدم ، وكثرت بها الأشجار الظليلة حتى وصفت بأنها قطعة من أرض الشام ؛ وكانت مصيف الطبقة الارستقراطية من أهل مكة . واشتهرت بالورود ذات العطر والتى استمد منها أهل مكة ما احتاجوا اليه من طيب . وكثرت بالطائف الكروم والتين والزيتون، وكان نبيذها رائجا ويقبل عليه سكان مكة.

(2) Wellhausen, op cit, 113.

(3) Lammens, op cit, 42, 43.

(4) Ibid, 44.

وتبين هذه السياسة حرص معاوية علي اختيار ذوى التجارب الواسعة ، أو ممن لهم مطامح يمكن استغلالهم عن طريقها لتدعيم نفوذه فى الشام ، ثم متابعة مشاريعه ضد البيزنطيين . وكان ممن يمثل هذه الظاهرة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، إذ هو ابن تلك الشخصية التى عزلها الخليفة عمر ، ورأى معاوية أن يعيد لابن خالد بن الوليد شيئاً من النفوذ والسلطان . وأدى ذلك إلى ظهور طبقة جديدة من الرجال « Homines novi » ساروا فى ركاب معاوية وتفانوا فى نصرة قضيته وتحقيق أهدافه . ولذا غدت هذه الطبقة الجديدة من الرجال تتكون من أبناء الطبقـــة الوسطى من قريش ، الذين لا يخشى معاوية منهم بأساً أو ضراً [1] ، إذ آثر معاوية الابتعاد عن أقاربه ذوى المطامع الواسعة ووضعهم تحت مراقبته ، ولكن أغرقهم بالعطايا والمنح ليضمن ولاءهم وهدوءهم .

وآتت سياسة معاوية فوزاً محققاً ، فكان أولئك الرجال الذين اعتمد عليهم فى الدفاع عن أرض الإسلام وحمايتها ممن يلمون بشئون الشام ويعرفون أحواله معرفة جيدة . إذ وفدوا جميعاً إلى الشام مع الجيوش الإسلامية الأولى وهم فى ريعان الشباب باستثناء شرحبيل . وبدأ كثير منهم حياته العامة الأولى تحت إمرة يزيد ابن أبى سفيان ، الذى كان معاوية على مقدمة جيوشه . ثم انتقلوا إلى التبعية لمعاوية بعد وفاة أخيه يزيد ، واحتفظ بهم معاويه دون أى تغيير حيث كانوا أداة مدربة صالحة للنهوض بأعباء مشاريعه . وأثبت معاوية بذلك أنه خير سلالة بنى أمية وأجدرهم على تنفيذ سياستهم المرسومة فى الاحتفاظ بالأعوان والأنصار ومتابعة هذه السياسة على أحسن الوجوه [2] .

وتفانى أولئك القادة فى الدفاع عن أرض الإسلام ضد هجمات البيزنطيين ؛ فاشتهر حبيب بن مسلمه بحملاته المظفرة البرية فى أرض الجزيرة وأرمينيا وقبادوقيا

(1) Lammens, op cit, 43.
(2) Ibid. 44, 45.

بآسيا الصغرى ، على حين اشتهر بصر بن أبى أرطاه فى ميدان المعارك والغزوات البحرية فى البحر الأبيض المتوسط . وتجلى صدق و إخلاص هؤلاء القادة حين نشبت الحرب الأهلية بين على ومعاوية ، إذ وقفوا إلى جانب معاوية وآزروه فى نضاله. فحارب حبيب إلى جانب معاوية فى معركة صفين ، وسار أبو الأعور لمساعدة عمرو بن العاص فى استرداد مصر من عامل على بن أبى طالب عليها ، على حين توجه بصر بن أبى أرطاه إلى بلاد الحجاز لإعادتها إلى التبعية لمعاوية (١) .

وبذلك تعاون أتباع معاوية على كسب النصر له فى الحرب الأهلية بينه وبين على ، على حين أتم بعض معاونيه الأخر ، وهم المغيرة بن شعبه وزياد بن أبيه، تدعيم هذا النصر فيما بعد . إذ كانت الجبهة الشرقية من دولة معاوية تتطلب عناية خاصة من حيث نوع الولاة الذين يديرون شئونها ليتفرغ لحروبه ضد البيزنطيين على الجبهة الغربية . فكان على أولئك الولاة تثبيت سلطان الأمويين بين أهل العراق الذين كانوا دائماً يرفعون راية العصيان ضدهم ، ويأنفون من الدخول فى التبعية لأهل الشام . فعين معاوية المغيرة بن شعبة وهو أحد رجال الطائف من بنى ثقيف المخلصين على الكوفة ، وأدى هذا الوالى مهمته خير أداء ، إذ أخذ يفسد بدهائه البارع العلاقات بين الخوارج وبين الشيعة أتباع على بن أبى طالب وشغلهم بذلك عن مناوأة معاوية ومعارضته (٢) .

وقام معاوية بعمل آخر رائع أكتسب به شخصية أخرى عظيمة من أبناء الطائف وهو زياد . وكان هذا الشخص ممن يحيط بأصله الغموض ، فاستقدمه إلى دمشق واعترف به إبناً غير شرعى لأبى سفيان ، ورفعه إلى مصاف إخوته . ومنذ ذلك الحين تفانى زياد فى خدمة البيت الأموى وإعلاء شأنه . فولاه معاوية على البصرة ، واستطاع أن يخمد الفتن والقلاقل بها بعد أن كان لا يهدأ

---

(١) Lammens, op cit, 48, 49.

(٢) كارل بركلمان ، نفس المرجع ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

لها قرار . وعندما توفى المغيرة سنة ٦٧٠ م صار زياد والياً على البصرة والكوفة كذلك ، وتابع سياسته فى إخماد الفتن بالعراق وقضى عليها تماماً ، إذ حل منظمات المقاتلين القبيلة القديمة العهد بهذه البلاد وأعاد تنظيمها على أسس جديدة . فقسم الجند بالعراق إلى أربعة أقسام ، جعل على رأس كل قسم منها رجلا من الموالين للبيت الأموى وممن يستطيع كبح جماح أولئك الجند (١) .

وغدا زياد يحكم من البصرة نصف الامبراطورية الإسلامية وأمّن جانبها وجعل الهدوء يسود أرجائها ، مما مكن معاوية من استئناف جهاده ضد البيزنطيين. فتابع شيعة معاوية الأغارات على أراضى الدولة البيزنطية ، وخطوا بجهادهم « كتاب مغازى معاوية » . وبلغ من تفانيهم أن أطلقت عليهم أسماء التكريم والفخر ، فلقب حبيب بن مسلمة « بحبيب الروم » لإغاراته الموفقة على أرض الروم ، أى البيزنطيين (٢) ، على حين أخذ عبد الرحمن بن خالد يغير سنوياً على تخوم الدولة البيزنطية ويوقع بجندها الهزائم الفادحة . أما بسر بن أبى أرطاه فقاد أسطول معاوية الناشىء وسجل به تاريخ المسلمين البحرى المبكر على صفحات البحر الأبيض المتوسط ، بما يرفع من شأنهم ويثبت جدارتهم وبسالتهم فى العمليات الحربية فى هذا الميدان الجديد .

وكانت آية تفانى أولئك القادة فى جهادهم ضد البيزنطيين شخصية أمير البحر على عهد معاوية ، ويدعى عبد الله بن قيس الحارثى من بنى فزارة . إذ قام هذا القائد بخمسين غزوة بحرية صيفاً وشتاء دون وجل ولا خوف . فكان يذهب ليستطلع أماكن البيزنطيين ويدرس طرق مفاجأتهم ، وإنزال الهزائم بهم . وقد دفع حياته ثمن جرأته فى آخر الأمر ، مسجلا بذلك أروع الآيات على تفانى عمال معاوية فى الجهاد من أجل إعزاز الإسلام ضد البيزنطيين.

ولقى عبد الله بن قيس حتفه حين خرج فى أحد قوارب الاستطلاع لدراسة أحد موانى البيزنطيين . وكان مختفياً فى زى أحد التجار ، ونزل على المرفأ دون

(١) كارل بروكلمان ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(2) Encyc. of Islam (art Habib).

أن يتنبه إليه أحد . ولكن محض الصدفة كشفت أمره ، إذ حدث أن كان على الميناء بعض الشحاذين ، وتقدمت منهم إمرأة تستجدى منه صدقة ، فأعطاها وأجزل لها العطاء مما أثار ريبتها واستلفت نظرها . فهرولت إلى حراس الميناء ، وقالت لهم إن عبد الله بن قيس بالميناء ، مما يدل على شدة بأسه وسطوته وأنه كان موضع حديث سكان الموانى البيزنطية . فأسرع الجند إلى الميناء وهاجموا عبد الله على حين هرب الملاح المرافق له وجرى إلى المركب وأخبر أصحابه بما حدث . وكان سفيان بن عوف الأزدى خليفة عبد الله على المركب ، فجهد فى مناوشة الجند ليشغلهم ويحملهم على إطلاق سراح عبد الله ، ولكن لم يستطع إنجاز ذلك العمل وعاد إلى قواعده بعد قتل عبد الله بن قيس . ويروى أن المرأة المستجدية سئلت بعد ذلك عن الطريقة التى عرفت بها شخصية القائد الإسلامى فقالت : إنه كان كالتاجر فلم أعرف عنه شيئاً فى مبدأ الأمر ، ولكن حين سألته أعطانى كما يهب الملوك فعرفت أنه عبد الله بن قيس [١] .

وهكذا استطاع معاوية أن يجعل من شيعته جنداً مخلصين ورجالا صناديد ، لا يعرفون غير الشام وطناً لهم ، يزودون عن حياضه بأنفسهم فى غير تردد ولا وجل . وكان أحب لقب يغدق عليهم هو أنهم من أهل الشام ، فأطلق معاوية على بصر بن أبى أرطاه « سيد أهل الشام » [٢] ، وغدوا ممن ينطبق عليهم لحبهم للدفاع عن الشام ضد البيزنطيين ، الغزاة الذين تفانوا فى البلد المفتوح « Graecia capta ferum victorem capit » [٣] .

وكان من حسن طالع الدولة الاسلامية أن يتم معاوية تدعيم مركزه بالشام وينتهى من استعداداته فى وقت قد أفاقت فيه الدولة البيزنطية على عهد الأمبراطور بن قنسطانز الثانى وابنه قنسطنطين الرابع ، وجهدت فى استرداد أملاكهما من المسلمين وإيقاف تيار فتوحاتهم

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥٣ .

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٨٧ .

(3) Lammens, op cit, 56.

الصحوة البيزنطية على عهد قنسطانز الثانى وقنسطنطين الرابع :

فى الفترة التى جهد فيها معاوية على تنظيم بلاد الشام وتعبئة مواردها للجهاد واصطناع الأشياع والعمال ، كانت الدولة البيزنطية تشهد فترة مماثلة حاولت السلطات فيها أن تلم شعثها وتضم صفوفها وتفيق من عثرتها التى أوقعتها فيها الفتوحات الإسلامية . وكان أباطرة الدولة البيزنطية يستهدفون إعادة ما فقدوه من أملاك أخذها منهم المسلمون ، دون أن تحدثهم أنفسهم بصعوبة تحقيق هذه المشاريع ، ودون أن يدركوا ما عليه المسلمون من قوة و بأس وأنهم يختلفون تمام الاختلاف عن سائر القوى التى احتكوا بها قبل ظهور الإسلام .

وكانت الدولة البيزنطية بأباطرتها تستلهم وحى ماضيها فى استطاعتها الفوز على المسلمين ، وأن فى قدرتها أن تقال من عثرتها وتستعيد سالف هيبتها . فالتاريخ البيزنطى يمتلىء بسلسلة متصلة الحلقات من الهزائم القاصمة والفوضى المريرة وبأخرى زاخرة بالانتصارات الرائعة والاستقرار التام ، مما جعل أهالى الدولة البيزنطية يشعرون بوجود عامل دائم يهيىء لدولتهم عمراً طويلا رغم ما يحيط بها من أعاصير وأنواء . وكان هذا العامل قدرة الدولة البيزنطية على أن ترفع إلى عرشها فى فترات الأزمات والشدائد أباطرة أصحاب مواهب عالية ، يأخذون بيدها ، ويجنبونها العثرات والفناء ، ثم ينهضون بها إلى مستواها الرفيع مرة أخرى .

وتجلت هذه الحقيقة قبل ظهور الإسلام مباشرة ، إذ اكتسح الفرس الساسانيون أراضى الدولة البيزنطية وهددوا عاصمتها نفسها بالدمار . ولكن انبلجت هذه الكارثة عن ظهور شخصية الامبراطور هرقل على عرش الدولة البيزنطية (٦١٠م) ، واستطاع أن يقود سفينتها فى حذق ومهارة ، وطرد الفرس وحول انتصاراتهم إلى هزائم فادحة ، واسترد مرة أخرى ممتلكاته من أيديهم .

ولكن ما كاد الامبراطور البيزنطى يعود إلى عاصمته حتى أخذت موجة الفتوحات الإسلامية تكتسح أرض الشام ، وأنزلت بجيوشه من ألوان الهزائم ما جعله يودع سوريا نهائيا قائلا « عليك يا سوريا السلام ، ونعم هذا البلد للعدو »[(١)] .

وكان هذا الوداع البيزنطى وداعا حقيقيا فى تلك المرة لا رجعة فيه ، رغم تشبث الامبراطور ودولته بالتعلق بأى معقل يمكن أن يعرقل حركة التقدم الإسلامى ، ويساعده على طرد المسلمين مرة أخرى ، ويعيد بذلك قصة الحروب الفارسية . وتجلى هذا الأمل فى دفاع البيزنطيين عن مدينة قيصرية التى حاصرها معاوية مدى طويلا ، إذ تولى المقاومة فى هذه المدينة قسطنطين ابن الامبراطور هرقل نفسه . ولم تسلم المدينة إلا حين اضطر قسطنطين إلى الهرب والعودة إلى العاصمة لاضطراب الأحوال فيها فى أواخر حياة أبيه . فدب الوهن فى حامية المدينة وسلمت آخر الأمر لمعاوية وقواته[(٢)] .

عاد قسطنطين إلى العاصمة تاركا وراءه إقليم الشام نهائيا فى قبضة معاوية ، الذى أخذ يعده لما عسى أن تقوم به الدولة البيزنطية من محاولات لاسترداد هذا القطر الهام . وكان معاوية صادقاً فى فراسته وآرائه ، إذ كانت الدولة البيزنطية تعمل جاهدة إذ ذاك على التخلص مما حل بها من اضطراب ، وتسلم أعنتها لشخصية جديرة بتصريف شئونها وتبعد عنها تيار الزحف الإسلامى . فمنذ رجع قسطنطين إلى عاصمة بلاده ألفى الفوضى متفشية فى إدارتها ، بسبب تدخل مارتينا زوجة أبيه هرقل فى شئون الدولة . فكانت هذه المرأة الجميلة الشابة تعمل على إقصاء ذوى الخطر عليها من القادة ، وتمهد الجو لابنها هرقلوناس ليتولى عرش الدولة . وساعد مارتينا على تنفيذ مآربها أن كثيراً من القادة البيزنطيين عادوا منهزمين من الميدان الشامى ، فاتهمتهم بالتقصير والعجز وأطاحت بالكبار منهم .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤٣ .
(٢) سيد أمير على : موجز تاريخ العرب ، ص ٣٧ .

وتمكنت الامبراطورة أن تحصل من هرقل على وصية تنص على أن تتولى هى ومعها ابنها هرقلوناس العرش ، بالاشتراك مع ابنه قنسطنطين الثالث . وكانت تبغى من وراء ذلك التمكين لابنها الصغير وإعداده للحكم . غير أن الشعب البيزنطى أبى أن يشترك فى حكمه امرأة ، وكان يبغض هذه الامبراطورة الوصية بالذات ، وانقسم على نفسه فى هذا الصدد قسمين ، أحدهما يعادى الامبراطورة وابنها ، ويطالب أن ينفرد قنسطنطين الثالث بالحكم ، على حين نادى حزب آخر بمناصرة مارتينا وابنها . ولكن تغيرت الأحداث فجأة فى هذه الظروف ، إذ توفى قنسطنطين الثالث بعد أن حكم ثلاثة أشهر ونصف شهر . فشاع الاعتقاد بين الناس أن مارتينا دست له السم ليخلو لها الجو . وترتب على هذه الشائعات أن نهض الجيش للدفاع عن حقوق قنسطنطين المتوفى ، وطالب بتنصيب ابنه على العرش الامبراطورى مكان أبيه . وانتهى الأمر بتولية هذا الابن العرش إلى جانب مارتينا وابنها ، وأطلق عليه الشعب اعتزازاً اسم قنسطانز . ولم تلبث الحركة الشعبية أن تطورت وعزلت مارتينا وابنها هرقلوناس ، وعاقبهما الثوار بقطع لسان الأم ، وجدع أنف الإبن ، ونادوا بقنسطانز الثانى امبراطورا بمفرده سنة ٦٤٣ م ، وكان عمره إذ ذاك أحد عشر عاماً .(١)

وباعتلاء قنسطانز العرش وحده تغلبت الدولة البيزنطية على أزمة حادة قبل مضى السنة التى توفى فيها الامبراطور هرقل نفسه ، وتطلعت إلى حفيده ليعيد لها مجدها السالف ضد المسلمين . وكان للوسط الذى نشأ فيه قنسطانز أثر كبير فى السياسة التى اختطها لتصريف شئون دولته والدفاع عنها . إذ جعلت منه الدسائس والمؤامرات التى أحاطت به فى أولى أيام حياته رجلا نشطا يقظا محبا للاعتماد على نفسه ، وبدأت تظهر ما انطوت عليه نفسه من صفات حين أصبح رشيداً قادراً على إدارة دفة الشئون العامة . فرأى أولا ضرورة تطهير الدولة

(1) Bury : A History of the Later Roman Empire, II 281 287.

مما علق بها من أدران الحوادث السابقة ، قبل الاتجاه نحو المسلمين الذين زلزلوا دعائم دولته .

بدأ قنسطانز بالقضاء على عناصر القلق والاضطراب فى دولته ، وكانت مستوطنة إذ ذاك فى إقليم آسيا الصغرى ، إذ غدا مقر الثائرين على الأباطرة البيزنطيين ومركز تجمع المناوئين لسلطانهم . فكانت بعض القوات البيزنطية بآسيا الصغرى خارجة عن طاعة قنسطانز بسبب تحريض بعض الحاقدين على هذا الإمبراطور من رجال العهد الماضى . وتطور الأمر بأن شق الجند عصا الطاعة ، وتحول تمردهم إلى ثورة سافرة على الامبراطور قنسطانز . ولكن هذا الامبراطور قابل الثوار ببأس وعزيمة قوية ، وبرهن على ما تمتع به من حزم وجلد حين حاصر مناطق القوات الثائرة سنة ٦٤٥ م ، وضيق عليها الخناق حتى سلمت ، ودخلت صاغرة فى التبعية والطاعة مرة أخرى لسلطانه ونفوذه(١) .

وأتبع قنسطانز سياسته الداخلية بحل بعض المشاكل الخارجية ليتفرغ نهائيا للمسلمين . ولكن لم يستطع أن يفرغ منها تماماً ، واضطر إلى توزيع جهوده بينها وبين محاربة المسلمين ، حتى لقى حتفه أخيراً وهو منهوك القوى مشتت الأفكار . وكانت أولى هذه المشاكل جماعات السلاف التى كانت قد استقرت فى بلاد البلقان منذ أيام الامبراطور هرقل ، وأخذت تعمل على الانتشار فى سائر أرجاء الدولة البيزنطية وممتلكاتها بأوربا . وكانت هذه الجماعات قد استقرت من قبل فى بلاد البلقان على أساس التبعية للدولة البيزنطية والتعهد لها بأداء ما يطلب منها من خدمات ، وهو ما يسمى بقاعدة « المعاهدين »(٢) . ولكن لم تلبث هذه العناصر أن عملت على السيطرة على المدن الساحلية ببلاد اليونان ، ثم صنعت أساطيل

---

(1) Bury, op cit 287.

(٢) كلمة المعاهدين من معاهدة باللاتينية « foedus » إذ كانت الدولة البيزنطية تعقد معاهدات مع العناصر التى ترغب فى النزول بممتلكاتها مقابل تعهدها بتنفيذ ما تطلبه الدولة منها.

لها وأخذت تغير بها على سائر الجزر اليونانية ببحر إيجه . ووصلت طلائعها حتى البسفور ،[1] وهددت العاصمة البيزنطية نفسها .

وخشى الامبراطور قنسطانز ترك هذه العناصر وشأنها ، وعول على إخضاعها قبل أن يستفحل خطرها ، وما قد ينجم عن ذلك من اتفاق إغاراتهم مع هجمات المسلمين على أراضى الدولة البيزنطية . وكانت بعض العناصر السلافية قد حاولت فعلا الوصول إلى آسيا الصغرى ، والانضمام إلى جانب القوات الإسلامية التى كانت تستعد على أطراف هذه البلاد الجنوبية للقضاء على الدولة البيزنطية . ونجح قنسطانز فى القيام بحملة تأديبية ، أعادت السلاف بشبه جزيرة البلقان إلى الولاء للدولة البيزنطية وتأدية ما كان مقرراً عليهم من التزامات ، كما حملهم على التخلى عن الإغارة على المدن الساحلية ، وأخذ منهم كثيراً من الأسرى عقابا لهم.[2]

وما أن فرغ قنسطانز من خطر السلاف حتى انغمس فى مشكلة دينية مع البابا فى روما ، الذى كان يختلف مع بطريق القسطنطينية حول العقيدة الخاصة بطبيعة المسيح . ومهما يكن من أصول الجدل الدينى فى هذه المشكلة ، فإن الامبراطور كان صديقا لبطريق القسطنطينية ، وعول على أنهاء هذه المشكلة كيفما كانت الوسيلة ليتجه إلى المسلمين ، الذين أخذت طلائع حملاتهم البرية والبحرية تحت قيادة معاويه تهاجم أراضى دولته . فألقى الامبراطور القبض على البابا وسجنه، ثم نفاه أخيراً خارج إيطاليا [3].

وظلت ذيول هذه المشكلة قائمة[4] بعد أن أحس قنسطانز أنه فرغ تماماً من مشاكله الداخلية والخارجية الخاصة بممتلكاته فى أوربا . ولكنه أقبل بعد ذلك

---

(1) Bury : op cit. 280
(2) I bid 292,
(3) I bid, 294, 295

(٤) انظر نتائج ذلك العمل فى الفصل الخاص بشمال إفريقيا كذلك .

على محاربة المسلمين براً وبحراً ، وكله أمل أن يعيد قصة جده هرقل مع الفرس . غير أنه غاب عن قنسطانز أن المسلمين من معدن آخر غير معدن الفرس ، وأن معاوية بن أبي سفيان والى الشام قد أخذ تمام أهبته واستعداده لصد أى عدوان بيزنطى . فخرج الامبراطور قنسطانز من اصطدامه مع معاوية بدرس جديد جعل الدولة البيزنطية تتخلى عن مشاريعها وأحلامها القديمة في استرداد بلاد الشام وغيرها من أملاكها التى استولى عليها المسلمون ، وتدرك أن الملابسات والأوضاع الزمنية قد تغيرت ، وغدت السياسة والأمر الواقع يحتمان ضرورة المحافظة على البقية الباقية من أملاك الدولة المعرضة لتيار الزحف الإسلامى .

وجاءت هـــذه السياسة الجديدة بثمار طيبة للدولة البيزنطية وإن كان الامبراطور قنسطانز قد دفع حياته ثمنا لها . إذ اتجه بعد فشله فى استرداد الشام إلى جزيرة صقلية ليتخذها مقراً له بعيداً عن هجمات المسلمين ، ومركزاً يتوسط كلا من إيطاليا وشمال إفريقيا البيزنطى ، ويدفع منه الزحف الإسلامى على ما تبقى لدولته من أراضى . ولـكن لقى الامبراطور حتفه حين وصل مدينة سيراكوز بصقلية سنة ٦٦٨ م ، إذ آتت عوامل البغضاء التى بذر بذورها فى إيطاليا ثمارها حين دخل مدينة سيراكوز ، حيث قتله شخص من خدمه يدعى أندرياس (Andreas) ، وهو بالحمام . ثم نودى بشخص يدعى ميزيزيوس (Mizizios) امبراطوراً ؛ اختاره الناس امبراطورا بصقلية لوسامته وأناقته .(1)

ولم تدم هذه المؤامرة طويلا ، إذ جاء قسطنطين بن قنسطانز إلى صقلية سريعاً وقبض على القاتل والامبراطور المزعوم وأعدمهما ، وكذلك أنزل العقاب بغيرهما من علية القوم الذين ثبتت عليهم تهمة التحريض على اغتيال أبيه قنسطانز. ثم عاد إلى القسطنطينية متعباً ، مرخياً لحيته حتى أطلق عليه الناس قسطنطين ذا

(1) Bury, op cit, 302, 303.

اللحية « Pogonatos » . وقبل أن يبدأ بتنفيذ سياسة أبيه الجديدة التى وصل إليها بعد فشله فى محاربة معاوية ، واجه ثورة جند الأناضول ، الذين ادعوا لأنفسهم حق الدفاع عن سائر أولاد قنسطانز الأخر ، وطالبوا بتنصيبهم إلى جانب قنسطنطين على العرش . ولكن قنسطنطين استطاع بدهائه أن يخمد هذه الثورة ، حيث تظاهر بقبول مطالب الجند وأعادهم إلى أماكنهم ، ثم قبض على زعماء الثورة من القادة وجدع أنوفهم ، معلنا نفسه امبراطورا تحت إسم قنسطنطين الرابع . (١) وبذلك حقق لامبراطوريته الاستقرار الداخلى وأعدها لمقاومة حملات معاوية التى هدفت إلى الاستيلاء على عاصمته القسطنطينية .

وأتم قنسطنطين تأمين دولته قبل الهجوم الإسلامى عليها بإكمال سياسة أبيه إزاء عناصر السلاف وغيرها من العناصر الضاربة فى شبه جزيرة البلقان ، إذ كانت هذه المنطقة دائماً موضع قلق واضطراب ، تنتهز عناصرها الفرص المواتية وانشغال الدولة البيزنطية بحروبها مع المسلمين لتخرج على طاعة الحكام البيزنطيين رغبة فى التمكين لنفسها فى هذه الأرض اليونانية . فكان السلاف يكونون غالبية سكان شبه جزيرة البلقان باستثناء المدن الساحلية ولكنهم افتقروا إلى الترابط والتعاون ، إذ كانوا يحيون حياة متنقلة لا هدف لها . غير أنه ظهر على عهد قنسطنطين عناصر أخرى جديدة على أطراف شبه جزيرة البلقان من الناحية الشمالية جهدت على توحيد هذه العناصر السلافية ، وتأسيس دولة لها البلقان . وكانت هذه العناصر الجديدة هى جماعات البلغار الذين ملأوا فيما بعد صفحات التاريخ البيزنطى بأحداث العداء والحروب المتكررة . على أن الأمبراطور قنسطنطين الرابع أسرع إلى تأديب هذه العناصر الجديدة وأبعد شبحها عن أراضى دولته (٢) ، وأنهى بذلك ما كان يضطرب به جوف بلاده من قلق

(1) Bury, op cit, 303, 308 309.
(2) Ibid, 331 332.

وعدم استقرار ، ثم ولى جهوده شطر المسلمين .

ولذا ما أن وصلت حملات معاوية إلى أسوار القسطنطينية حتى كان الأمبراطور البيزنطى قد كرس كل جهوده للدفاع عن عاصمته والاستماتة فى المحافظة عليها . واستطاعت الدولة البيزنطية أن تضمن لنفسها البقاء ، على نحو ما نجح إليه معاوية من قبل فى الدفاع عن إقليم الشام ، وإنزاله بالبيزنطيين من ألوان الهزائم ما جعلهم يعترفون بدولة الإسـلام الناشئة ومكانتها فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

معاوية والبيزنطيون
فى شرق البحر الأبيض المتوسط

سياسة معاوية البحرية :

باستيلاء المسلمين على الشام ومصر فتحت صفحة جديدة فى تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، دوّن سطورها الأولى معاوية بن أبى سفيان بمداد الجهاد ، وملأها بأخبار عظمة المسلمين ونشاطهم الرائع فى ميدان العمليات البحرية . ويعتبر معاوية صاحب الفضل الأول فى رسم سياسة المسلمين إزاء البحر الأبيض المتوسط منذ زمن مبكر ، وحلّ المشكلة البحرية التى اعترضتهم منذ فتوحاتهم الأولى فى الحوض الشرقى من ذلك البحر . إذ أطل المسلمون على مياه البحر الأبيض المتوسط من شواطىء طويلة ، تمتد من طرسوس شمالا إلى برقة جنوباً ، وتواجه فى هذه المياه أعداء ألداء ، دأبوا على الأغارة على هذه الشواطىء الإسلامية وقض مضاجعهم بها .

أدرك معاوية بثاقب نظره المقومات الضرورية اللازمة لبقاء المسلمين فى حوض هذا البحر ، والاحتفاظ بهيبتهم بين دوله . فالبحر الأبيض المتوسط يعتبر منذ أقدم التاريخ المحور الذى دارت عليه أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى من أجل السيطرة والسلطان . وكان بقاء الدولة الفائزة رهناً بسيطرتها على مياه هذا البحر وما به من مراكز استراتيجية هامة . فتطلع معاوية إلى إبعاد مخالب البيزنطيين التى كانت تتحفز لتنشب مرة أخرى فى شواطىء الشام . وعمد إلى الاستيلاء على الجزر القريبة من مقر ولايته ، والتى كانت قواعد للأساطيل البيزنطية ، تخرج منها لتسديد ضرباتها حيثما تشاء إلى أرض المسلمين .

وضع معاوية خطة سليمة لتحقيق أهدافه البحرية ، ثم تطورت مع الزمن حتى ترك لخلفائه سياسة مرسومة واضحة المعالم والأهداف . ولم تكن خطته من وحى الارتجال ، أو من محض الصدف وتقدير المقادير ، وإنما كانت ثمرة تفكير صحيح وئيد بدأت طلائعه منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب . وتعتبر فترة ولاية معاوية على الشام الحجر الأساسى فى صرح العمليات البحرية الأموية فيما بعد ، وفاتحة المجد البحرى الإسلامى عند الاطلاق . وتجلت الخطوط الرئيسية لهذا البرنامج البحرى الذى رسمه معاوية حين أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى غزو جزيرة قبرص ، مبيناً له شدة خطورة هذا المعقل البيزنطى على سلامة مدن الشام . إذ جاء فى خطابه : « يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » ، وختم خطابه بعد هذا الوصف الدقيق المؤثر طالباً السماح له بغزو هذه الجزيرة .[(١)]

ولم يكن الخليفة عمر بالشخص الذى يندفع فى آرائه ، ولا سيما فى مهام الأمور التى تتعلق بسلامة جند الإسلام والمسلمين . وكان عمر بن الخطاب على صواب فى استشارة قادة الدولة الاسلامية على عهده فى هذا الموضوع الجديد الذى أثاره معاوية . ووقع اختياره على استطلاع رأى عمر بن العاص والى مصر ، لما لهذه الولاية من شواطىء على نفس البحر الأبيض مثل بلاد الشام ، ولأنها كذلك معرضة للاغارات البحرية التى شنها البيزنطيون على سواحل المسلمين . وجاء رد عمرو بن العاص وصفاً رائعاً لطبيعة البحر وركوب مياهه ، وما يلاقيه المرء فى ذلك من صعاب ، فكتب إلى الخليفة : « إنى رأيت خلقاً كبيراً ، يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ... هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق »[(٢)].

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج٥ ، ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٥٢ .

ولذا لم يكن عجباً أن يؤثر عمر بن الخطاب التريث فى إجابة طلب معاوية، ولا سيما أنه رأى ألا توجد حاجة ملحة تتطلب دخول المسلمين فى ميدان المغامرات البحرية ضناً منه بسلامة المسلمين، إذ قال لمعاوية فى رده « تالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم »[١]. ولكن معاوية لم يكن بالوالى الذى يغمض عينيه تماماً عن أى خطر يلوح فى الأفق مهدداً ولايته وأرض الإسلام. فكتب إلى عمر بن الخطاب مرة أخرى يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هى عليه من خراب وافتقارها إلى وسائل الدفاع القوية، إذ كانت الخطة التى اتبعت فى الفتوحات على عهد عمر هو أن المسلمين « كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو، سربوا إليها الأمداد »[٢]. فكان هذا الأسلوب المتبع يتطلب العناية بحالة المدن الساحلية لتصبح مهيأة لإقامة الجند الإسلامى، وتمكنه من الدفاع عنها. ولم يتردد الخليفة عمر فى أن يطلق يد معاوية لإصلاح حال السواحل بما يراه كفيلا لسلامتها من « مرمة حصونها، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها »[٣].

واستغل معاوية هذا التصريح واتخذه خطوة أساسية يبنى عليها فيما بعد مشاريعه البحرية. فآثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المحاربة، بما يجعلها قواعد فى المستقبل تنقل منها الجنود بحراً إلى أى مكان يشاء. ووضع لهذه المدن نظاماً عرف بالرباط، وهو ما يقصد به الأماكن التى تتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو. واعتنى معاوية بهذا النظام حتى أصبح جزءاً مرتبطاً أشد الارتباط بالجهاد أو الحرب المقدسة. إذ اجتذب

(١) الطبرى، نفس المرجع، ج ٥، ص ٥٢.
(٢) البلاذرى، نفس المرجع، ص ١٣٤.
(٣) نفس المرجع السابق، ١٣٤، ١٣٥.

الرباط إليه كل الأتقياء المتحمسين العاملين ، دائماً على إعزاز الإسلام ونصرته.

ويبدو أن معاوية استعار هذا النظام من البيزنطيين ، وأدخل عليه عدة تغيرات جعلته صالحاً لتنفيذ مشاريعه . إذ عرف البيزنطيون نظام الأديرة المسلحة وهى الأماكن التى انقطع فيها الرهبان للعبادة واجتمعوا فيها سوياً لخدمة مطالبهم مبتعدين عن الحياة وزخرفها الباطل . ولكن لا توجد شواهد قاطعة على اشتراك أشباه أولئك الرهبان المقيمين فى الأديرة المسلحة فى العمليات الحربية التى قامت بها الدولة البيزنطية[1] . على أن الرباط غدا دائماً مجمع المتحمسين والغلاة المتدينين الذين وقفوا حياتهم للذود عن حياض الإسلام ، حيث وفد إليه باستمرار المغامرون المسلمون لشد أزر إخوانهم من الجند النظامى .

وتدرج معاوية فى تدعيم هذا النظام على نحو ما اتبعه فى كل أعماله التى اتسمت بالدقة والابتعاد عن الارتجال والاندفاع . فأعد الرباط لتكون حصوناً يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لاغارات الأساطيل البيزنطية ، ولتكون ملجأ يحتمى بها الأهالى فى المناطق التى يدهمها العدو . وقد خصص حاميات الرباط لإنذار الأهالى فى المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر السفن البيزنطية فى المياه الاقليمية . فكان الحصن فى الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم ، ومخازن للأسلحة والمؤن ، وبرج للمراقبة . ثم لم يلبث الرباط أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الاغارات .

واكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى ولى الخلافة عثمان بن عفان ، إذ خطا منذئذ خطوة ثانية فى متابعة سياسته البحرية وتشجيع الناس على النزوح إلى المناطق الساحلية لينمى عندهم ملكة ركوب البحار. وساعد معاوية على تحقيق خطته أن الخليفة أمر بمنح كل راغب فى الإقامة بالمدن الساحلية إقطاعات من

(1) Encyc. of Islam (art Ribat)

الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها. فترتب على ذلك ازدياد العمران بالسواحل وانثيال الناس عليها للتمتع بامتيازات الاقامة بها، دون أن يأبهوا بمخاوف التعرض لاعتداءات السفن البيزنطية. وذلك لأن معاويه أعد جيوشا دائمة فى المدن الساحلية للدفاع عنها إلى جانب القوات التى تخرج للغزو والإغارات، ودأب على أخذ أرض من يتخلف عن الغزو وإعطائها للجند المقيم على حراسة السواحل أثناء الخروج للاغارة.[١]

وتعتبر سياسة منح الاقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة فى سلم السياسة البحرية الدفاعية التى رسمها معاويه قبل أن يستطيع ركوب البحر فى عهد عثمان بن عفان. إذ أتم بفضل هذه الامتيازات إعداد القواعد البحرية التى أخذ ينشىء فيها أساطيله. وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالى بعلبك وحمص وانطاكيه سنة ٤٢ هـ/٦٦٢ م إلى صور وعكا وغيرهما من المدن بسواحل الأردن. كذلك أصلح معاويه حصون هاتين المدينتين[٢]، ولا سيما عكا التى خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص. وبسط معاويه اهتمامه إلى سائر المدن الساحلية، فمنح الجند أراضى أيضا فى انطرسوس ومرقية وبلنياس، واهتم اهتماما خاصاً برباط عسقلان والجند الموكلين بحمايتها[٣]. وأخيراً جدد بعض الحصون فى المدن التى خربت معاقلها القديمة، كما فعل فى مدينة جبله، إذ بنى لها حصنا آخر غير حصنها القديم الذى كان من قبل مقر رهبان بيزنطيين، أقاموا به للعبادة[٤]. ومن ثم آتت سياسة الاقطاعات ثمارها، فعمرت الثغور البحرية لأن «الناس انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية»[٥] على حد قول المؤرخين المسلمين.

---

(١) البلاذرى، نفس المرجع، ص ١٣٥.
(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٢٣.
(٣) نفس المرجع السابق، ص ١٤٠، ١٤٩.
(٤) نفس المرجع السابق، ص ١٤٠.
(٥) نفس المرجع السابق، ص ١٣٥.

وَجنى معاوية ثمار هذه السياسة التمهيدية السابقة حين استطاع أن يظفر من الخليفة عثمان بن عفان بتصريح يبيح له غزو قبرص . إذ سمح له الخليفة بالقيام بالغزو البحرى على شرط ألا يكره أحداً على ركوب البحر ، وأن يعبىء أساطيله من المتطوعة فقط . ولم يلق معاوية عناءاً فى اجتذاب الجند الذى أخذه معه فى حملاته البحرية ، إذ كانت المدن الساحلية عامرة بالمغامرين وغيرهم ممن ذاقوا ثمار الإقطاعات وامتيازاتها ، وتطلعوا إلى خوض غمار الميدان البحرى تحت راية معاوية ، مخلدين اسمهم فى طليعة الحملات الإسلامية البحرية لتقليم أظافر البيزنطيين .

وظهر فى هذه الفترة المبكرة من نشاط معاوية البحرى مدى الارتباط والتعاون بين الشام ومصر فى ميدان العمليات البحرية . إذ كانت مصر فى تلك الفترة من ولاية معاوية على الشام تحت إمرة عبد الله بن أبى سرح ، أخى الخليفة من الرضاع . واشترك معاوية وعبدالله فى الإغارات البحرية على جزر البيزنطيين فى البحر الأبيض المتوسط ، وفى صد إغارات أساطيلهم ، وكانت بمصر إذ ذاك دور صناعة السفن ، وتخرج منها الأساطيل الحربية إلى قواعد الشام البحرية ، حيث جرى النظام البحرى إذ ذاك على أن تتجمع السفن الإسلامية بموانى الشام للهجوم على أراضى البيزنطيين القريبة منهم .

وحرص معاوية دائماً على تحقيق التعاون البحرى بين مصر والشام ، لأنهما كانتا من قبل أهم ولايات الامبراطورية البيزنطية فى ميدان النشاط البحرى كذلك ، سواء أيام السلم أو الحرب . فكان التقسيم الإدارى للدولة البيزنطية قبل ظهور الإسلام يجمع بين الشام ومصر فى العمليات البحرية ، ويقضى بتعبئة أساطيلهما معاً لإخضاع العناصر التى تشق عصا الطاعة على السلطات البيزنطية فى أى بلد من البلاد التابعة لها فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وفضلا عن ذلك ربطت العوامل الطبيعية بين مصر والشام فى الشئون البحرية وجعلت كل

منهما لا تستغنى عن الأخرى . فمصر فقيرة فى أخشابها التى تصلح لبناء السفن ، على حين تـكثر بالشام النباتات التى تزود دور صناعة مصر بما تحتاجه من أجود الأخشاب . وكانت مصر دائماً تطمع فى الحصول على هذه الأخشاب ، ودفعها حرصها فى بعض العصور القديمة إلى محاولة السيطرة على الشام . ولـكن فى ظل الإسلام انتظمت العلاقات بينهما على أساس التعاون لما فيه نصرة أرض الإسلام ، ولا سيما أمام عدوهم المشترك من البيزنطيين .

وتجلى اهتمام معاوية ببقاء التعاون بين مصر والشام خلال الحروب الأهلية التى نشبت بينه وبين على بن أبى طالب ، إذ صمم معاوية على إدخال مصر فى دائرة نفوذه ليحمى ظهره بإقليم الشام ويشد أزره بمساعدة مصر . وظهر مدى حرصه على اكتساب مصر وانتزاعها من يد أعدائه أنه عهد إلى عمرو بن العاص فاتح مصر الأول وداهية قادة المسلمين بالاستيلاء عليها مقابل الحصول على خراجها سبع سنين . وباستيلاء عمرو على مصر استطاع معاوية أن يستفيد من مصر والشام فى نشاطه البحرى ، حيث نظم العلاقات بينهما بما يدعم سياسته البحرية فى البحر الأبيض المتوسط[1] .

واتسعت سياسة معاوية البحرية وأخذت مظهراً جديداً بعد سنة ٤٩هـ/٦٦٩م. ففى هذه السنة شن البيزنطيون غارة على سواحل الشام ، وكانت من العنف والشدة بحيث جعلت معاوية يفكر فى إنشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها إلى جانب دور الصناعة بمصر . وهدف من وراء ذلك إلى إيجاد أساطيل دائمة بموانى الشام على استعداد لدفع أى هجوم بيزنطى مفاجىء ، وليخفف العبء عن

---

(١) كشفت أوراق البردى التى وجدت بمصر والتى يرجع تاريخها إلى ولاية قرة بن شريك ، الوالى الأموى على مصر سنة ٩٠ هـ ، عن حرص الأمويين على المحافظة هذا التعاون البحرى بين مصر والشام ، الذى وضع أسسه الخليفة معاوية . فكان قسم كبير من بحارة الأساطيل الاسلامية يجمع من مصر لتحارب إلى جانب أهل الشام . ولـكن كان جند مصر يعودون بعد انتهاء الحملات البحرية إلى وطنهم . أنظر : Bell, Der Islam, III, 96; Papyrus 1435

أساطيل مصر . فأمر معاوية سنة ٤٩ هـ/٦٦٩ م أى فى نفس السنة التى حدثت فيها الإغارة البيزنطية على الشام[١] بجمع الصناع والنجارين و إرسالهم إلى عكا ، التى وقع اختياره عليها لينشئ بها أول دار لصناعة السفن بالشام . وكانت عكا تستطيع الحصول على ما يلزمها من أخشاب لبنان ، التى اشتهرت بصفة خاصة بصلاحيتها للمجاديف[٢] .

و بذلك استطاع معاوية بجده ومثابرته أن يحقق ما جاش بنفسه من آمال فى إنشاء قوة بحرية إسلامية ، وأن يتغلب على عقبات وصعاب كانت كفيلة بأن تدعه يطلق مشاريعه البحرية إلى الأبد . وكان من حسن طالع دولة الإسلام أن يتعهد معاوية شئونها فى الميدان البحرى ، و يوقف أساطيله على صد عدوان البيزنطيين ، إذ بينما استولى المسلمون نهائياً على دولة الفرس الساسانيين وضموها إلى رقعة الإمبراطورية الإسلامية ، ظلت الآمال تداعب البيزنطيين فى معاودة الكرة علي المسلمين و إخراجهم من الشام ومصر. ولكن بفضل حملات معاوية البحرية أفاق البيزنطيون إلى رشدهم ، وأدركوا أنهم أمام قوة منظمة ، تسيرقدما وباضطراد من نصر إلى نصر ، وتعمل جاهدة و بنجاح على انتزاع السيادة منهم علي البحر الأبيض المتوسط .

فتح قبرص :

استهل معاوية باكورة نشاطه البحرى بمحاولة الاستيلاء على جزيرة قبرص التى كانت محور مكاتباته مع الخليفتين عمر وعثمان ، يطلب منهما الإذن له بتقليم أظافر البيزنطيين فى هذا المعقل القريب من أرض الإسلام . وكانت استعدادات معاوية البحرية لغزو هذه الجزيرة تتناسب مع أهمية الحملة وضخامة أهدافها .

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٢٤ .

(2) Semple, op cit, 270, 271

إذ كانت هذه الجزيرة من أقدم المعاقل فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وحرصت القوى المتنافسة فيه على إبقائها فى دائرة نفوذها . فمنذ بزغت شمس الحضارات فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى والصراع مستمر على سيادة جزيرة قبرص ، التى تعتبر حجر الزاوية فى قوة أية دولة تصل إلى مركز الزعامة فى بلاد الشرق الأدنى . وتجلت هذه الظاهرة منذ أيام تحتمس الثالث امبراطور مصر الفرعونية حتى العصر الحاضر ، حيث حرصت الدول الكبرى التى عرفها حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى على السيطرة على قبرص[(١)] .

وتستمد هذه الجزيرة أهميتها من موقعها الجغرافى الذى يوحى للناظر أنها أشبه بمدفع يدوى (مسدس) فوهته مصوبة إلى إقليم الشام[(٢)] . وإلى جانب ذلك تحتل ركنا ممتازا فى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، يجعل لها سهولة التحكم فى مياه هذا الشطر الهام من البحر بما يُطل عليه من البلاد . إذ يمكن للمرء أن يرى من قبرص بالعين المجردة آسيا الصغرى والشام ، ويبحر منها مباشرة ،وفى وقت قصير ، متجهاً إلى بيروت أو بورسعيد أو الإسكندرية[(٣)] . غير أن أحداث قبرص اتصلت اتصالا مباشرا مع إقليم الشام ، وارتبط مصيرها بأحوال القوى التى ظهرت فى هذا الإقليم سواء فى مشاريعها الحربية أو التجارية . إذ يقترب طرف جزيرة قبرص الشرقى من خليج الاسكندرونة ، الذى يقع خلفه الممر الجبلى الهام الممتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى شمال العراق . وكان هذا الطريق من أهم المسالك التجارية التى عبرتها قوافل التجار المحملة بالمنتجات الشرقية إلى أسواق البحر الأبيض المتوسط .

وأدرك معاوية أهمية هذه الجزيرة ، وضرورة الاسراع بمهاجمتها بسبب إغارات البيزنطيين البحرية على الشام ، واتخاذهم جزيرة قبرص محطة تموين

(1) Hill, History of Cyprus I,1
(2) Semple, op cit, 201.
(3) Hill : op cit, 1

فى الطريق ، وملجأ يعتصمون به حين تدفعهم الأحداث إلى الانسحاب . ودلت أحداث الحملة التى أعدها معاوية لغزو قبرص سنة ٢٨ هـ /٦٤٩ م على الأغراض الملحة التى حملت المسلمين على البدء بالإغارة على هذه الجزيرة ، كما أن معاوية حرص على اختيار كبار الشخصيات الإسلامية لمصاحبته فى هذه الحملة ليكسبها مظهر الجهاد الحق الرائع .

حشد معاوية أساطيله وقواته فى ميناء عكا ، وكانت السفن جميعها من مصر ، على حين اشترك مع الجند الإسلامى كبار رجال الشام وغيرهم من مشاهير القادة المسلمين مثل عبادة بن الصامت . واتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها حيث اصطحب معاوية معه زوجته فاختة ، وأخذ عبادة بن الصامت كذلك امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية . وكان الخليفة عثمان بن عفان هو الذى أمر معاوية بأن يأخذ زوجته معه ليضمن صدق عزيمته فى الإغارة على هذه الجزيرة ، وليعلم مدى قربها من الشام على نحو ما ذكره فى مكاتباته ، إذ كتب إلى معاوية قائلا : « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك ، فاركبه مأذوناً لك ، وإلا فلا »[1] .

ولم يكن معاوية فى حاجة إلى أن يقدم الدلائل على صدق مشاريعه البحرية ، إذ كانت حماسته لغزو قبرص تفوق فى شدتها أى دليل . وأبحر من ميناء عكا على رأس أسطوله بعد انتهاء شتاء سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ، ونزل بالساحل مسجلا أول عبور حققه جند الإسلام لمياه البحر الأبيض المتوسط . وشاءت الأحداث أن تجعل هذه الغزوة رمزاً على صدق عزيمة المسلمين جميعاً رجالا ونساءا ، فقد استشهدت أم حرام زوجة عبادة بن الصامت على أرض قبرص ، إذ حين رست السفن الإسلامية الشاطئ وأخذ الجند ينزلون منها ، تقدمت أم حرام لتركب دابتها ، فنفرت الدابة وأوقعت أم حرام التى ألقت حتفها ، مخلفة ذكراها على أرض قبرص فى أول غزوة بحرية إسلامية عرفها البحر الأبيض المتوسط .

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٥٩ .

ودفنت أم حرام فى أرض هذه الجزيرة ، وعرف قبرها منذئذ باسم « قبر المرأة الصالحة[١] » .

و بعد أن أنزل المسلمون عدتهم وعتادهم إلى الشاطئ أرسلوا إلى أهالى قبرص يخبرونهم أنهم لم يأتوا طمعاً فى جزيرتهم ، و إنما ليتفقوا معهم على ما فيه سلامة للمسلمين و بلادهم . غير أن سكان قبرص أبوا الدخول فى مفاوضات مع المسلمين واعتصموا بأسوار مدنهم . فتقدم المسلمون نحو العاصمة قنسطنطينا 'Constantina' التى كانت غاصة بالسكان ، و بها جميع ثروات الجزيرة وذخائرها . و بعد حصار قصير اقتحم المسلمون هذه المدينة واستولوا على كنوزها ، وأخذوا كثيراً من الأسرى. واضطر حاكم المدينة ، أو أركونها ، إلى عقد صلح مع المسلمين[٢] ، دلت شروطه على العوامل الحقيقية الكامنة وراء الحملة الإسلامية ، وأهداف معاوية فى المبادرة بالهجوم على قبرص .

صالح أهالى قبرص معاوية والمسلمين على أن يدفعوا لهم جزية سنوية قدرها ٧٢٠٠ دينار ، على نحو ما يؤدونه كل عام كذلك للدولة البيزنطية ، وتعهدوا بألا يساعدوا البيزنطيين فى إغاراتهم على أرض الشام ، وألا يطلعوهم على أسرار المسلمين ، كما قبلوا أن يزودوا المسلمين بأنباء أية حملة يزمع البيزنطيون القيام بها ضد الدولة الإسلامية . و بذلك كان على أهالى قبرص التزام الحياد التام فى النزاع الإسلامى البيزنطى ، حيث لم يطلب منهم المسلمون تقديم أية مساعدة لهم فى إغاراتهم على البيزنطيين ، « فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ، ولم ينصرهم أهل قبرص ، ولم ينتصروا عليهم »[٣] .

وعاد معاوية إلى الشام مظفرا ، مدوناً أول سطر فى سجل النشاط البحرى

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ؛ البلاذرى، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٣) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

الإسلامى ، وحقق فوزاً فى ميدان جديد ، أعلامه من روح المسلمين المعنوية ، وأزال ما اتصف به العرب من تهيب لركوب المياه ، وأظهر أنهم فى سبيل عزة الإسلام وأرضه يذللون سائر العقبات . وكذلك برهن معاوية بانتصاره على أهالى قبرص أن سياسته البحرية قامت على أسس وطيدة لا بد أن تؤتى أكلها ، حيث كان خضوع قبرص لمطالب معاوية بداية طريق جديد سلكه المسلمون مظفرين .

و بعد عودة معاوية إلى الشام لم يركن إلى الدعة ، مطمئناً إلى الصلح الذى عقده مع أهالى قبرص ، وإنما أخذ يراقبهم ليرى مدى تنفيذهم لالتزاماتهم إزاء المسلمين . وكان معاوية صادقاً فى حذره وفى تتبعه لحركات سكان قبرص ، إذ حدث فى سنة ٣٢ هـ / ٦٥٣ م أن أخل أهالى قبرص بشروط الصلح ، وأمدوا البيزنطيين ببعض السفن فى إغاراتهم على أراضى المسلمين . فصمم معاوية على الاستيلاء على قبرص وإدخالها فى التبعية للدولة الإسلامية ، ليحرم البيزنطيين نهائياً من استغلال الجزيرة وأهلها . وجهز حملة بحرية كبرى فى السنة التالية ، فى عام ٣٣ هـ / ٦٥٤ م ، وكانت مكونة من خمسمائة سفينة وعدد كبير من الجند . وتمكن بهذه الحملة الكبيرة من فتح الجزيرة عنوة ، رغم مقاومة أهلها ، وأخذ منهم كثيراً من الأسرى ، ونجح فى تلقين السلطات بها درساً قاسياً لإخلالهم بشروط الصلح (١) .

وعول معاوية على تدعيم نفوذ المسلمين بالجزيرة فى هذه المرة ، إذ فضلا عن إلزام أهلها بأداء المطالب المالية وغيرها من الالتزامات ، التى كانوا متعهدين بأدائها طبقاً لشروط الصلح السابق ، بعث معاوية إلى قبرص اثنى عشر ألف رجل من الجند النظامى . وأجرت لهم الدولة الإسلامية الرواتب ، ليكونوا جيشاً مقيماً

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

بالجزيرة يصد عنها عدوان البيزنطيين ، ويقضى على أية إغارة يحتمل أن تمر بهذه الجزيرة . وأتبع معاوية ذلك بنقل جماعة من أهل بعلبك إلى قبرص ، وأغراهم على البقاء بها بمنحهم الرواتب ، ليشد من أزر الحامية الإسلامية ، ويقلل من تطلع السكان الأصليين بالجزيرة إلى العودة إلى مساعدة البيزنطيين وشيد معاوية لهذه الجالية الإسلامية مدينة جديدة فى الجزيرة ، ومسجداً يؤدى فيه المسلمون شعائرهم (١) . وهذه الظاهرة الأخيرة تنهض دليلا على حرص معاوية على إبقاء جزيرة قبرص خاضعة للمسلمين ، إذ كان تأسيس المسلمين للمدن فى الجهات الجديدة التى ينزلون بها ، فضلا عن بناء مسجد لهم ، من العلامات الدالة على عزمهم الراسخ على الاستقرار بالمكان الذى نزحوا إليه .

ويعزى تشدد معاوية فى معاملة أهالى قبرص بعد هذه الحملة الثانية إلى رغبته فى وضع حد نهائى لتقلب أهوائهم وتكرار مساعداتهم للبيزنطيين . إذ كان موقف أهل قبرص من الدولة الإسلامية مثار جدل وتشعب فى الآراء بين قادة المسلمين حين نقضوا شروط الصلح السابق ، وغدوا موضع شك من حيث إخلاصهم ، حتى قال أحد المسلمين فى مناقشاته : « ما وفى لنا أهل قبرص قط » (٢) ، وأشار آخر بإنزال أشد العقوبة بهم مستشهداً ببعض السوابق على عهد الرسول ، قائلا « إنه من نقض عهداً فلا ذمة له » (٣) .

وآثر معاوية أن يوفق بين الآراء السابقة باحتلال جزيرة قبرص وتجديد ما فى الصلح السابق من مميزات للدولة الإسلامية ، دون أن يشتط فى معاملة أهالى قبرص أنفسهم ، وليتجنب بذلك ما قد يثار فى نفوسهم من حقد نحو المسلمين . إذ أدرك أن أولى الأمر فى هذه الجزيرة المسئولون وحدهم عن مؤازرة

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

البيزنطيين ، وتشجيع أهاليهم على مناوأة المسلمين . وكان قادة المسلمين يبررون الاستيلاء على الجزيرة بحجة إنقاذ أهاليها من نير البيزنطيين قائلين « أهل قبرص أذلاء مقهورون ، يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم ، فقد يحق علينا أن نغنمهم ونحميهم »[1] .

ولذا جاء احتلال معاوية لجزيرة قبرص حلا لمشكلة اهتم بها المسلمون . وأضاف بهذه الجزيرة رقعة جديدة إلى أرض الأسلام ، كما استطاع بذلك أن يقلم أظافر البيزنطيين ، وجعلهم يدركون ما عليه بحرية المسلمين الناشئة من فتوة وقوة . وغدا إقليم الشام فى مأمن من الأخطار المتكررة التى تهددته من جزيرة قبرص ، وصار المسلمون لا يخشون أى هجوم مفاجئ من البيزنطيين .

الإغارات الإسلامية على الجزر البيزنطية :

كانت الإغارة على قبرص بداية نشاط بحرى إسلامى اتسم بطابع الإغارات سنوياً ، صيفاً وشتاءاً ، على الجزر البيزنطية ، التى يخشى المسلمون خطرها ، أو التى قد ينبعث منها ضرر يحيط بأرض الإسلام . وأثبت المسلمون فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم البحرى فهماً جيداً لطبيعة الجزر البيزنطية فى البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، إذ رأوا ضرورة الاستيلاء عليها لما تتمتع به من مراكز استراتيجية هامة ، ولشل حركات البيزنطيين البحرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . فقد انتشرت هذه الجزر فى الشطر الشرقى من البحر الأبيض المتوسط وقسمته إلى بحار داخلية صغيرة ، تتصل ببعضها البعض عن طريق مضايق وفتحات صغيرة تتحكم فى مداخلها أطراف الجزر . وغدت هذه المضايق أشبه بعنق الزجاجة ، تكفل للمسيطر عليها تمام السيادة على ما يليها من بحار

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ١٦٣ .

داخلية ، وما يطل على هذه البحار من أرض و بلاد[١] . ولذا سارت الإغارات الإسلامية على هذه الجزر وفق خطوات منظمة مرسومة ، تهدف أولا إلى تأمين سلامة البلاد الإسلامية من الجزر القريبة مباشرة من أراضيهم ، ثم الاستيلاء على غيرها من الجزر التى تتحكم فى أكبر عدد من المضايق البحرية لسد الطريق فى وجه الأساطيل البيزنطية . وأظهر أمراء البحار المسلمون فى سبيل تنفيذ هذه الأهــداف من المهارة والجلد ما رفعهم إلى مصاف كبار رجال البحار الذين عرفهم التاريخ .

استرعى نظر المسلمين أثنـــاء إغاراتهم على قبرص وقوع جزيرة تدعى أرواد[٢] بالقرب من ساحل الشام بين مدينة جبلة وطرابلس . ولم يكن معاوية الشخص الذى يتهاون فى ترك أى معقل بيزنطى يهدد سلامة بلاده ، أو يكون شوكة فى جانب دولته . فكانت هــذه الجزيرة تتمتع بشهرة عالية منذ أقدم العصور ، رغم مابدت عليه من ضآلة الشأن فى تلك الفترة الأولى من ظهور المسلمين فى مياه البحر الأبيض المتوسط . فقد لاحظ استرابون[٣] ، الجغرافى القديم ، أن أهل أرواد يحترفون القرصــنة على النقيض من سائر البلاد القريبة منهم ، من أمثال فليقية ، والتى اتخذت لنفسها الطريق القويم فى الاشتغال بالتجارة لتدعيم رخائها الاقتصادى . فــكان أهالى جزيرة أرواد يستغلون ما حبتهم به الطبيعة من مركز جغرافى ممتاز فى ميدان التجارة ، وأبدوا جشعا فى تنمية مواردهم الاقتصادية عن طريق القرصنة المخيف . وهذه الأمور وصمتهم بالغدر وأبعدتهم عن أن يكونوا أهلا للثقة .

---

(1) Semple, op cit, 71.

(٢) تختلف هذه الجزيرة عن جزيرة أرواد التى تقع بالقرب من القسطنطينية ، والتى تعرف باسم كزيكوس (Cyzicus) فى المراجع الأوربية .

(٣) استرابون جغرافى يونانى ، زار مصر سنة ٢٥ ق . م وقام بزيارات عديدة لبلاد الشرق . وعرف بدقة الملاحظة ، والاعتماد على السلطات الرسمية فى البلاد لجمع المعلومات .

وعقد معاوية العزم على التخلص من مخاوفه من تلك الجزيرة بالاستيلاء عليها . وأعد حملة لمهاجمتها سنة ٢٨ هـ ، أى فى العام التالى لعودته من جزيرة قبرص بعد إغارته الأولى عليها . واستطاع المسلمون أن ينزلوا بأرض الجزيرة ، ولكن رفض الأهالى الإذعان لهم والتسليم ، واعتصموا بقلعة الجزيرة رغم وساطة أحد الأساقفة ويدعى تومار يخوس (Thomarichos) ، إذ آثر أن يقوم بدور الوسيط بين المسلمين وأهالى أرواد ، ويبصر سكان هذه الجزيرة بمغبة الإصرار والعناد . وجاءت الأحداث بما تؤيد وجهة نظر تومار يخوس ، إذ عاد المسلمون إلى دمشق مصممين على تأديب أهالى هذه الجزيرة فى العام التالى (1) . وكانت هذه الحملة الإسلامية الأولى قليلة العدد ، واستهدفت أولا عقد معاهدة مع أهالى الجزيرة لتأمين الشام من شرهم ، وضمان عدم مساعدتهم لأعدائهم . ولكن اضطرت الحملة أمام مقاومة الأهالى إلى الرجوع إلى مقرها ، لتعود مره أخرى باستعداد أوفى وأتم .

وفى العام التالى هاجم المسلمون جزيرة أرواد بقوة كبيرة ، وأحرقوا العاصمة وقلعتها ، وألزموا جميع أهاليها بإخلاء الجزيرة تماماً جزاءاً على عنادهم الذى تجلى فى مقاومتهم الشديدة فى المرة السابقة .(2) ولم يكن فى هذا التصرف الذى اتخذه المسلمون شيء من التعسف ، وإنما جاء وليد بعد نظرهم وفهمهم لطبيعة سكان هذه الجزيرة ، ووسائلهم التى اعتمدوا عليها لإنهاك مهاجميهم . فكان أهالى أرواد يتجنبون دائماً الهزائم القاصمة ، ويحتفظون بقوتهم ونشاطهم بالاعتصام بالمياه ، حتى يزول الخطر المحيق بهم . ولذا قضى المسلمون نهائياً على هذه الجزيرة ومنعتها ، وأمنوا ما قد يجيش بنفوس أهاليها من عدوان ، ولا سيما بعد أن كشفوا القناع عن نواياهم فى وضوح وجلاء .

(1) Bury, op cit II,289

(2) Bury, op cit, II, 289.

وهكذا لم يقم المسلمون بجهودهم البحرية عفواً ، أو ارتجلوا خططهم فى الإغارة على الجزر البيزنطية حبا فى تخريبها فقط وتدميرها . فقد سار المسلمون فى أعمالهم البحرية وفق سياسة واضحة المعالم تهدف إلى تأمين دار الإسلام وحماية أى ركن به معرض لخطر بيزنطى قد يأتى من أى معقل بحرى . وكانت آية ذلك استعداد معاوية لمهاجمة جزيرة صقلية ، إذ يبدو أن هذه الجزيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون موضع خطر مباشر على إقليم الشام ، ولكن مجريات الأحداث دلت على أن صقلية غدت قاعدة للقوات البيزنطية المعدة لشن هجوم على مصر ، وشل حركة التعاون البحرى بين المصريين وأهل الشام . فاتخذ الحاكم البيزنطى السابق لمدينة قيصرية ،التى قاومت معاوية مدى طويلا ، مقره فى جزيرة صقلية ، وعول على أن يستعد بها ومعه غيره من البيزنطيين لاعادة الكرة على المسلمين من هذا المعقل البعيد عن حملاتهم البحرية المباشرة . وفضلا عن ذلك كان بمياه صقلية كثير من السفن والأساطيل البيزنطية ، التى ارتدت عن سواحل مصر والشام بعد سقوطهما فى أيدى المسلمين .

وكانت صقلية بموقعها الجغرافى تتحكم فى المداخل الرئيسية الكبرى للبحر الأبيض المتوسط الشرقى ، إذ هى تقسم البحر الأبيض المتوسط عامة إلى قسمين رئيسيين ، تشرف على الاتصال بينهما عن طريق مضيق مسينا ، ومضيق صقلية الواقع بين طرف جزيرة صقلية الجنوبى وشمال إفريقيا [1] . واستمدت جزيرة صقلية بفضل هذا الموقع كل معونة من الولايات البيزنطية الأخرى البعيدة عن متناول المسلمين فى هذه الفترة المبكرة من فتوحاتهم ، وغدت المعقل الذى يمكنه الصمود تماماً أمام الزحف الإسلامى إذا ما تجدد مرة أخرى . ولكن فى هذه الفترة الأولى ، أحست مصر خطر التجمعات البيزنطية بصقلية ، وتكاتفت مع بحرية الشام على عرقلة هذه الاستعدادات البيزنطية القائمة فيها .

---

(1) Semple, op cit, 72.

وقامت من الشام حملة إسلامية سنة ٦٥٢ م ، اتجهت إلى صقلية تعاونها القوات البحرية المصرية . ونزلت الحملة بالشاطىء ومعها المجانيق والعرادات ، وأعملت التدمير فى الحصون الساحلية . ثم اشتبكت القوات الإسلامية مع البيزنطيين فى معركة دامت طول النهار ، وحملتهم على الانسحاب إلى داخل الجزيرة . واتبع المسلمون انتصارهم بالاغارة ليلا على القرى والمدن القريبة من الساحل ، ثم عادوا مظفرين إلى الشام [1] ، بعد أن برهنوا للبيزنطيين أن يد البحرية الإسلامية الناشئة قادرة على أن تبطش بهم فى أى مكان ، وأنها تقف لهم بالمرصاد . وتروى المراجع العربية أن معاوية بن حديج الكندى قاد هذه الأغاره الأولى على جزيرة صقلية ، ثم توالت عليها الاغارات بعد ذلك من شواطىء الشام ومصر أيضاً . واشتهر من أمراء البحار المسلمين الذين أغاروا على صقلية عبد الله بن قيس الدزق ، الذى أخذ من هذه الجزيرة كثيراً من أصنامها الذهبية والفضية [٢] .

وسار أسطول معاوية بعد ذلك من نصر إلى نصر ، جاهداً على توسيع رقعة الإسلام بالاستيلاء على ما يستطيع السيطرة عليه من جزر البيزنطيين . فاتجه الأسطول الإسلامى شطر رودس ، أهم جزر بحر إيجه ، وأعلاها مكانة فى الدولة البيزنطية ، من حيث نشاطها البحرى ، وحركة صناعة السفن بها . فهذه الجزيرة أول حلقة فى سلسلة أرخبيل بحر إيجه من ناحية الشرق ، وتمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى على بعد اثنى عشر ميلا تقريباً من الساحل لآسيا الصغرى [٣] . وأهلها هذا الموقع لأن تكون خطراً جاثماً على أطراف الشام الشمالية المتاخمة للحدود البيزنطية بآسيا الصغرى ، وشوكة مسلطة على إقليم العواصم والثغور الشامية .

(1) Vasiliev, Byzance et les Arabes, 62.

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .

(3) Encyc. of Islam (art Rhodes)

بعث معاوية حملة لفتح رودس سنة ٣٣هـ/٦٥٤ م تحت قيادة جنادة بن أمية الأزدى[١] ، واستطاع هـذا القائد الأموى أن يستولى على الجزيرة عنوة ، وكانت « غيطلة فى البحر . . . . من أخصب الجزائر ، وهى نحو ستين ميلا ، فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة »[٢] وجعلتها هذه المميزات مكاناً صالحاً لإقامة المسلمين به وتأسيس رباطهم به يدافعون منه عن الشام . فأمر معاوية ببناء حصن بالجزيرة ، وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها . وبلغ من اهتمامه بحامية رودس أنه كان يجدد أفرادها دائماً ، ويسحب الذين قضوا بالجزيرة مدى طويلا ليبقى على بأس الحامية وقوتها . وآثر معاوية أن يحيط المسلمين فى رودس بالجو الاسلامى الدينى ، ويعلى راية الاسلام بين سائر أهاليها ، فأرسل إليها فقيها يدعى مجاهد بن جبر يقرىء الناس القرآن[٣] .

وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجه وسد منافذه الرئيسية فى وجه السفن البيزنطية ، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين . وعمل على تحقيق ذلك بالاستيلاء على جزيرة إقريطش (كريت) ، إذ تسيطر هذه الجزيرة تماماً على بحر إيجه ، الذى يشبه طرفه الجنوبى فوهة قربة تمتد جزيرة إقريطش عبرها ، بامتدادها البالغ ١٦٠ ميلا ، وتقسم الجزيرة هذه الفتحة إلى مدخلين تتحكم فى كل منهما[٤] . وأرسل معاوية جناده ، الذى استولى على رودس ، لفتح هذه الجزيرة الهامة ، ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لها لمهاجمة الشام . على أن جنادة لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لضخامتها ، واكتفى بالإغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها[٥] .

---

(1) Lammens, La Syrie, 65.

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

(٣) البلاذرى ، نفس المرجع ، ٢٢٤ .

(4) Semple, op cit, 74.

(٥) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

وهكذا وجه معاوية أنظار المسلمين شطر البحر الأبيض المتوسط ، وأوقفهم على أهمية جزره . فاستولى على ما استطاعت أساطيله أن تفتحه منها ، وطرق باب غيرها ممهدا الطريق لمن يأتى بعده من الخلفاء الأمويين ، وكفل معاوية للمسلمين قوة بحرية نافست البيزنطيين سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط ، ثم أخذ يعبئها لأهم عمل فى تاريخها وهو ضرب عاصمة البيزنطيين أنفسهم والاستيلاء عليها . ولكن تريث معاوية فى تحقيق الهدف الأخير حتى يمكن لنفسه من التفوق البحرى على البيزنطيين .

ذات الصوارى : ٣٤ هـ / ٦٥٥ م

كانت سلسلة الانتصارات البحرية الأولى ، ثم الإغارات البحرية الموفقة التى شنتها الأساطيل الإسلامية على الجزر البيزنطية بالبحر الأبيض المتوسط حافزاً شجع معاوية على توسيع خططه البحرية ، والقيام بمشاريع حربية على نطاق كبير . وسارت هذه الأهداف الجديدة التى عمل معاوية على تحقيقها فى نطاق الفكرة العامة التى كرس نفسه لها منذ ولايته للشام ، وهى تأمين أرض الإسلام وإزالة أى شبح بيزنطى يحتمل أن يهدد هـــذا الأمن . وكانت أولى الخطط الجديدة التى رسمها هى محاولة الاستيلاء على القسطنطينية ، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ، ورأس المقاومة لحركات الفتح والتوسع الإسلامى .

وتعتبر القسطنطينية المحرك الذى أدار شئون الدفاع البحرى عن الجزر البيزنطية وغيرها من البلاد . وأدرك المسلمون ألا استقرار لفتوحاتهم إلا بإدخال هذه العاصمة فى قائمة فتوحاتهم ، كما تم لهم من قبل الاستيلاء على المدائن عاصمة الفرس . ووقف المسلمون على أهمية القسطنطينية من حملاتهم البحرية على جزر بحر إيجة ، حيث صادفهم التوفيق مرة والفشل مرة أخرى . ولكن الفشل لم يكن ليفت فى عضد أولى الأمر فى الدولة الإسلامية ، وإنما زادهم تبصرة بحقيقة

موقفهم ، وتلافى ما يدهمهم من نقص . فكانت القسطنطينية الرأس المدبر لتنظيم البحرى للدولة البيزنطية وجزرها فى البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، ولا سيما السواحل الواقعة حول بحر إيجه الغنى بجزره الممتدة إلى مياه القسطنطينية المحاية .

واقسمت الإدارة البيزنطية البحرية إلى قسمين لكل منهما اختصاصاته ، ومظاهر تعاونه كذلك مع بعضهما البعض ، بما يكفل صد أى عدوان يقع على أراضى الدولة البيزنطية . فكان هناك نوعان من الأساطيل التابعة للادارة البحرية البيزنطية ، الأولى أساطيل تابعة للأقاليم والمقاطعات التى تنتظمها الدولة البيزنطية والثانية أساطيل خاصة بالعاصمة نفسها . وكانت الأولى موزعة بحيث تقاوم قدر طاقتها أية إغارة مفاجئة على أرض المقاطعات التابعة لها أو عرقلة أية حملة كبرى معادية قاصدة العاصمة حتى تأتى النجدات من أسطول القسطنطينية نفسها . وكانت جزر بحر إيجه وساحل آسيا الصغرى الغربى العمود الفقرى فى نظام أساطيل الولايات . إذ اشتملت جزر بحر إيجه على قواعد كبرى لأسطول الولايات ، على حين اختص ساحل آسيا الصغرى الغربى بشطر قائم بذاته من الأسطول العام للولايات [1] . وهذه الأساطيل هى التى شدت أزر البيزنطيين فى مقاومة حملات الفتح الإسلامى الأولى فى شمال الشام ، والتى عرقلت بعض مجهودات معاوية فى إغاراته البحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط .

وكان التعاون بين الأسطولين البيزنطيين إبان إغارات معاوية البحرية غير وثيق ، لفساد الأحوال فى العاصمة البيزنطية ، وامتلائها بالمؤامرات والدسائس ولكن ما كاد الامبراطور قنسطانز الثانى ينفرد بالعرش ويبلغ سن الرشد ، حتى عمد إلى مقاومة نشاط معاوية البحرى ، إذ أن تقدم المسلمين المضطرد فى جزر بحر إيجه ، واستيلائهم على قبرص ورودس مزق شمل النظام البحرى البيزنطى ، على حين كادت الإغارات الإسلامية البحرية أن تشد الخناق على العاصمة نفسها

---

(1) Bnry, op cit II, 341 - 343

وتفصلها نهائياً عما تبقى لها من أملاك فى البحر الابيض المتوسط . ومن ثم أقبل قنسطانز على بث روح الحياة والنشاط فى أسطول العاصمة لشد أزر أساطيل الولايات ، واستعدادا لمناهضة حركات معاوية المقبلة .

وصدقت مخاوف الامبراطور قنسطانزمن احتمال اتساع دائرة النشاط البحرى الإسلامى ، إذ ترامت إليه فى سنة ٦٥٥م أنباء استعدادات بحرية هائلة، وأخرى برية يعدها معاوية ليضرب عاصمة البيزنطيين الضربة الأخيرة ، ويزيل عنادها فى مقاومة المسلمين . فجهد قنسطانز على أن يتلافى هـذا الخطر المقبل على عاصمته قبل اقترابه منها ، وعول على الخروج قاصدا الشام ليدمر الأساطيل الإسلامية قبل ابحارها من قواعدها . وفى الفترة التى أسرع فيها قنسطانز باعداد سفنه الحربية ، نشط وكلاء الدولة البيزنطية بالشام لعرقلة الاستعدادات الإسلامية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وكان معاوية قد حشد معداته الحربية فى مدينة طرابلس استعداداً لقيام الحملة البحرية ، على حين عبأ القوات البرية بدمشق للسير عبر آسيا الصغرى . ولكن شخصين مسيحيين من مدينة طرابلس أسرعا إلى سجن المدينة ، وكان به عدد كبير من الأسرى البيزنطيين ، وفتحا أبوابه وأطلقا سراحهم . ثم تابعا عملهم بدفع الأسرى إلى مهاجمة دار الحاكم الإسلامى بالمدينة وقتله هو وأتباعه ، ثم أحرقوا العدد والعتاد التى بذل معاوية فى جمعها كثيراً من الجهود والعناء ، وهربوا جميعاً إلى القسطنطينية (١) .

وإذا كان وكلاء الدولة البيزنطية قد نجحوا فى تنفيذ خططهم داخل أرض الإسلام ، فإن معاوية أعد من آلات الحرب ما فاق العتاد الذى دمر ، وأتم سائر استعداداته بسرعة . وتمخضت الحادثة السالفة عن إلهاب الحماسة بين المسلمين وحفزتهم على أخذ الحذر من عدوهم العنيد . وسار معاوية على رأس قواته البرية سنة ٦٥٥م إلى مدينة قيصرية فى قبادوقيا بآسيا الصغرى ،على حين وصلت سفن

---

(1) Bury, op cit II, 290; Finlay, History of Greece I, 377.

حربية من مصر إلى سواحـــل الشام وانضمت إلى أساطيلها الزاحفة صوب القسطنطينية . على أن الأسطول الإسلامى ألقى مرساه بالقرب من ساحل ليكيا (عند فوينكس Phoenix)[1] ، حيث بلغه هناك نبأ اقتراب أسطول بيزنطى على رأسه الامبراطور نفسه يهدف ضد تقدمهم .

ودلت استعدادات الأسطول البيزنطى على أن قنسطانز صمم على وضع حد لاتساع الفتوحات الإسلامية وكسر شوكتهم نهائياً ، على حين دلت المجهودات التى بذلها معاوية فى إعداد أساطيله على صدق عزيمة المسلمين فى الجهاد والزود عن أرض الإسلام ، وإظهار التعاون الوثيق بين قوات مصر والشام البحرية فى هذه المرحلة المبكرة من دخولها فى حظيرة الإسلام . فقد خرج على رأس أساطيل مصر واليها نفسه عبد الله بن أبى سرح ، الذى خلد له التاريخ اشتراكه فى معركة من أعظم المعارك البحرية الفاصلة فى تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، وصد أكبر خطر بيزنطى كاد يدهم المسلمين وأرضهم . ذلك أن قنسطانز « خرج فى جمع لم يجتمع للروم مثله منذ كان الإسلام[2] » فكان أسطوله يتألف من خمسمائة سفينة مزودة بآلات الحرب ، راع منظرها المسلمين ، ولاسيما الذين سبق لهم أن اشتبكوا مع البيزنطيين فى معارك بحرية . ووصف أحد المشتركين فى الحملة البحرية الإسلامية شعوره حين تقابلت الأساطيل الإسلامية مع سفن البيزنطيين قائلا : « فالتقينا فى البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط »[3] .

وكانت الرياح غير ملائمة حين التقى الجمعان فى البحر ، فقضى المسلمون والبيزنطيون ليلتهما انتظاراً لما يسفر عنه الصباح ، وأخذا يستعدان فيها ، ويعملان على تقوية روحهما المعنوية . فبات المسلمون ليلتهم يصلون ويدعون الله ، على

---

(1) Bury, op cit II, 290.

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

حين قضى البيزنطيون ليلتهم يضربون بالنواقيس (١) . وفى صبيحة اليوم التالى دارت المعركة ، واشترك فيها الامبراطور قنسطانز نفسه ، إذ أخذ يصدر من سفينته تعليمات لقتال المسلمين ، ويتابع منها الأنباء بانتظام عن سير المعركة .

وبدأ المسلمون القتال باستخدام الأقواس والسهام ، فأدرك قنسطانز تفوق جنده عليهم ، لأن المسلمين يجيدون هذا السلاح فى الحروب البرية فقط ، وأن ذخيرتهم سوف تنفد سريعاً . وتحقق ما رآه قنسطانز ، إذ اضطر المسلمون إلى استبدال الأقواس والرماح بالحجارة وقذف العدو بها . فأيقن قنسطانز أيضاً أن الفوز حليف أساطيله . ولكن لما رأى المسلمون نفاد ذخيرتهم من الحجارة كذلك وأن العدو ما زال بعيداً عن متناولهم ، وأنه يراوغ ويماطل لأنهاك قواهم ، ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض ، وقذفوا خطاطيف فى البحر ، جذبوا بها سفن البيزنطيين إليهم . ثم اتخذوا من ظهور السفن جميعاً ميادين للقتال . وحين وصلت أنباء هذه الخطة الجديدة إلى الامبراطور قنسطانز أدرك فشل حملته ، وأن الهزيمة لا شك محيقة بجنده (٢) .

وتحقق استنتاج قنسطانز ، إذ وثب المسلمون على البيزنطيين بالسيوف والخناجر ، وأعملوا فيهم التقتيل . واشتد الصراع وكثر القتلى . حتى وصف شاهد عيان هذه الحالة قائلا « رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما (٣) . » وأبدى الفريقان المتحاربان من صنوف التفانى فى الواجب ومن ضروب الشجاعة ما سجلته المراجع الإسلامية والبيزنطية . فكان لشجاعة المسلمين أثر عظيم فى إحراز النصر ، على حين استمات البيزنطيون فى الدفاع عن أنفسهم . وتجلى ذلك حين عمد الامبراطور قنسطانز إلى نشر الفوضى فى صفوف

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ، ١٦٠ ؛ Kremer, op cit, 357

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

المسلمين ، بعد أن صارت يدهم هي العليا فى المعركة ، وأن كفتهم أخذت ترجح على البيزنطيين . إذ قذف جنده خطافا علق بسفينة أمير البحر الإسلامى عبد الله ابن أبي سرح ، وأخذوا يجذبون المركب الإسلامى إليهم . واستهدف البيزنطيون من ذلك الإطاحة بالرأس المدبرة لعمليات قتال المسلمين . وكاد البيزنطيون ينجحون فى أسر مركب القيادة الإسلامية لولا شجاعة أحد الجند المسلمين ويدعى علقمه . إذ رمى هذا الجندى نفسه على السلاسل التى جذبت المركب الإسلامى ، وأخذ يعمل فيها القطع رغم ما تعرض له من ضربات العدو . وكلل عمل علقمة بالنجاح ، إذ قطع السلسلة وأنقذ السفينة الإسلامية من الوقوع فى الأسر . ونال هذا الجندى ثناء زوجة أمير البحر التى تسمى بثينة ، إذ كانت على ظهر السفينة أثناء القتال ، واستطاع أن يظفر بزواجها فيما بعد ، حين توفى زوجها[1] .

وأظهر البيزنطيون أيضاً تفانياً فى الدفاع عن سفينة الامبراطور حين هاجمها المسلمون . إذ أعمل المسلمون القتل فى جندها ، وكادوا يظفرون برأس الامبراطور نفسه ، لولا أنه تنكر باستبدال زيه مع ملابس ابن أحد ضاربى الطبول على السفينة ، وهرب من المعركة على ظهر مركب آخر اتجه به إلى صقلية[2] . و بفرار الامبراطور قضى المسلمون على هذه الأرمادا البيزنطية ، وخرجوا ظافرين من معركة حامية الوطيس . ولا يعرف ما قام به معاوية فى آسيا الصغرى فى تلك الفترة التى دارت فيها المعركة البحرية ، ولكن يبدو أنه هدف إلى قطع الاتصال بين جند البيزنطيين فى آسيا الصغرى وأساطيلهم البحرية ، إذ كانت الدولة البيزنطية تعتمد فى ذلك الوقت اعتماداً كلياً فى تعبئة قواتها والحصول على النجدات من فيالق جيشها ورعاياها بآسيا الصغرى .

وتعتبر هذه الوقعة البحرية من المعارك الحاسمة القلائل التى غيرت مجرى تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، إذ تقف وقعة ذات الصوارى على قدم المساواة

(1) Kremer, op cit II, 358.
(2) Bury, op cit II,290,291.

مع معركة أكتيوم (سنة ٣١ ق . م)[١] فى التاريخ البحرى القديم لهذا البحر ، ومعركة النيل (أو أبى قير البحرية سنة ١٧٩٨ م)[٢] فى العصر الحديث . فكما أن معركة أكتيوم جعلت البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية حتى آل إلى الامبراطورية البيزنطية ، وكما أن معركة النيل رسمت الخريطة السياسية التى نراها فى عصرنا الحاضر للبحر الأبيض المتوسط ، فإن معركة ذات الصوارى قضت على اتصاف البحر الأبيض المتوسط بأنه « بحر الروم » وجعلته حريا أن يدعى « بحر المسلمين »[٣] . فقد انطلقت فيه السفن الإسلامية فى حرية تذهب حيثما تريد ، رافعة علم الإسلام .

وتجلت أولى النتائج الهامة التى ترتبت على هذه المعركة الفاصلة عندما تخلى الامبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة عن فكرة طرد المسلمين من البلاد التى استولوا عليها فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، واستعادة ما كان لهم من سالف النفوذ والسلطان هناك . إذ أدرك أولئك الأباطرة أن هذه الفكرة ضرب من الأحلام التى فات أوانها ، وأن قدم المسلمين رسخت نهائياً على شاطئ

---

(١) أكتيوم اسم قديم لإحدى الرؤوس الأرضية الممتدة من شمال اليونان فى البحر . واشتهرت هذه البقعة لأنه دار بالقرب من مياهها رحى معركة بحرية هامة سنة ٣١ قبل الميلاد بين أساطيل البطالمة حكام مصر ، والقائد الرومانى أوكتافيوس . وكانت أهمية هذه المعركة ترجع إلى أنها جلبت النصر للرومان ، وقضت على البطالمة الذين كانوا آخر قوة تنافس الرومان على سيادة البحر الأبيض المتوسط . إذ تلا هذه المعركة سقوط مصر فى أيدى الرومان وأصبح البحر الأبيض المتوسط تابعاً كله لهم . وآلت سيادة هذا البحر الى الإمبراطورية البيزنطية عندما ورثت ما تبقى للدولة الرومانية من بلاد على هذا البحر .

(٢) معركة النيل حدثت سنة ١٧٩٨ م ، عندما فاجأ نلسون أمير البحر البريطانى أسطول نابليون فى مياه أبى قير البحرية وحطمه . وكان لهذه الحادثة أثر كبير فى مصائر الشرق والبحر الأبيض المتوسط ، إذا آذنت بفشل حملة نابليون على مصر وفتحت باب النفوذ البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط .

(٣) أصبحت الأساطيل الاسلامية تبدأ بالهجوم ، وتدفع أمامها سفن البيزنطيين،ومهدت الطريق لعظمة المسلمين البحرية فيما بعد على بلاد البحر الأبيض المتوسط . وقد أشاد ابن خلدون بنشاط الأمويين البحرى وما أفادته الدولة الاسلامية فيمابعد من جهادهم وإغاراتهم على أعدائهم ، حتى أن « أساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت فى طرقه سلما وحرباً،فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح » .

البحر الأبيض المتوسط الشرقى . فجنحوا إلى الاعتراف بالأمر الواقع ، وادخار جهودهم وقوتهم إلى وقت قد يحتاجون فيه للدفاع عن دولتهم وحمايتها من التردى نهائياً فى أيدى المسلمين .

ويضيف إلى أهمية هذا التغيير الجديد الذى طرأ على سياسة الدولة البيزنطية تجاه المسلمين بعد معركة « ذات الصوارى » أن الدولة الإسلامية نفسها دخلت بعد هذا الانتصار مباشرة فى دور من القلق والنزاع بسبب مقتل عثمان . ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى نشوب حرب أهلية بين على ومعاوية ، وانقسام العالم الإسلامى نتيجة هذا الصراع إلى قسمين متناضلين . فكانت هذه الاضطرابات فرصة سانحة يستطيع البيزنطيون أن يوقعوا فيها أشد الأضرار بالمسلمين لو أنهم لم يتخلوا تماماً عن فكرة استعادة أملاكهم فى البحر الأبيض المتوسط من أيدى المسلمين . وقد كانت التخوم الإسلامية خلواً من الرباط المدافع عنها لأن معاوية سحب معظم قواته منها لتشد أزره فى حربه مع على بن أبى طالب .

وهكذا لم يتعرض معاوية بعد هذا النصر المبين فى وقعة « ذات الصوارى » لخطر البيزنطيين . إذ رأت الدولة البيزنطية أن الأجدى بها هو تصفية علاقاتها مع العناصر الضاربة على حدودها الشمالية ، والاكتفاء بتأمين أراضيها فى الجبهة الجنوبية من آسيا الصغرى لدرء ما قد يقوم به المسلمون من نشاط حربى جديد . فاتجه الامبراطور قنسطانز إلى تأديب عناصر السلاف بالبلقان ، وكانت قد جددت نشاطها ضد البيزنطيين وأراضيهم أثناء انشغالهم بالحروب مع المسلمين . ثم ذهب الامبراطور بعد أن فرغ من هذه المشكلة السلافية إلى صقلية ليقوى جبهة دولته الغربية ضد أى زحف إسلامى قد يبدأ من مصر .

على أن معاوية لم يكتف بدوره بهذا النصر ، ولم يقنع بأنه غدا أول شخص فتح للمسلمين صفحة رائعة فى تاريخ البحر الأبيض المتوسط . إذ اتجه إلى حدود الشام الشمالية ، وعمد إلى تحصينها ليقيها من أخطار البيزنطيين . وأصبحت الخطة

التى رسمها لهذه المنطقة من الشام النموذج الذى احتذاه العباسيون فيما بعد لدفع الخطر البيزنطى عن تخومهم المجاورة لآسيا الصغرى .

مناطق التخوم (العواصم والثغور) :

ارتبط بنشاط معاوية البحرى ، وتحصين المدن الساحلية بالشام ، القيام بمجهودات أخرى لحماية أطراف الشام الشمالية من إغارات البيزنطيين . وكانت الفتوحات الإسلامية الأولى للشام فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب قد وصلت إلى أنطاكية وحلب ، اللتين دخلتا فى حظيرة المسلمين ، وتبعتهما مدينة قنسرين التى قاومت المسلمين الفاتحين بعض الوقت . وكان أبو عبيدة بن الجراح القائد العام للجيوش الإسلامية بالشام هو الذى يدير عمليات فتح هذه المدن ، ولا سيما أن البيزنطيين كانوا يؤلبون القبائل العربية الضاربة فى أطراف هذه المدن ، ويمدونها بالمساعدات الحربية[1] . ولكن ما أن انهزم البيزنطيون وعادوا إلى آسيا الصغرى ، حتى دخلت المنطقة الشمالية من الشام فى حظيرة المسلمين . وقد وضع لها نظام جديد يتفق مع متاخمتها لحدود آسيا الصغرى البيزنطية . إذ وقف المسلمون عند السفوح الجنوبية الشرقية لجبال طوروس ، على حين تحصن البيزنطيون خلف هذه السلسلة الجبلية فى آسيا الصغرى .

أدى هذا الموقف إلى تخوف المسلمين والبيزنطيين من بعضهما البعض ، ودفعهما إلى تحويل المنطقة التى تفصل بين ممتلكاتهما إلى خراب موحش لا يشجع أحداً على ارتياده . فنقل كل منهما سكان تخومهما إلى داخل البلاد ، وترك حصونهما مقفرة ، ومنازلها خالية من العمران[2] . وكان البيزنطيون أشد اهتماماً من المسلمين بتخريب منطقتهم الواقعة شمال حلب وأنطاكية ، ليوقفوا

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٥٥ .

(٢) Kremer, op cit , 847 ;
Htti , History of Syria. , 447.

حركة الزحف الإسلامى فيما وراءهما . فنقل هرقل كثيراً من سكان أنطاكية معه حين ودع سوريا عائداً إلى عاصمته ، كما خرب معظم الحصون البيزنطية التى كانت فيما بين الأسكندرونة وطرسوس . فلم يجد المسلمون فى إغاراتهم على هذه المنطقة أى أثر للبيزنطيين أو لمقاومتهم (١) . وأدى ذلك فى مبدأ الأمر إلى إثارة مخاوف المسلمين ، فجهدوا على معرفة أحوال البيزنطيين ، وما يخفونه من أهداف وأعمال . فاشترط أبو عبيدة على أهالى بعض هذه الجهات الشامية القريبة من الحدود البيزنطية أن يبذلوا جهدهم لمعرفة أخبار البيزنطيين ، وتزويد المسلمين بها مقابل تركهم أحراراً فى شئونهم الخاصة .

ويعزى اهتمام المسلمين بتقصى أحوال البيزنطيين وحركاتهم إلى ما لاقوه من متاعب وكوارث فى بعض حملاتهم الأولى ، التى قاموا بها عبر هذه الجهات الجبلية التى تفصل شمال الشام عن آسيا الصغرى . إذ كان على المسلمين اجتياز بعض الدروب الجبلية فى جبال طوروس لمهاجمة البيزنطيين؛ وأهمها ممران مشهوران الأول يعرف بالأبواب القيليقية التى تتحكم فيها مدينة طرسوس ، والثانى يسمى درب الحدث ويقع إلى الشمال الشرقى من الممر السابق . ولقى المسلمون متاعب جمة فى اجتياز هذه الممرات ، إذ دأب البيزنطيون على الاختفاء لهم فى كائن أعدوها لهم فى هذه الجهات الخربة ، ثم ينقضون عليهم عند عودتهم وينزلون ضربات شديدة بمؤخرة جيوشهم التى قد تخطىء فى طريق عودتها . ولذا كان الممر الثانى من المناطق التى حاق بالمسلمين فيها كثير من الهزائم ، حتى سموه درب الحدث تطيراً من أحداثه السيئة (٢) .

ولم يلبث المسلمون أن عملوا على تلافى هذه الأخطار بترك حاميات عند

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣) Le Strange , The Lands of the Eastern Caliphate, 128

الثغرات الجبلية التى ينفذون منها لمهاجمة البيزنطيين ، ثم تطور الأمر إلى اهتمامهم بتحصين المدن التى تتحكم فى هذه الممرات . وكان أمام المسلمين سلسلة طويلة من الحصون المخربة التى دمرها البيزنطيون أثناء تقهقرهم ، على حين ظلت بعض معاقل أخرى خاضعة لهم ، وانتشرت هذه السلسلة من الحصون فى المنطقة التى عرفت فيما بعد على عهد الخليفة الرشيد باسم العواصم ، وامتدت من طرسوس إلى سميساط على نهر الفرات[١] . وتمتعت جميعها بمراكز استراتيجية هامة فى المنطقة الجبلية على الحدود بين المسلمين والبيزنطيين ، إذ سيطرت على مفارق الطرق الحربيـة المارة بها ، أو مداخل الممرات الجبلية الطبيعية[٢] الواقعة فى دائرتها .

ورأى معاوية ، بعد أن انفرد بإقليم الشام ، ضرورة العناية بهذه المعاقل والتخلى عن سياسة تخريبها وترك منطقتها فلاة موحشة . فاهتم أولا بمدينة أنطاكية التى كانت معرضة دائماً للاغارات البيزنطية المفاجئة ، واتبع فى تعميرها السياسة التى سار عليها إزاء المدن الساحلية بالشام ، إذ أغرى الناس على الإقامة بأنطاكية بأن منحهم إقطاعات من الأرض ، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم ، ثم نقل إلى المدينة جماعة من أهل بعلبك وحمص لنشر العمران فيها[٣] . وأخذ معاوية يوالى تدريجياً تعمير المدن الواقعة بين الإسكندرونة وطرسوس أثناء إغارته على أراضى البيزنطيين ، حتى أصبحت حدود الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس ، الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى . ففى سنة ٢٥ هـ/٦٤٥ م عندما قام بغزوة على

(١) يطلق اسم العواصم والثغور عامة على الحصون التى أقامها هارون الرشيد فى نفس المنطقة التى حصنها الأمويون ، لمواجهة البيزنطيين فى جنوب آسيا الصغرى . فقد فصل الرشيد أرض قنسرين والتى تضم حلب ومنبج وأنطاكية غربا إلى الساحل وجعلهـا إقليما جديداً يشمل سائر الحصون . واهتم كذلك بسائر الحصون الأخرى ، وكان ذلك سنة ١٧١ هـ .

(٢) Cheira , Arabes et Byzantins , 109.

(٣) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٥٤ .

عمورية بآسيا الصغرى ، شاهد الحصون ما بين أنطاكية وطرسوس وخلوها من السكان ، فأقام بها جنداً إسلامياً لتأمين ظهره أولا ، ثم بدأ تعميرها بعد عودته ، وعمد إلى الاستفادة منها فى الدفاع عن الشام (١) .

وعرفت سلسلة الحصون فى الجهات الإسلامية الملاصقة للدروب والثغرات التى ينفذ منها البيزنطيون من جبال طوروس لمهاجمة شمال الشام باسم « الثغور » على حين أطلق اسم « العواصم » على سلسلة الحصون الخلفية لمنطقة الثغور . ولم تلبث منطقة العواصم والثغور أن اتسعت باتساع سلطان معاوية ، عندما ضم إليه الخليفة عثمان شمال الجزيرة وعهد إليه بالدفاع عنها أيضاً ضد البيزنطيين . إذ كان إقليم الجزيرة وشمال الشام وحدة تتمم بعضها بعضاً من حيث ارتباط حصونهما ، وتعرضهما كذلك لإغارات البيزنطيين . واتبع معاوية فى تلك الجهات نفس الطريقة التى سار عليها فى الشام . فأقام القبائل العربية الضاربة فى شمال العراق فى جهات بعيدة عن المدن المعرضة للغزو البيزنطى ، ثم حصن هذه المدن بسلسلة من الحصون أشبه بالعواصم والثغور الشامية ، وخصص لها حاميات دائمة للدفاع عنها من الجند النظامى للدولة (٢) .

وتابع معاوية أعماله فى تلك السبيل باستكمال سيطرته على المعاقل الأخرى الهامة الواقعة فى منطقة التخوم الإسلامية البيزنطية . فاستولى قائده حبيب بن مسلمة الفهرى على مدينة سميساط (٣) ، ومنها سار إلى ملطية وفتحها . ووضع معاوية فى هذه المدينة الأخيرة رباطاً قوياً ، ونقل إليها جماعة من خيرة رجال الشام والجزيرة ، وأصبحت قاعدة للاغارات الإسلامية على أرض البيزنطيين (٤) .
ثم جدد معاوية الحصون الأخرى التى خربها البيزنطيون ، فبنى مدينة مرعش ،

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .
(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٨٦ .
(٣) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٢ .
(٤) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

وأعاد ترميم حصن الحدث الذى يسيطر على الممر المعروف بهذا الإسم ، والذى لقى المسلمون عنده من قبل الكثير من الهزائم ، بسبب إغارات البيزنطيين المفاجئة . وأتم معاوية نشاطه بالإستيلاء على حصن زبطرة البيزنطى وإعادة تحصينه [١] .

وكان قادة جيوش المسلمين يحرصون فى غزواتهم على الاهتمام بمناطق التخوم الإسلامية على نحو ما فعل معاوية . فجهدوا فى تعميرها وتشجيع الناس على المجيء إليها ، إذ أقاموا فى بعض جهات بالقرب منها طلباً للراحة بعد عودتهم من إحدى الإغارات ، وللترفيه عن جندهم ، حتى ظهرت فى الأماكن التى عسكر فيها جند المسلمين مدن جديدة هامة . ومن القادة الذين كان لهم فضل الاهتمام بهذه الجهات مالك بن عبد الله الخثعمى ، إذ أقام بعد عودته من إحدى الإغارات على أرض البيزنطيين فى مكان يدعى « الرهوة » على بعد خمسة عشر ميلا من درب الحدث . وقضى بهذا المكان ثلاثة أيام وزع فيها الغنائم التى حصل عليها على الجند ، فعمر سوق هذه البقعة بحركة البيع والشراء ، وعرفت من بعده باسم رهوة مالك [٢] .

وكان من نتائج تحصين هذه الجهات أن انقسمت الحدود الإسلامية إلى قسمين ، إقليم العواصم والثغور الشامية للدفاع عن إقليم الشام ، وللاغارة على أرض البيزنطيين بآسيا الصغرى ، وإقليم العواصم والثغور الجزرية للدفاع عن شمال العراق ، وللحملات التى تقوم منه على أرض الدولة البيزنطية . وشجعت سلسلة الحصون على قيام إغارات دائمة منظمة أعدها معاوية لتخريب أراضى البيزنطيين . وعرف النظام الذى سار عليه معاوية « بالصوائف والشواتى » ، حيث كانت الأغارات الإسلامية تقوم صيفاً وشتاء ، وتتوغل فى بلاد البيزنطيين ،

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ؛
ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

وتعود إلى قواعدها مرة أخرى بعد أن تنتهى من مهمتها . وقد استهدف معاوية كذلك من هذا النظام فى تلك الفترة المبكرة إيجاد ميدان يتدرب فيه الجند الإسلامى على أساليب القتال وإعدادهم للقيام بمشاريع الفتوحات الكبرى فيما بعد (١) .

وقاد معاوية بنفسه كثيراً من هذه الصوائف ، وهدف من ورائها إلى استطلاع أحوال المناطق التى يمر بها بنفسه . وكانت أشهر الحملات الاستطلاعية تلك التى قام بها فى عام ٢٥ هـ/٦٤٥م حيث أغار على عمورية ، واقترب من البسفور الذى تطل عليه القسطنطينية . وهكذا لم تخل إغارات المسلمين على بقاع آسيا الصغرى من فائدة ، إذ استطاعوا دراسة الطرق التى توجد فى هذه البلاد ، ولاسيما الطريق المؤدى إلى القسطنطينية ، حلم معاوية ومطمح أنظاره . واهتم معاوية ببعض حصون إسلامية أخرى أعد فيها جانباً من الصوائف تولاها بنفسه . فخرج فى سنة ٣١ هـ/ ٦٥٢ م من ناحية المصيصة وأغار على البيزنطيين ، كما ذهب إلى ملطية بعد أن استولى عليها حبيب بن مسلمة واتخذها قاعدة لإحدى إغاراته. سالكا الطريق الهام الذى تتحكم فيه والمؤدى إلى أرض البيزنطيين (٢) .

وأدرك معاوية من تجاربه فى ميدان الصوائف والشواتى ضرورة انتقاء قادة ممتازين يتولون إدارة عملياتها الحربية ، إذ تتطلب هذه الإغارات مهارة وحذقاً وسرعة بديهة من القادة ، وإلا تعرضت الحملة كلية للفناء ، لما عرف عن البيزنطيين من الدهاء والبراعة فى إقامة الكمائن بالممرات التى يجتازها المسلمون ، ومفاجأتهم بالعدوان حين تتاح لهم الفرص . فكان معاوية يستدعى الأشخاص الاكفاء المشهود لهم بالمهارة ويجرى لهم نوعا من الاختبار الشخصى يقف منه على مدى مواهبهم وتجاربهم ، ثم ينتقى من بينهم أحدهم لقيادة الحملة المعدة وفق أهميتها وخطورتها (٣) . وكان يرسم للقائد الذى يقع عليه الاختيار الخطة التى يتبعها فى

(١) Hitti , op cit , 443.

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٧١ ، ١٩٣ .

(٣) العقد الفريد ، ص ١٥٦ .

إغاراته سواء من حيث تخريب الحصون أو تعميرها . إذ أمر أحد القادة الذى أوفده فى إغارة على أرض البيزنطيين ، ويدعى يزيد بن الحر العبسى ، سنة ٢٧هـ/٦٤٨م بتخريب ما يلاقيه من حصون العدو وإقامة الحراس على المنافذ التى يمر منها إلى ما بعد عودته من غزوته(١) .

وأضحى ميدان الصوائف والشواتى مجالا يبدى فيه قادة المسلمين مواهبهم ويتدربون فيه على أساليب القتال . وعلا صيت كثير من القـــادة المسلمين لما أبدوه من شجاعة فى هذه الإغارات حتى أغدقت عليهم ألقاب التكريم اعترافا بجهودهم ونشاطهم ، فأطلق على مالك بن عبد الله الخثعمى وهو رجل من أهل فلسطين اسم « مالك الصوائف »(٢) لعلو كعبه فى الميدان الحربى بآسيا الصغرى . وأثبت معاوية بذلك أن لديه شيعة وأنصاراً قادرين على تنفيذ مشاريعه فى حماية أرض الإسلام .

وتجلى انتظام الصوائف والشواتى على أراضى الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى بعد أن غدا معاوية خليفة المسلمين ، وانتهى من مشاكله الداخلية . إذ تسجل الحوليات الإسلامية نشاط جند معاوية فى الأغارة على آسيا الصغرى التى تذكرها المراجع العربية باسم « بلاد الروم » ، والتى أطلق عليها البيزنطيون أيضاً اسما أشبه بالاسم العربى « Romania » . وظهر فى هـذه الجهة خلال تلك المرحلة من خلافة معاوية القائد عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . إذ أغار على آسيـا الصغرى سنة ٦٦٣م ، وأخذ كثيراً من الأسرى وخرب بعض الحصون البيزنطية . وفى السنة التالية (٦٦٤ م) ، أعاد الإغارة على آسيا الصغرى ، وأمضى فصل الشتاء بها . وتمتاز هذه الاغارة الثانية بانضمام جماعة من السلاف التى عبرت الدردنيل إلى جيش عبد الرحمن ، حيث فضلت إعلان تبعيتها للخليفة

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٩ .

المسلم عن الدخول فى طاعة امبراطور البيزنطيين . وهذه الحركات التى قام بها السلاف ، وتعضيدهم للمسلمين فى إغاراتهم على آسيا الصغرى تفسر مدى اهتمام أباطرة الدولة البيزنطية بانهاء حركات السلاف و إخمادها ببلاد البلقان ، و إعادتهم للتبعية لهم ، ومنع أى اتصال يقوم بينهم و بين المسلمين .

وعاد عبد الرحمن من هذه الإغارة ومعه خمسة آلاف من السلاف أسكنهم معاوية فى شمال الشام [١] . وقد توفى هذا القائد المسلم حالما دخل حمص ، بعد أن خلف اسمه فى سجل المجاهدين عن حياض الدولة الإسلامية و إعلاء راية المسلمين ضد البيزنطيين ، كما نال أبوه من قبل النصر المظفر ضد البيزنطيين فى ميدان فتوح الشام .

وتكاد تكون السنوات التى تلت إغارات عبد الرحمن على آسيا الصغرى حتى وفاة الخليفة معاوية سلسلة متصلة من الصوائف والشواتى اضطلع بها القادة المسلمون . وقد قضى بعضهم الشتاء بآسيا الصغرى متحملا بردها القارص [٢] فى سبيل تحقيق أهداف الدولة الإسلامية [٣] . وكانت أحداث هذه الإغارات تجرى وفق نظم مقررة تكفل للجند الإسلامى الأمن والسلامة . فروى أحد المجاهدين المسلمين على عهد معاوية أن أهل الشام كانوا يتخذون استعدادات وافية عندما يقومون بالصوائف والشواتى . فإذا نزلوا بأرض البيزنطيين ، قسموا أنفسهم أجناداً للحراسة والدفاع والاغارة ، وكفلوا وسائل الاتصال بين الأجناد بعضها

---

(١) Bury, op cit II, 307.

(٢) أظهر المسلمون شجاعة نادرة فى تحمل التضحيات التى تنزل بهم فى ميدان الصوائف . فمن ذلك أن سيدا من كبار شخصيات الكوفة يدعى عبد العزيز بن زرارة خرج مع يزيد ابن معاوية فى إحدى الصوائف . وقد لقى هذا الرجل حتفه فى الإغارة الاسلامية ، وكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك الخبر . فبعث معاوية إلى زرارة وقال له « أتانى اليوم نعى سيد شباب العرب ؟ فقال زرارة : يا أمير المومنين ، هو ابنى أو ابنك ؟ قال : بل ابنك ، قال للموت ما تلد الوالدة » . انظر العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢١ ، ١٢٨ .

بعضا ، كما أعدوا أماكن للخيل محصنة لدرء الاغارات المفاجئة التى قد يشنها العدو [١] .

وترك لنا أحد المؤرخين المسلمين المتأخرين وصفا لنظام الصوائف والشواتى على أرض الدولة البيزنطية . فذكر أن المسلمين قاموا بإغارات فى فصل الربيع والصيف تسمى بالصوائف ، وأخرى فى الشتاء تسمى بالشواتى . وكان غزو الربيع يبدأ من منتصف مايو حين تكون الخيول قد سمنت وقويت من رعيها فى كلأ الربيع ومراعيه ، ويستمر الغزو ثلاثين يوما ، أى إلى منتصف الشهر التالى . وفى هذه الاغارات تجد الخيول غذاء وفيراً فى مراعى البيزنطيين التى تمر بها . ثم يجنح المسلمون إلى السكينة ، ويريحون خيولهم من منتصف يونيو إلى منتصف يوليو حيث تبدأ إغارات الصيف ، وكانت هذه الحملات تستغرق ستين يوما . أما إغارات الشتاء فلم يقدم المسلمون عليها إلا فى حالات الضرورة القصوى ، دون أن يمعنوا فى التوغل داخل أراضى البيزنطيين ، فلم تستغرق الشواتى أكثر من عشرين يوما . وكانت تلك الشواتى تقع عادة فى الفترة ما بين أواخر فبراير والنصف الأول من مارس [٢] . وبذلك ترك معاوية لخلفاءه نظاما ساروا عليه فى تضييق الخناق على الدولة البيزنطية ، وإشاعة الاضطراب والفوضى فى آسيا الصغرى ، أهم أركان حياتها الاقتصادية .

المردة أو الجراجمة :

اصطدم معاوية حين اتجه إلى تحصين العواصم والثغور بشمال الشام المتاخمة لأراضى الدولة البيزنطية بجماعة خارجة عن طاعة الدولة الإسلامية ، وعرقلت تقدم مشاريعه فترة من الزمن . والتقى معاوية بهذه الجماعة فى جبل اللكام (Amanus)

(١) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢١ ، ١٢٨ .

(٢) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ٢٥٩ .

حيث أقامت به لا تعرف طاعة أحـد منذ دخل المسلمون الشام . وكان سكان جبل اللكام العصاة ، تابعين قبل الفتح الإسلامى لبطريق أنطاكية وواليها.[١] ولما فتح أبو عبيدة بن الجراح مدينة أنطاكية اعتصم أولئك السكان بجبل اللكام دون أن يتنبه لخطورتهم المسلمون ، وأخذوا يحيون حياة شبه مستقلة فى صياصى الجبال ، ولهم مدينة أشبه بالحاضرة تسمى الجرجومة [٢] . وهم ينسبون أحياناً إلى هذه المدينة ويدعون بالجراجمة ، على حين أطلق عليهم المسلمون اسم المردة ، لما لمسوه فيهم من العصيان ، والخروج دائماً على طاعتهم [٣] .

وكان أولئك المردة من قبل عصاة لكل سلطة حاكمة فى الشام ، وتجلت هذه الظاهرة منذ أيام الدولة الرومانية الكبرى واستيلائها على الشام ، إذ وصف الرومان موطن المردة الجبلى بأنه مقر أعداء شديدى البأس ، « Mons hostium plenus sempiternorum »[٤] ، كما نعتوا سكان اللكام بالعداوة الدائمة « Hostis perpetius ». وظل المردة على حياة العصيان حتى جاء الفتح الإسلامى للشام . وتنبه المسلمون لخطر الجراجمة بعد أن نقض أهل أنطاكية عهد الصلح الذى أعطاه لهم أبو عبيدة ، ولكن المسلمين فتحوا المدينة مرة ثانية وتولى شئونها حبيب بن مسلمة الفهرى أحد شيعة معاوية وأشهر قادته فى الميدان الشمالى المواجه لأرض البيزنطيين . فآثر الجراجمة الهدوء مؤقتاً وتجنبوا الاصدام مع حبيب بن مسلمه ، إذ صالحوه « على أن يكونوا أعواناً للمسلمين ، وعيوناً ومسالح فى جبل اللكام ، وأن لا يؤخذوا بالجزية ، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حرباً فى مغازيهم »[٥]. وبذلك أعفى الجراجمة من

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٩ .

(٣) Hitti, Hisrory of Syria, 448.

(٤) Lammens, op cit, 19.

(٥) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

دفع الجزية واحتفظوا باستقلالهم الذاتي ، ولكنهم لم يخلصوا تماما لشروط الصلح مع المسلمين وانتهزوا الفرص للعصيان ، ومؤازرة من يغدق عليهم أجزل العطاء .

واستطاعت الدولة البيزنطية أن تجتذب تلك الجماعة المتاخمة لحدودها بإغداق المنح المالية عليها ووجهتهم لعرقلة حركات المسلمين . ومن ثم غدا الجراجمة وكلاء للدولة للبيزنطية ينفذون سياستها ضد مشاريع معاوية . فكانوا يستغلون وقوع مساكنهم قرب درب أنطاكية المسمى درب بغراس ، طريق إغارات المسلمين على أراضي البيزنطيين ، ويوقعون بجيوش المسلمين الفوضى عند عبورهم لهذا الممر . ولم تفلح محاولات المسلمين لإخضاعهم نهائياً « فكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى ، فيكاتبون الروم ويمالئونهم [١] » . وسرعان ما أصبح الجراجمة نواة التف حولها كل الخارجين على السلطات الاسلامية في الشام مما قوى بأسهم . واعتاد الجراجمة السير وفي أيديهم قطع طويلة من الحديد جعلت البيزنطيين يطلقون عليهم اسم « أصحاب القضبان الحديدية » .

وتفانى المردة في خدمة أغراض الدولة البيزنطية حتى أصبحوا يكونون على حد قول المراجع البيزنطية ، التي أشادت بأعمالهم ضد المسلمين « ستارا حديديا » [٢] فصل الشام عن أراضي البيزنطيين بآسيا الصغرى وعرقل الهجوم الإسلامي عليها . واستهدف المردة بإغاراتهم العديدة من جبل اللكام إيقاع الاضطراب بين المسلمين ، وذلك بتشجيع الدولة البيزنطية التي أمدتهم بالمساعدات الحربية في الاغارات الكبرى . وظهر تعاون المردة مع البيزنطيين في عرقلة جهود المسلمين سنة ٦٦٦ م ، حين ترامت إلى السلطات البيزنطية أنباء الحملة التي أخذ معاوية يعدها براً وبحراً للهجوم على القسطنطينية . وكانت طبيعة جبل اللكام تساعد المردة على تنفيذ مآربهم دون أن ينالهم ضرر أو أذى ، إذ أغاروا من موطنهم

---

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

(٢) في الأصل « جدارا نحاسياً » ؛ Bury, op cit, 317

بجبل اللكام على سلسلة جبال لبنان و إفادة أنفسهم من موقعها الجغرافى وخلوها من المحارس . فجبال لبنان تمتد من الشمال الشرق إلى الجنوب الغربى ، وتقسم إقليم الشام قسمين ، أحدهما يطل على البحر ويضم الأقاليم الساحلية ، والآخر الأقاليم الداخلية البرية . وكانت أقاليم الشام الداخلية تعتمد فى حياتها على المدن الساحلية ، وتتصل بها عبر ممرات هامة فى هـذه السلسلة الجبلية . ولذا هدف البيزنطيون إلى القضاء على مجهودات معاوية بالشام واستعداده لحصار القسطنطينية بمحاولة الاستيلاء على هذه السلسلة الجبلية الممتدة بالشام ، وشل حركة التعاون بين أساطيل المسلمين فى القواعد البحرية ، و بين الجنود البرية فى الداخل .

وزاد أعمال الجراجمة خطورة أن إقليم الشام كان مقسما منذ زيارة عمر بن الخطاب للشام ، وعقد مؤتمر الجابية (٦٣٩ م) إلى أربعة أجناد ، جند دمشق ، وجند حمص ، وجند الأردن ، وجند فلسطين ، ولكل منها منافذ على الساحل . ولذا كانت خطة البيزنطيين فى تشجيع الجراجمة تهدف إلى إيقاع الاضطراب فى صفوف هذه الأجناد الإسلامية ، والتى كانت من قبل الأقسام الإدارية الأربعة فى الشام أيام سيطرتهم على هذا الإقليم . وقد أرسل البيزنطيون خيالتهم إلى جبل اللكام واشتركوا مع المردة فى الهجوم على إقليم الشام ، وقد تمكنوا من احتلال المناطق الاستراتيجية الهامة على امتداد جبال لبنان ، وفصلوا المنطقة الساحلية عن البلاد الداخلية . ثم قام الأسطول البيزنطى فى تلك الفترة بحملات على القواعد الإسلامية البحرية بالشام للسيطرة على ما بها من معدات ، دون أن تستطيع النجدات الإسلامية الوصول إلى الساحل من المناطق الداخلية [١] .

ولكن نجاح المردة لم يدم طويلا ، إذ اقتصرت أعمالهم على الإغارات فقط ، ثم العودة إلى موطنهم واخلاء الأماكن التى يحتلونها . فاضطر الجند البيزنطى

(1) Lammens, op cit, 91, 20 ; Hitti, op cit, 449.

النظامى إلى القهقهر مع أولئك المرتزقة ، ولاسيما بعد أن حقق الأسطول البيزنطى أهدافه . غير أن هذه الإغارات المتكررة التى قام بها المردة لم تفت فى عضد معاوية ، وإنما عدل سياسته بحيث يشل حركات أولئك المغامرين الأفاقين . فجلب جماعات شديدة البأس والسطوة من داخل الدولة الإسلامية ووضعهم بالقرب من مساكن المردة فى الجهات الشامية المعرضة أيضاً لخطرهم ، واستطاع معاوية بذلك مراقبة حركات الجراجمة ، والتصدى لهم فى بداية نشاطهم ، وقد انتقى جماعة « الزط »[1] بالبصره ، للاضطلاع بمهمة الوقوف فى وجه الجراجمة ، ونقل بعضاً منهم سنة ٤٩ هـ أو ٥٠ هـ / ٦٦٩ م إلى أنطاكية وغيرها من الثغور الإسلامية القريبة منها ، ولكن غالبيتهم استقرت بأنطاكية : حيث غدا لهم حى بها عرف « بمحلة الزط »[2] .

وكانت جهود معاوية ضد الجراجمة آخر خطواته فى تحصين العواصم والثغور . ولكن لم يستطع أن يحل نهائياً مشكلة المردة أو الجراجمة ، إذ تابعوا إغاراتهم على إقليم الشام حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان . فقد نجح هذا الخليفة بوسائله الدبلوماسية فى عقد اتفاق مع الدولة البيزنطية يقضى بإبعاد هذه الجماعة من موطنهم إلى داخل أراضى الدولة البيزنطية ، وحقق بذلك لدولته الهدوء والسلام ، وقضى على شوكة أرقتها مدى طويلا .

الاستيلاء على أرمينيا :

توج معاوية بن أبى سفيان مجهوداته فى الدفاع عن أرض الإسلام ضد هجمات البيزنطيين بالاستيلاء على إقليم أرمينيا ، الذى تمتع منذ أقدم العصور

---

(١) الزط قوم أصل موطنهم غير معروف ، ويحتمل أنهم من هنود آسيا واستقروا على سواحل الخليج الفارسى فيما بعد . وعرفوا بالشراسة وحبهم للمغامرات ، مما جعل معاوية يختارهم للدفاع عن الحدود الإسلامية ضد البيزنطيين والجراجمة .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٩ .

بموقع ممتاز ، جعله مطمح القوى المتصارعة على السيادة فى الشرق . وقد اجتذبت أحداث الصراع الإسلامى البيزنطى زمن الخلفاء الراشدين نظر معاوية إلى إقليم أرمينيا حيث تطلع إلى إدخاله فى رقعة أرض الإسلام . إذ جاء ذكر أرمينيا فى حوليات المسلمين منذ السنة الثانية لخلافة عثمان بن عفان (٢٤ هـ / ٦٤٥ م) عندما شن البيزنطيون غارة كبرى على أرض الشام من معاقلهم بآسيا الصغرى [1] . ولكن معاوية والى الشام إذ ذاك رد هذه الإغارة على أعقابها ودحر المغيرين البيزنطيين . وجاءت هذه الإغارة بداية اتجاه جديد فى خطط المسلمين الحربية ، إذ يمم المسلمون وجوههم شطر أرمينيا وأدركوا ضرورة الاستيلاء عليها والاتصال بزملائهم الذين يتابعون زحفهم فى أرض الجزيرة بالعراق ، وإحكام حلقة الحصار على الأراضى البيزنطية بآسيا الصغرى ، ووضع حد لإغارات البيزنطيين المتكررة على الشام .

وكان اتجاه معاوية فى هذه الفترة المبكرة من ولايته نحو إقليم أرمينيا من أعظم الدلائل على يقظته ، ودرايته بخير الوسائل لحماية دار الإسلام . فأرمينيا تتحكم بفضل موقعها فى مفرق الطرق المؤدية إلى أراضى المسلمين فى إقليم الجزيرة بالعراق وبلاد الشام والجهات التى احتلها المسلمون فى جنوب آسيا الصغرى . وإلى جانب ذلك امتازت أرمينيا بأنها إقليم فريد فى جغرافيته ، حيث يعتبر وحدة طبيعية قائمة بذاتها وسط ما يحيط بها من بلاد . ويقصد بإقليم أرمينيا المنطقة الجبلية الوسطى العالية فى غرب آسيا ، أى تلك البقعة الجبلية الواسعة التى تحدها آسيا الصغرى من الغرب ، وهضبة أزربيجان والشاطئ الجنوبى لبحر قزوين من الجنوب الشرقى والشرق ، وساحل البحر الأسود والقوقاز من الشمال والشمال الشرقى ، والركن الشمالى الغربى من أرض الجزيرة من الجنوب . وتبلغ مساحة هذا الإقليم ١١٥٤٠٠ ميل مربع تقريبا ، وتضم مواطن أنهار كثيرة

---

(1) muir, the Calphate, 303.

تتجه إلى جهات شتى ، وتزود بعضها أرض الإسلام بمنابع دجلة والفرات (١) .

وكانت أحوال أرمينيا بعد الفتح الإسلامى للشام تشجع معاوية بن أبى سفيان على غزوها . فكانت إذ ذاك تئن من آثار النزاع الذى نشب فى أرضها بين قوتى العالم الكبيرتين الفرس والبيزنطيين ، وحرص كل منهما على السيطرة عليها لما لها من موقع استراتيجى هام فى العمليات الحربية بينهما . وانقسمت أرمينيا قبيل الفتح الإسلامى نتيجة هذا الصراع إلى قسمين ، آل القسم الأكبر والذى يضم الجهات الشرقية من أرمينيا إلى دولة الفرس ، على حين استولى البيزنطيون علي القسم الأصغر الذى يضم الأراضى الغربية . ونهج كل من الفرس والبيزنطيين فى حكم قسميهما سياسة مهدت الطريق لاستيلاء المسلمين على أرمينيا بأسرها . إذ اعتمد الفرس فى إدارة منطقتهما بأرمينيا على ولاة محليين دون أن يدركوا مدى ما يحمله هذا الحكم الذاتى من أضرار لهم . إذ كان الولاة الأرمن يتطلعون إلى البيزنطيين لاختلافهم مع الفرس فى الدين ، ودأبوا على قض مضاجع الفرس وبذر بذور القلق فى منطقتهم بتحريض البيزنطيين ، حتى بدا أن السيادة البيزنطية تشمل سائر أرمينيا.

على أن البيزنطيين لم يستطيعوا الإفادة مما حدث فى أرمينيا الفارسية (Persarmenia) ، إذ كان الاختلاف المذهبى المنتشر فى بلاد الامبراطورية البيزنطية ، ومحاولة السلطات البيزنطية فرض مذهب واحد على جميع رعاياها ، من العوامل الهامة التى أدت بدورها إلى انتشار الفوضى فى الشطر البيزنطى من أرمينيا كذلك . وتجلت هذه الظاهرة سنة ٤٥١ م حين رفض الأرمن اعتناق المذهب الذى تمّ الاتفاق عليه فى مجمع خلقدونيا ، إذ اعتبر البيزنطيون الأرمن خارجين على طاعتهم ، وبدأوا ضدهم سلسلة من الاضطهادات جعلت الأرمن على استعداد للارتماء فى أحضان أية قوة تأتى لإنقاذهم (٢) .

---

(1) Encyc of Islam (art Armenia.)
(2) Encyc. of Islam (art Armenia.)

وجاء خلاص أرمينيا من حالة الفوضى التى تفشت فيها على يد معاوية بن أبي سفيان، الذى أدرك أهمية موقعها وسهولة الاستيلاء عليها . و بدأ معاوية سلسلة الحملات المنظمة للاستيلاء على أرمينيا بعد أن ضم إليه عثمان بن عفان إقليم الجزيرة بالعراق لتوحيد العمليات الحربية ضد البيزنطيين . وعهد معاوية بإدارة دفة العمليات الحربية فى أرمينيا إلى حبيب بن مسلمة ، الشخصية التى عرفت بحسن جهادها ضد البيزنطيين ، وقيامها باغارات مبكرة على أرمينيا إبان الفتوح الإسلامية الأولى فى شمال العراق والشام ، إذ سبق لحبيب بن مسلمة أن أغار على أرمينيا سنة ٢١ هـ ، مما جعله أصلح شخصية لفتح هذا الإقليم .

سار حبيب بن مسلمة لفتح أرمينيا من قبل معاوية بن أبى سفيان سنة ٢٥ هـ/٦٤٥ م . وكان هدف القائد الإسلامى الاستيلاء على عاصمة أرمينيا البيزنطية ، وهى مدينة ثيودوثيوبوليس (Theodosiopolis) ، التى تدعى « قاليقلا » فى المراجع العربية . واستهل حبيب انتصاراته بالاستيلاء على هذه العاصمة بعد حصار يسير ، وفرّ من بها من القوات البيزنطية إلى آسيا الصغرى . و بقى حبيب فى هذه المدينة شهراً يدعم لنفسه فيها ولقواته ، حتى بلغه أن قائد الفيلق البيزنطى فى إقليم « الأرمينياق » بآسيا الصغرى ، الذى يضم المنطقة المتاخمة لأرمينيا ، جمع جيشاً كبيراً لاخراج المسلمين من هذه البلاد ، وضم إليه بعض العناصر من الخزر [1] وغيرهم من سكان البلاد القريبة منه [2] .

و بعث حبيب بن مسلمة إلى معاوية يصف له حالة الفتح و يطلب منه أمداداً لتثبيت فتوحات المسلمين بأرمينيا . فأرسل معاوية إليه الأمداد سريعاً ، ثم التقى

---

(١) الخزر قوم استقروا فى منطقة القوقاز تقريباً ، ولكن كان نفوذهم يتسع وينكمش حسب التطورات السياسية . وقد عرف عن الخزر تحالفهم مع البيزنطيين قبل ظهور الاسلام . وقد ظلت الدولة البيزنطية تستعين بهم كذلك أثناء حروبها ضد الأمويين .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٠٥ ؛ Encyc. of Islam (art Armenia)

المسلمون والبيزنطيون على شاطىء الفرات الأعلى ، حيث أنزل مسلمة بأعدائه هزيمة ساحقة ، وكتب للمسلمين الاستقرار فى هذا الإقليم الهام. وأتبع مسلمة انتصاره بوضع حامية قوية فى مدينة قاليقلا ، وأغراها على البقاء فيها بمنح أفرادها إقطاعات من الأرض يستغلونها لأنفسهم وينعمون بخراجها [١] .

تابع حبيب زحفه بعد انتصاره فى الشطر البيزنطى من أرمينيا إلى الجنوب الشرقى للاستيلاء على أرمينيا الفارسية كذلك . وكان يلقى فى طريق زحفه ترحيباً من الحكام المحليين حيث قدموا له فروض الطاعة والولاء . وأخيراً بلغ عاصمة أرمينيا الفارسية ، وهى مدينة دوين (Dwin) أو دبيل فى المراجع العربية . واضطر حبيب أن يحاصر هذه المدينة التى تحصن بها أهلها ، فنصب المجانيق وأمطرهم بها حتى ألجأهم إلى طلب الصلح . وكشف عقد الصلح الذى أبرمه مع أهالى هذه المدينة بجلاء عن أهداف المسلمين فى فتح أرمينيا ، وأنها كانت ترمى إلى تأمين بلاد الإسلام ، إذ شرط حبيب على سكان دبيل ، الى جانب تأدية الجزية المطلوبة منهم ، ضرورة « مناصحة المسلمين . . . ومعاونتهم على أعدائهم » [٢] .

وأخذ حبيب يوالى انتصاراته بعد استيلائه على عاصمة أرمينيا الفارسية ، حتى التقى بقوات المسلمين فى أرض الجزيرة بالعراق ، والتى كان يقودها غياض بن غنم . فاشترك القائدان فى فتح شمشاط ، وهى منطقة تدعى أرمينيا الرابعة ، أى أنها كانت قسم من الأقسام الإدارية التى انقسمت إليها أرمينيا . وكان بعض سادة نواحى أرمينيا المتاخمة لأرض الجزيرة بالعراق قد أخذوا عهود أمان من غياض بن غنم ، فأقرها لهم حبيب ، ثم تابع فتوحاته بعد ذلك منفرداً عن غياض [٣] .

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٠٥ ؛ Encyc. of Islam (art Armenia)
(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ٢٠٨ ؛ Encyc. of Islam (Art Armenia)
(٣) البلاذرى ، نفس المرجع ، ٢٠٧ .

أتم حبيب فتوح أرمينيا بوصوله مدينة تفليس ، إذ منح أهلها عهد صلح وأمنهم على أنفسهم و بيعهم وصوامعهم ، مقابل اعترافهم بالسيادة الإسلامية ودفع الجزية . ولم يترك حبيب أرمينيا إلا عام ٦٥٥ م بعد أن صد جيشاً بيزنطياً آخر جاء تحت قيادة ماوريانوس « Maurianos » ، وختم بهزيمة هذا الجيش آخر المحاولات البيزنطية لاسترداد أرمينيا (١) .

عاد حبيب بن مسلمة بعد ذلك إلى إقليم الشام ، مخلداً اسمه في سجل حوليات الكفاح الإسلامى ضد البيزنطيين . وقد اكسبته انتصاراته على البيزنطيين شهرة فائقة جعلت معاوية يعهد إليه بإدارة إقليم الثغور المتاخم للحدود البيزنطية . فاتخذ حبيب من مدينة حمص مقراً لإغاراته السنوية على أرض البيزنطيين بآسيا الصغرى ، ولإبعاد شبحهم عن إقليم أرمينيا (٢) .

وارتبط مصير أرمينيا منذئذ بتاريخ الدولة الإسلامية ، وتأثرت بما سادها أحياناً من فترات الاضطراب . وتجلى ذلك بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وانغماس المسلمين فى الحروب الأهلية التى نشبت بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان . إذ اضطر معاوية إلى سحب قواته المرابطة فى أرمينيا ليقوى جبهته فى الصراع مع على بن أبي طالب . وكان حبيب بن مسلمة نفسه ، القائد الإسلامى المظفر فى الميدان البيزنطى بأرمينيا ، قائد جيش معاوية الذى اتجه أول الأمر إلى نجدة الخليفة عثمان بمكة حين حاصره الثوار ، ثم قفل راجعاً بعد أن علم بمقتل الخليفة عثمان واضطراب الأحوال فى الحجاز .

وجاء خلو أرمينيا من القوات الإسلامية فرصة مواتية للبيزنطيين لاسترداد هذا الإقليم ذى الموقع الحربى الممتاز . فعادت جيوش الإمبراطورية البيزنطية

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ٢٠٩ ، ١٢٠ ; Encyc of Islam (Art Armenia)

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ٢١٢ .

إلى مقرها القديم بأرمينيا ، مصطحبة معها سياسة البيزنطيين التقليدية فى العداء المذهبى . على أن المسلمين لم يغضوا الطرف عن أرمينيا ، ولم يتركوها لقمة سائغة للبيزنطيين ، إذ بعد أن حالف النصر معاوية ، وأصبح خليفة المسلمين سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م وجه همه لاستعادة أرمينيا . وكانت الأحوال التى تفشت فى أرمينيا إبان سيادة البيزنطيين الثانية لها عاملا ساعد معاوية على الفوز من أسهل طريق وأيسره .

عانت أرمينيا فى تلك الفترة من التبعية البيزنطية سوء الإدارة وانتشار روح التذمر والتمرد بين الجيوش البيزنطية بها . وأدى هذا الفساد إلى إدراك معاوية سهولة فتح أرمينيا ثانية ، إذ ثار قائد الجيوش البيزنطية بأرمينيا ويدعى إذ ذاك سابور (Sapor) فى سنة ٦٦٨ م على الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع [١] . وبعث هذا الثائر بمندوب من قبله إلى معاوية بن أبى سفيان يطلب منه المساعدة ويعده مقابل ذلك بتمهيد الطريق للمسلمين للاستيلاء على آسيا الصغرى وإبعاد الجيوش البيزنطية عنها ، ولا سيما المرابطة منها على تخوم الشام الشمالية [٢] .

وعمد الامبراطور البيزنطى إلى عرقلة مجهودات هذا الثائر ، فأرسل بدوره إلى الخليفة معاوية يحذره من مد يد المساعدة إلى ثوار أرمينيا . ولكن تصادف أن التقى المبعوثان الأول الذى أرسله الثائر سابور ، والآخر الذى بعثه الامبراطور فى بلاط معاوية ، وتشاحنا وخرجا دون أن يظفر أحدهما عما قصد إلى تحقيقه . وأدرك معاوية من ذلك أن الوقت قد حان لاسترداد أرمينيا . فأرسل إلى أهالى أرمينيا يدعوهم إلى الاعتراف بسلطانه والدخول فى التبعية للمسلمين ودفع الجزية مقابل حمايتهم وطرد البيزنطيين . وحقق معاوية أغراضه واستردت جيوشه

---

(1) Finlay, A History of Greece I, 380.

(٢) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ١٨٧ ، ١٨٨ ؛
Cheira, op cit, 117, 118.

أرمينيا وطاردت فلول البيزنطيين المقطعة الأوصال [1].

وضع معاوية بعد ذلك سياسة لحكم أرمينيا كفلت للمسلمين البقاء فيها طوال العصر الأموي ، إذ عهد بإدارة شئونها المحلية إلى أقوى الأسرات الحاكمة بها ، والتي اشتهر منها المامیلونيين « Mamilonians » ، والباجراتونيين (Bagratunians) . ونصب على أرمينيا بأسرها والى مسلم يرقب أحوالها ويدير شئونها عن طريق الحكام المحليين [2] . وحققت هذه السياسة الإسلامية وما اتسمت به من ترك الأهالى يحكمون أنفسهم حكما ذاتيا مستنيراً ، هدوء الأوضاع واستقرارها بأرمينيا طوال العصر الأموى . وهكذا نعم الخلفاء الأمويون من بعد معاوية بما وضعه عميدهم من أسس الاستقرار فى هذا الركن الهام من الأراضى الإسلامية المتاخمة للدولة البيزنطية .

---

(1) Bury, op cit II, 357 : Muir , The Caliphate 297 ; ابن العرى ، نفس المرجع ، ١٧٧ :

(2) Laurent, L' Armenie, 92, 93 : Encyc. of Islam (art Armenia.)

الفصل الثالث

دمشق والقسطنطينية

أسس نمو المدن وازدهارها

أوضاع المدن :

المدن عصب الدول ، وميزان ما ينالها من ازدهار واضمحلال ، ورمز ما يتفجر فيها من ينابيع الحضارة والمدنية ، ومن ثم حرصت كل مدينة كبرى على العمل بما يهيء للدولة التى تضمها سبل الرفاهية والعظمة ، والوصول إلى مركز الصدارة بين الأمم المجاورة لها سواء الدانية منها أو القاصية . وقد تفاوتت المدن الكبرى فى تأدية هذه الرسالة ، فمنها ما ارتقى سريعاً فى سلم الزعامة العالمية ، ثم هوت فى لمح البصر كشهاب ما كاد يضيء حتى خبى . ومنها ما جملت أحداث دولها تحتل المكان الأول بين أخبار العالم المعروف لها ، وسطرت لها صفحات خالدة فى سجل التاريخ .

ويعزى ما أصابته المدن الكبرى من نجاح أو فشل ، وعلو بعضها فوق بعض درجات إلى عوامل شتى ، أهمها مدى ما حبته الطبيعة المدينة من مميزات جغرافية ، واستطاعة مؤسسو هذه المدن الكبرى استغلال هذه المميزات وتنميتها بما يحقق لها السيادة والازدهار . وكانت هذه العوامل التى تتحكم فى مصائر المدن ونشأتها موضع التقدير والاهتمام من أولى الأمر فى البلاد ، ودونوها في تقارير تداولها الخلف عن السلف للسير على هديها والعمل وفق إرشادها . وظلت هذه القواعد العامة متبعة منذ أقدم الأزمان حتى نهاية العصور الوسطى ، حيث تغيرت

أوضاع المدن وفن تأسيسها لما طرأ على العالم فى العصور الحديثة من انقلاب فى أساليب المدنية ومظاهرها .

وتناول ابن خلدون فى مقدمته هذه القواعد التى أرسى عليها القدامى وأهل العصور الوسطى صرح مدنهم ، وبيّن مدى أهمية مراعاة هذه القواعد حتى تحقق المدن الغرض المنشود منها . فذكر « أن المدن قرار يتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه ، فتؤثر الدعة والسكون ، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار [1] » . ولما كان الهدوء والاستقرار أهم ما تحرص عليه الدول ، فقد دأب أولو الأمر فيها على العناية بالمدن التى هى عماد هذا الاستقرار وعموده الفقرى ، وحرصوا عند تأسيسها ولا سيما الكبرى منها على أن تتوافر لها ثلاثة أمور هى : « دفع المضار ... وجلب المنافع وتسهيل المرافق »[2] .

وكان دفع المضار عن المدن يتحقق بأن « يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار ، وأن يكون وضع (المدن) فى متممنع من الأمكنة ، إما على هضبة متوعرة من الجبل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة ، فتصعب منالها على العدو ، ويتضاعف مناعتها وحصنها [3] » .

وأما جلب المنافع والمرافق المدينة فقد تطلب عدة أمور منها الماء ، « بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون ... فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء ، وهى ضرورية [4] » . وكذلك المزارع ، « فإن الزروع هى الأقوات ، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل فى اتخاذه ،

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

(٤) نفس المرجع السابق ، ٢٩١ .

وأقرب فى تحصيله »[١] . وأخيراً لابد للمدن من المراعى الجيدة ، « إذ صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ، ولابد لها من المرعى ، فإذا كان ذلك قريباً طيبا كان ذلك أرفق بحالهم[٢] » .

ودلل ابن خلدون على صدق هذه العوامل الثلاث الأساسية بسرد أسماء بعض مدن عمر شطر منها طويلا وازدهرت ونمت مع الزمن ، على حين ذكر مدناً أخرى غفل مؤسسوها عن « حسن الاختيار الطبيعى » ، « ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظلف ... ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية »[٣] .

وهكذا حفل التاريخ بقوائم عديدة لمدن كبرى ظهرت على مسرح بلاد الشرق ، بعضها تحقق لها الكثير من القواعد التى ذكرها ابن خلدون ، والبعض الآخر لم يحظ من أسباب البقاء إلا بالقدر الضئيل ، ومن ثم ظلت بعض هذه المدن تؤدى رسالتها فى ميدان الحضارة العالمية حتى حان حينها وآن أفولها ، على حين اندثرت المدن الأخرى التى قامت على أسس غلب عليها طابع التصنيع والبعد عن « حسن الاختيار الطبيعى » . ولكن بذّ مدن الشرق جميعاً مدينتان توافرت لهما أسباب الزعامة على سائر مدن الشرق الأخرى ، وخلد التاريخ اسميهما على مرّ العصور والأزمان ، مصحوباً ببيان أهميتهما فى بناء صرح الحضارة العالمية . الأولى هى مدينة دمشق التى دار فى فلكها كثير من أحداث التاريخ منذ أقدم عصوره حتى الوقت الحاضر ، والثانية مدينة القسطنطينية التى شاركت دمشق فى الخلود والبقاء حتى العصر الحديث .

وقد أخذت هاتان المدينتان تشيدان صرحيهما ، كل جاهدة على الاستفادة مما حبتها الطبيعة من مميزات جليلة ، حتى شاء كرّ العصور أن يتصل تاريخهما معاً

---

(١) ابن خلدون ، المرجع السابق ٢٩١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

ويرتبط فى ركابهما أهم الأحداث العالمية . وجاء هذا الاتصال فى العصور الوسطى حين ظهر الدين الإسلامى وأخذ يحتضن بلاد الشرق ويضفى عليها نوره وهداه . ففى تلك الحقبة الزاهرة من تاريخ الشرق نالت كثير من المدن شرف السبق فى اعتناق الدين الإسلامى على حين تأخرت أخرى فى هذا المضمار . ومن ثم نشب بين الفريقين صراع اتصف بسمات جديدة تختلف اختلافاً كليا عن أى صراع آخر عرفه الشرق من قبل ، إذ جهد الفريق الأول على تأدية رسالته العالمية بأن يحمل الفريق الآخر على اعتناق الإسلام والسير فى ركاب حضارته وهديه . واتخذت دمشق لواء الفريق الأول شعاراً لها ، على حين رفعت القسطنطينية راية عصيان الفريق الآخر .

على أن سبق دمشق فى الإسلام جعلها تحتل مركز الزعامة العالمية فى العصور الوسطى على عهد الأمويين ، وأرسلت جيوشها الواحدة تلو الأخرى تلتهم ما تشاء من الأراضى التابعة للقسطنطينية وتدق أسوار هذه المدينة العاتية نفسها ، حتى جعلت أنظار المسلمين تتجه إليها ، وتتطلع إلى أهمية ضمها إلى حظيرة الإسلام . وظلت رسالة الأمويين قائمة عند أولى الأمر من قادة الدولة الإسلامية حتى فتح الأتراك العثمانيون القسطنطينية ، وهيأوا لها مكاناً جليلا فى التاريخ الإسلامى إلى جوار قرينتها دمشق .

دمشق — قبلة سفن الصحراء :

قامت عظمة دمشق على عهد الأمويين على أسس من الماضى التليد وفوق دعائم ثابتة الأركان . فهى ذات تاريخ قديم يبدأ منذ بزوغ فجر الحضارات فى بلاد الشرق ، ومنذ أدرك أهالى تلك البلاد أهمية اتصال بعضها بالبعض الآخر ، واختيار نقط تصلح للتلاقى وتبادل المصالح . وقد رشحت الطبيعة مدينة دمشق لتكون من الينابيع الأولى التى تغذى أرض الشرق بالحضارة ، وأن تصبح

خير بقعة يتعارف فيها أهلها . إذ هى هبة أعظم طريق تجارى قديم ربط الشرق بالغرب ، وهبة نهر بردى أيضاً الذى خلق منها جنة فيحاء وفردوساً هادئاً يجد فيها التاجر والمسافر الراحة والاستقرار بعد عناء السفر ومتاعب الطريق .

وهكذا اختصت الطبيعة مدينة دمشق بموقع رائع خالد لا يضمحل مع الزمن، ورفعتها إلى مصاف عدد قليل من المدن الأخرى العالمية التى شاركتها فى القدم وطول البقاء . فقد أصبحت دمشق بفضل موقعها الممتاز مركزاً تتلاقى فيه متاجر الأمم المجاورة لها ، وسوقاً لتبادل السلع التى ترد إليه من شتى الآفاق . فكانت المتاجر إذ ذاك تنقل من شاطىء الشام المطل على البحر الأبيض المتوسط ، ثم تسير بها القوافل عبر سهول الشام الخصبة المعروفة بالبقاع (Coele Syria) قاصدة مدينة دمشق ، حيث تنقل منها مرة أخرى إلى نهر الفرات . ثم تعود منتجات العراق وما يضاف إليها من واردات اليمن وفارس عن هذا الطريق إلى البحر الأبيض المتوسط مارة بمدينة دمشق كذلك(١) . وكان هذا الشريان التجارى أهم طريق يصل بين بلاد الشرق الأقصى الغنية بالمتاجر وغيرها من المنتجات التى احتاج إليها العالم القديم وبين أسواق ومراكز استهلاكها فى البلاد المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى . واختص هذا الطريق التجارى بالأهمية فى حلقة التبادل التجارى بين الشرق والغرب لأنه كان ذا شعبتين : الأولى ، وقد سبق ذكرها ، وتسير من مياه الخليج الفارسى ثم مع الفرات ومنه إلى دمشق وأخيراً إلى البحر الأبيض المتوسط ؛ وشعبة أخرى تواصل السير من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر ، حيث يبدأ عند اليمن طريق قوافل آخر يجتاز بلاد العرب إلى جنوب الشام حيث مدينة بصرى مفتاح الطريق إلى دمشق(٢) .

ويعزى السبب فى اتجاه هذا الطريق التجارى ذى الشعبتين الكبيرتين

---

(١) Kremer : Orient under the Caliphs, 133, 134.

(٢) ابراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، ص ١ ، ٢ .

نحو مدينة دمشق إلى تحكمها فى نقطة اتصال رئيسية بين منطقتين متباينتين لها أهميتهما فى ميدان التجارة والاقتصاد . فإلى الشرق من دمشق توجد بادية الشام التى تخترقها الطرق التجارية الآتية من شمال بلاد العرب أو من العراق ، وإلى الغرب منها السهل الخصيب الزاهر الذى أطلق عليه القدامى اسم البقاع لوقوعه بين سلسلتى جبال لبنان . واكتسب هذا الوادى شهرة كبرى فى عالم التجارة لأنه سهل مهمة اجتياز هذه السلسلة الجبلية والوصول إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط(١) .

وكان تحكم دمشق فى هذا الطريق التجارى عاملا جعلها مطمح أنظار القوى التى ظهرت بجوارها . فحرصت كل دولة تبغى لنفسها السيطرة التجارية إدخال دمشق فى دائرة نفوذها . على أن هذا التنافس أفاد دمشق نفسها حيث أتاح لها سبيل الظهور على مسرح الأحداث العالمية . وارتبطت أولى خطوات دمشق فى سلم الزعامة السياسية ببلاد العرب ، وهى المهد الذى سوف يحتضن الإسلام فى مبدأ أمره فيما بعد . إذ فيما بين سنة ١٥٠٠، ١٢٠٠ ق . م خرجت من بلاد العرب هجرة بشرية تعرف بهجرة الآراميين استقرت فى بلاد الشام وأسست لنفسها دولا بها ، وكانت دمشق حاضرة إحدى هذه الدول الآرامية الناشئة ، ويشمل سلطانها الأراضى الممتدة من الفرات إلى اليرموك(٢) .

وأخذت دولة دمشق منذ تلك الحقبة تخضع لما يطرأ على الدول السياسية من علو وارتفاع ، ثم تدهور وانحلال . ولكن المدينة نفسها لم تندثر أو تفقد أهميتها رغم زوال سيادتها على ما جاورها من بلاد . وكان السبب فى تدهور دولة دمشق السياسى هو إغارات البدو المقيمين فى الصحراء المجاورة لها على القوافل التجارية القاصدة عاصمتها . وبلغ من كثرة أولئك المغيرين أنهم اتخذوا لأنفسهم كهوفاً

(1) Kremer : op cit, 134, 136.

(2) Hitti, History of Syria (London 1951) 165.

يقيمون بها ، وكان أحدها يقع بالقرب من دمشق نفسها ، ويضم أربعة آلاف رجل. وظلت هذه الإغارات الشوكة التى تضايق دمشق لأنها آمنت بصفة خاصة طريق القوافل الهام الآتى من بلاد العرب السعيدة (اليمن) إلى إقليم الشام ، والذى يحمل إليها الخير العميم [1].

واستهدف البدو من إغاراتهم مشاركة دمشق فى ثرائها ، على حين استقر بعضهم فى المدينة نفسها حيث جذبتهم إليها حدائقها وحقولها النضرة . ومن ثم كان تاريخ دمشق الاقتصادى لا يمكن فصمه عن نهر بردى وما أفاضه عليها من خصب وبهاء . فهذه المدينة بدت فى نظر جيرانها من البدو ، وغيرهم من التجار والمسافرين الدرة الزاهية وسط عقد يحيط بها من حدائق زمردية اللون ، وكان الفضل فى هذا إلى نهر بردى وحده الذى يسق المدينة و بساتينها ، واستطاع بذلك أن يقتطعها من المنطقة المجاورة لها و يجعلها وحدة قائمة بذاتها . فدمشق محاطة من ثلاث جهات بتلال عالية على حين تحف بها الصحراء من الجهة الرابعة ، وتقف وسط هذا المحيط كجزيرة قائمة بنفسها،لا يربطها بالخارج إلا سفن الصحراء ، التى تهرع إلى المدينة بعدعبورها الصحراء حاملة المتاجر والمسافرين ، حيث تقضى هناك فترة للراحة ومتابعة الرحيل [2].

ويعتبر نهر بردى من الأنهار التى لا ينضب ماؤها ، فهو ينبع من جبال لبنان الداخلية ، حيث تغذى الثلوج جداوله العليا بالمياه ، ثم ينساب المجرى الرئيسى من الشمال إلى سهل دمشق مغذيا حدائقه وأراضيه بالمياه . وكانت أراضى دمشق تحصل على مياهها من نهر بردى فى سهولة ويسر [3] .

وهكذا تكاتف الموقع الجغرافى ونهر بردى على جعل دمشق غرة إقليم الشام ، وقبلة أنظار أية قوة تظهر فى بلاد الشرق الأوسط والأدنى . ولكن

---

(1) Hitti, op cit, 308.
(2) Feddan, Syrai, 34 ; Hitti, op cit, 472.
(3) Ibid, 742.

أخذت دمشق منذ سنة ٨٥ ق . م تدخل فى دور جديد من تاريخها السياسى ، تجمعت فيه القواعد التى شيد عليها الأمويون فيما بعد صرح دولتهم . إذ دخلت دمشق فى التبعية لأحدى الهجرات البشرية التى خرجت من بلاد العرب ، وتعرف بهجرة الأنباط [١] . وإذا كانت دمشق منذ هجرة الآراميين مرتبطة أشد الارتباط بما نبع من جوف بلاد العرب من حركات فإن حكم الأنباط لمدينة دمشق الحجر الأول فى بناء صرح دمشق السياسى الذى شمخ وعلا عندما اتخذها الأمويون مقراً لهم .

وكانت أولى دلائل هذا العهد الجديد هو أن الطابع العربى أخذ يسود دمشق ، فانتشرت اللغة العربية فى أنحائها ، وأصبحت العبارات العربية تتردد بين جنباتها ، على حين توالت عليها هجرات عدد كبير من القبائل العربية البدوية واستقرت فى المنطقة المحيطة بها . وكان هذا التيار الجديد يسير مع طريق القوافل التجارية الآتية من بلاد اليمن ، ويدفعه الرغبة والشوق إلى التمتع بثراء هذه المدينة الزاهرة .

وأدى استقرار هذه القبائل العربية فى المنطقة المجاورة لدمشق إلى درء أية محاولة تهدف إلى إضعاف الطابع العربى لهذه المدينة . وتجلى ذلك حين استولى الرومان على دمشق من الأنباط طمعاً فى السيطرة على الطريق التجارى الذى يمر بها . فلم يستطع الرومان وضع مقرحكمهم فى الشرق فى هذه المدينة خوفا من بطش القبائل العربية الضاربة فى ضواحيها ، وتركوا المدينة تنعم بحكم ذاتى عربى . ولكن اضطر الرومان إلى توجيه عنايتهم بهذه المدينة حين نشب الصراع بينهم و بين دولة الفرس ، فأنشأ بها الأمبراطور دقلديانوس داراً لصناعة الأسلحة وتزويد الجيوش الرومانية بالعتاد [٢] .

---

(1) Encyc. of Islam (art Damascus)
(2) Kremer, op cit, 130.

ولما خلفت الدولة البيزنطية أمها الأمبراطورية الرومانية الكبرى فى بلاد الشرق زاد الاهتمام بدمشق ، ولا سيما أن الفرس الساسانيين جهدوا على إكمال سيطرتهم التجارية فى الشرق بالاستيلاء على هذه المدينة التجارية الهامة . وتجلى إدراك البيزنطيين لأهمية هذه المدينة فى خط الدفاع البيزنطى ضد الفرس وغيرهم من القبائل العربية التى دأبت على مهاجمة القوات البيزنطية بها فى أن الأمبراطور البيزنطى يوليان سماها « عين الأمبراطورية فى سائر إقليم الشرق »(١) . وعمدوا فى تقوية هذه المدينة إزاء الأخطار المحيطة بها إلى انتهاج سياسة جعلت فى النهاية من دمشق مدينة عربية لحما ودما .

وكانت سياسة البيزنطيين هى اتخاذ قبيلة الغساسنة العربية التى استقرت فى منطقة دمشق والصحراء القريبة منها عميلا لها يحمى حدود امبراطوريتها المطلة على أراضى دولة الفرس ، ويدفع عنها إغارات البدو التى تبغى السلب والنهب . وأدت هذه السياسة إلى أن أصبح بلاط الغساسنة يعج بالشعراء والوفود من العرب ، وغدت دمشق قبلة العرب فى الجاهلية ينعمون بخيراتها ويأخذون منها ما يحتاجونه من متاجر .

وجهد العرب الغساسنة فى الدفاع عن دمشق ومنطقتها أيام الحروب الفارسية البيزنطية كأنما هى وطنهم ، وأكثر من الدفاع عن سائر الحدود البيزنطية . ودفع ذلك السلطات البيزنطية إلى التشكك فى نوايا الغساسنة ، وأخذت تعمل على أضعافهم والقبض على رؤسائهم واقصائهم عن إقليم الشام . وكان لهذه السياسة البيزنطية أسوأ الآثار ، إذ سرعان ما غزا الفرس الشام أوائل عهد الأمبراطور البيزنطى هرقل ، واستولوا على دمشق منتهزين فرصة ضعف الغساسنة . ولم يتعرض الفرس بأى تخريب أو أذى لمدينة دمشق ، التى أملوا أن يبقوا عليها لتأدية رسالتها فى ميدان التجارة والاقتصاد ، ومن ثم ظلت دمشق رغم الاحتلال

---

(1) Kremer, op cit, 139.

الفارسي محتفظة بطابعها العربي ونظام تخطيطها الحربي ، دون غيرها من المدن الشامية التي أعمل الفرس فيها التخريب (١) .

ولكن الاستعمار الفارسي للشام لم يدم طويلا ، إذا استطاع الامبراطور هرقل أن يعبىء قوات دولته ويحمل الفرس على إخلاء الشام دون أن يصطدم معهم فى معارك حربية . إذ سار بجيوشه بحراً من القسطنطينية ، معلنا أن هدفه الزحف مباشرة من آسيا الصغرى إلى أراضى الدولة الفارسية نفسها . فاضطرت الجيوش الفارسية إلى اخلاء آسيا الصغرى والشام والتجمع فى بلادها الرئيسية للدفاع عنها . وبذلك ظلت دمشق قائمة دون أن يطرأ عليها تغيير فى تلك المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الفارسية البيزنطية ، والتي سبقت مباشرة حركة الفتوحات الإسلامية للشام .

على أن السيادة البيزنطية نفسها لدمشق على عهد الامبراطور هرقل امتلأت بأحداث هامة جعلت هذه المدينة بسكانها من العرب يتطلعون إلى إخوانهم فى شبه الجزيرة العربية ، الذين أخذ الإسلام يضم صفوفهم ويعلى من شأنهم . ذلك أن الأمبراطور هرقل أدرك جنوحا عند أهل الشام فى الانفصام عن جسم الدولة البيزنطية ، وأنهم اتخذوا من اختلافهم فى المذهب الدينى مع هذه الدولة تكأة للاستقلال . فعمد الأمبراطور بعد طرد الفرس إلى نشر مذهب جديد يدعى بمذهب « التوحيد » ، يضم شمل ولايات الأمبراطورية البيزنطية جميعاً فى صعيد واحد ، ويقضى على عوامل التفرقة بينها . على أن عرب الشام الذين كانوا على الدين المسيحى كرهوا عودة الحكم البيزنطى ، وتشبثوا بمذهبهم القديم معلنين رفضهم فى إباء لمذهب هرقل الجديد .

وكان من نتائج إصرار أهل الشام على عقيدتهم الدينية أن عين الامبراطور هرقل فى مدينة دمشق حاكما بيزنطياً أخذ يسوم أهلها العذاب ، ويعاملهم بمنتهى

(1) Encyc. of Islam (art Damascus)

القسوة . وكانت هذه الخطوة البيزنطية إيذاناً بنهاية عهد سيادة البيزنطيين على الشام ، إذ سرعان ما تمّ للاسلام كلمته فى بلاد العرب ، وأخذ تيار الفتوحات الإسلامية يتجه صوب الشام لنشر هذا الدين الحنيف . ومن ثم بدا للجيوش الإسلامية أهمية الانجاه صوب دمشق وضم عروس الشام إلى رقعة الإسلام .

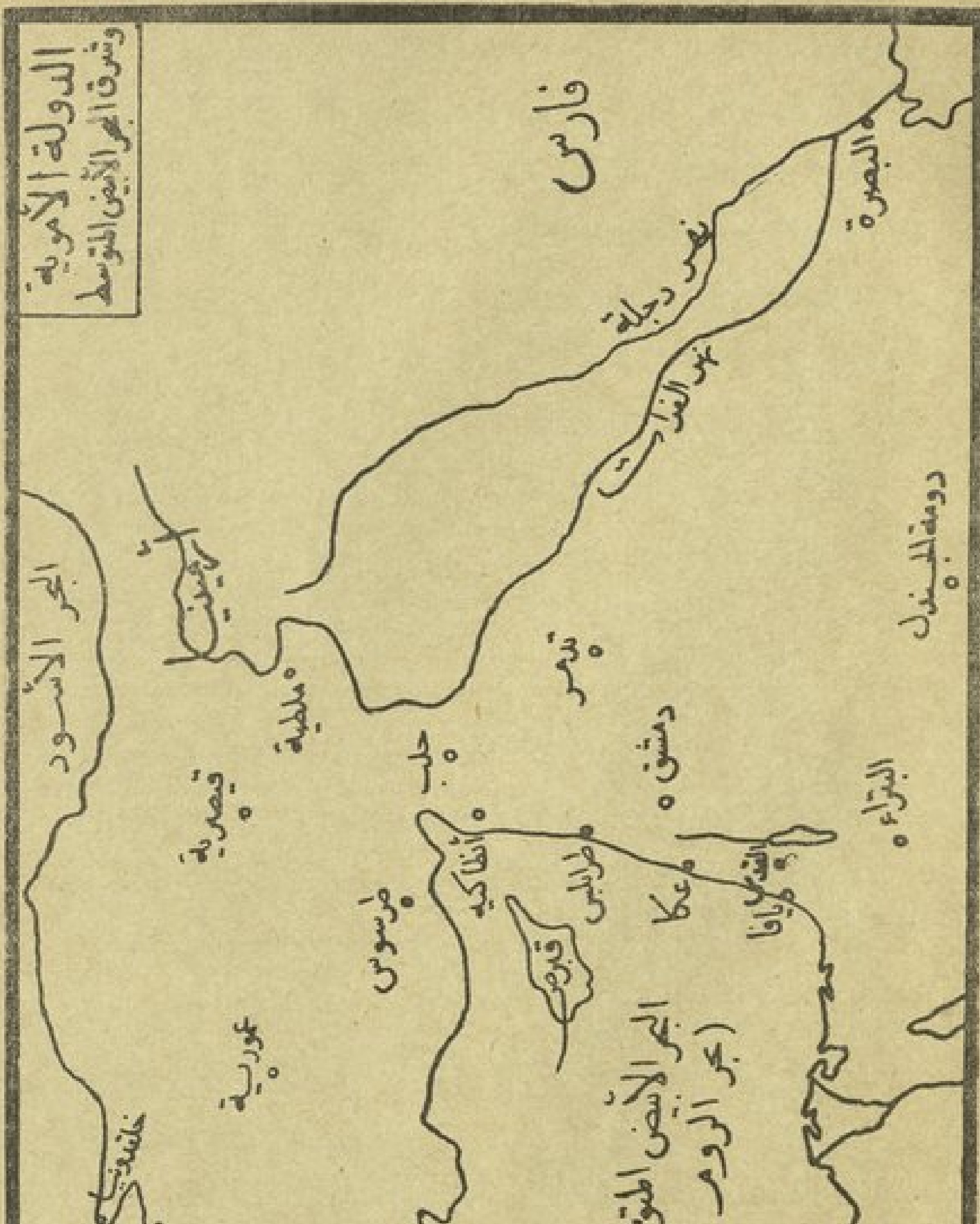
دمشق الأموية :

عندما بدأت جيوش المسلمين تغزو أرض الشام أخذ البيزنطيون يعملون جاهدين على عرقلة زحفها حتى تأتيهم الأمداد من العاصمة البيزنطية . وجاءت النجدات البيزنطية سريعاً وتجمعت فى دمشق للدفاع عنها ، لأن استيلاء المسلمين عليها يحطم سائر خطوطهم الدفاعية الأخرى . على أن السلطات الإسلامية المركزية أدركت خطورة التجمعات البيزنطية فى دمشق وعمدت إلى حشد قواتها مجتمعة للتغلب على هذا الخطر . وكانت أولى الخطوات الإسلامية هو إرسال الخليفة أبى بكر إلى خالد بن الوليد ، الذى كان يوالى الفتوحات فى العراق ، يأمره بالذهاب إلى الشام على رأس قواته لمساعدة زملائه من القادة المسلمين المقيمين بهذا الإقليم .

وبانضمام خالد بن الوليد إلى القوات الإسلامية بالشام أصبح يتولى عمليات الفتوح أشهر قاده المسلمين وأكثرهم خبرة بأساليب القتال . فبادروا جميعاً بعد استيلائهم على أجنادين (٣٠ يوليو ٦٣٤م) ، وتأمين خطوط مواصلاتهم مع بعضهم البعض ، بالزحف على دمشق لقطع سبل الاتصال بين الجيوش البيزنطية فى سائر مدن الشام والنجدات التى تأتى إليهم من آسيا الصغرى . واستهل المسلمون نشاطهم فى ميدان دمشق بأن شتتوا شمل البيزنطيين فى مرج الصفر (٢٥ فبراير سنة ٦٣٥ م) ، وهو سهل يبعد عشرين ميلا إلى الجنوب من دمشق نفسها . وبذلك أصبح الطريق مفتوحا أمام الجيوش الإسلامية للزحف مباشرة على هذه المدينة العتيقة [١] .

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ، ١٢٤ ، ١٢٥ ؛ Httti, op cit, 412, 414


الدولة الأموية
وشرق البحر الأبيض المتوسط
فارس
نهر دجلة
نهر الفرات
البصرة
دومة الجندل
البحر الأسود
قيصرية
ملطية
حلب
تدمر
دمشق
البتراء
أنطاكية
طرابلس
عكا
يافا
قبرص
طرسوس
عمورية
القسطنطينية
خلقدونية
رودس
البحر الأبيض المتوسط
(بحر الروم)

استولى المسلمون على المنطقة المحيطة بمدينة دمشق ، الغنية ببساتينها وحقولها ، وهى المعروفة باسم « الغوطة » ، وتابعوا سيرهم حتى وقفوا أمام أسوار المدينة التى تحصنت بها الحاميات البيزنطية . ومن ثم بدأ التعاون والتنسيق بين خطط سائر القادة المسلمين ، الذين كان من بينهم أحد أبناء البيت الأموى . فوزع أولئك القادة قواتهم على الأبواب الرئيسية لهذه المدينة لتضييق الخناق والحصار عليها ، وحملها على التسليم . فعسكر خالد بن الوليد على « الباب الشرقى » ، ونزل القائد الأموى يزيد بن أبى سفيان على « الباب الصغير » ، واختص عمرو بن العاص « بباب توما » ، على حين نزل شرحبيل على « باب الفراديس »[١] .

وكانت هذه الأبواب والأسوار الممتدة حول المدينة محصنة تحصيناً قوياً ، حيث تجنبت عوامل التخريب والهدم رغم ما تعرضت له فيما سلف من هجمات الفرس أو البيزنطيين . ولذا مكث المسلمون فى حصار دمشق ستة أشهر ، جاهدين على دراسة تحصيناتها وأسوارها ليفيدوا أنفسهم منها ، ويزهقون حامياتها وأهلها المدافعين عنها. وكانت دمشق كما وجدها المسلمون فى حصارهم ، عبارة عن مدينة مستطيلة الشكل مبتور شطر منها فى الركن الشمالى الغربى ، وكان فى هذا المكان قلعة حصينة تداعت منذ زمن بعيد وظل مكانها شاغراً . أما الأسوار فبلغ ارتفاعها عشرين قدما وسمكها حوالى خمسة عشر قدماً ، و بنيت من حجارة متينة . وكانت بعض هذه الأسوار مشيدة على أسس مبانى قديمة ترجع إلى ما قبل العصر الأموى[٢] .

وتوج أسوار المدينة أبراج بارزة مربعة الشكل ذات أسقف مخروطية الشكل ، ويبعد كل برج عن الآخر بمسافة قدرها خمسين قدما . وكانت هذه الأبراج معدة بما يكفل للمدافعين ، ولاسيما الرماة وسائل الطمأنينة ، وكافة ما يحتاجون إليه من

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ،ص ، ١٢٧ .

(2) Kremer, op cit, 141.

ذخيرة وعدد . أما الأبواب الكبرى التي يمكن دخول المدينة منها فكانت منظمة بما يحقق الدفاع عن المدينة . فكان كل باب يشمل ثلاث فتحات ، أحداها كبيرة واسعة وهي الوسطى ، وفتحتان صغيرتان على جانبي هذه الفتحة الوسطى . واقتصرت الفتحتان الجانبيتان على حركة مرور الناس ، إحداهما للخروج والأخرى للدخول ، أما البوابة الوسطى فكانت تستخدمها الجنود أو قوافل الجمال وغيرها من دواب الحمل . وزاد في منعة هذه الأسوار وأبوابها خندق عميق يحيط بها و يزود بالماء من نهر بردى ، حتى لا يستطيع المهاجمون الاقتراب منها[١] .

ولذا لم يكن عجباً أن تقضى القوات الإسلامية مدة ستة أشهر في حصار دمشق . ولكن امتازت هذه القوات بالمثابرة في الحصار و بأن روحها المعنوية ظلت عالية . وكان جيش يزيد بن أبي سفيان خير نموذج لهذه الصفات التي تجلت في الجند الإسلامي ، إذ عبر أحد جنده ويدعى عبد الرحمن بن سهيل عن روح زملائه المعنوية في أبيات من الشعر، تكشف كذلك عن قرب سقوط دمشق في أيدي المسلمين[٢] .

وتشير بعض المراجع إلى أن جيش يزيد استطاع أن يدخل دمشق عنوة من « الباب الصغير[٣] » ، ولكن حدث في تلك الأثناء أن السلطات البيزنطية في دمشق فاوضت خالد بن الوليد على تسليم المدينة بعد أن أدركت إصرار المسلمين على الاستيلاء عليها . وتم تسليم دمشق في سبتمبر سنة ٦٣٥م بعد أن غادرتها الحامية البيزنطية ، ثم دخلتها سائر الجيوش الإسلامية . ومنح خالد بن الوليد أهاليها عهداً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم ، وصدق على هذا العهد سائر القادة

---

(1) Kremer, op cit, 141.

(٢) قال ذلك الشاعر :

أبلغ أبا سفيان عنا بأننا ... على خير حال كان جيش يكونها
وأنا على بابي دمشقة نرتمى ... وقد حان من بابى دمشقة حينها

أنظر ابن عساكر ، تاريخ دمشق ص ١٧ .

(٣) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

المسلمين ، بما فيهم يزيد بن أبى سفيان ، مما يوضح اتفاق كلمة المسلمين فى سياستهم إزاء المدن المفتوحة .

و يعتبر هذا العهد الذى نالته دمشق نموذجا للاجراءات التى اتبعها المسلمون فيما بعد مع سائر مدن الشام الأخرى التى تم لهم فتحها . وجاء فى نص وثيقة التسليم « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق ، إذا دخلها أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وسور مـــدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء المؤمنين ، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية »[١] .

و إذا كان تسليم دمشق يعد من أهم أحداث الفتح الإسلامى ، فإن تعيين القائد الأموى يزيد بن أبى سفيان حاكما عليها من قبل القائد العام للجيوش الإسلامية ، وهو أبو عبيدة بن الجراح ، يعد حدثا هاما آخر فى التاريخ الإسلامى لا يقل عن تسليم المدينة نفسها . إذ أصبح يهيمن على هذا المركز الحضارى القديم فى بلاد الشرق أحد أبناء البيت الأموى ، الذى آل على نفسه إعادة هذه المدينة إلى سيرتها الأولى وسالف عظمتها بين دول العالم . واتضحت أهمية تعيين يزيد واليا على دمشق حين اختطفه الموت من مسرح بلاد الشام ، إذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبى سفيان إدارة الجهات التى كانت تابعة لأخيه يزيد بن أبى سفيان . وهـكذا أخذت تنمو فى دمشق بذور دوحة البيت الأموى ، التى ترعرعت على عهد معاوية ، وأخذت تظل هذا المعقل الحضارى وتزوده بثمار جديدة .

وبدت طلائع العهد الجديد ، الذى نعمت به دمشق إبان ولاية معاوية ابن أبى سفيان ، حين أخذ المسلمون الفاتحون يمتزجون مع أهالى دمشق . وكان

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٢٧ — ١٣٠ .

أولئك الفاتحون قد استقروا بادئ الأمر فى الأماكن التى هجرها البيزنطيون فى الطرف الشمالى الغربى من المدينة بالقرب من نهر بردى . ولم يجدوا فى مقرهم الجديد أى وحشة ، حيث كان يقطن فى الجهات الصحراوية القريبة منهم عرب من بنى جلدتهم وفدوا إليها منذ زمن بعيد(١) . وكان أولئك العرب ممن ساعدوا الفاتحين فى الاستيلاء على دمشق ، وقدموا لهم كافة ما احتاجوا إليه من تسهيلات. وسرعان ما تم الامتزاج بين الفريقين وتعاونا على العمل لما فيه رفاهية مدينتهم فى ظل العهد الجديد .

وزاد الامتزاج بين المسلمين وأهالى دمشق فى الفترة التى أصبح فيها معاوية يحكم الدولة الإسلامية بأسرها من دمشق ، بعد أن نودى به خليفة على المسلمين ، ودعم أركان البيت الأموى فى هذه العاصمة الجديدة . إذ غدت دمشق حاضرة العالم الإسلامى ، تتطلع إليها أنظار سائر الولاة المسلمين فى شتى الأرجاء يتلمسون منها الهداية والإرشاد وبدأت دمشق منذ تلك الفترة تفقد ما علق بها من صفات العهد البيزنطى البائد وتستبدل بها مظاهر إسلامية عربية . وظهرت دلائل هذا الانقلاب حين أخذت قبائل عربية عديدة تهاجر من بلاد العرب وتفد إلى المنطقة المجاورة لدمشق . فقد أدت هذه الهجرات إلى اتساع رقعة دمشق ، وكثرت أحياؤها ، إذ أقامت القبائل العربية فى أحياء خاصة بها ، بكل منها مسجد خاص وسوق خاص . ويفصل كل حى من الآخر باب خاص ، حتى أصبحت هذه الأحياء أشبه بمدن صغيرة . واتخذت القبائل الأخرى التى لم تستقر فى قلب المدينة منازل لها فى ظاهر دمشق حتى أصبحت هذه المنازل أشبه بقرى متصلة بعضها ببعض(٢) .

واحتفظت مدينة دمشق على عهد معاوية بمبانيها العامة وأسوارها وأبوابها .

---

(1) Kremer, op cit, 147; Encyc. of Islam, (art Damascus).

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ٢٤٣ ؛ Kremer, op cit 147.

قطات مستطيلة الشكل على نحو ما كانت عليه من قبل ، ويشقها نفس الطرق الرئيسية التى وجدت منذ العصر البيزنطى . فكان يشق دمشق طريق سمى « بالشارع الأعظم » ، ولكنه عرف غالباً باسم « المستقيم » ، وبلغ طوله ١٦٠٠ متراً ، ويمتد من الشرق إلى الغرب ، ويضم على جانبيه ممران أحدهما للمشاة والآخر للركبان (١) . وكذلك بقيت مظاهر النشاط الاقتصادى والاجتماعى بالمدينة مركزة فى الأحياء التى كانت عامرة بها أيام الحكم البيزنطى . فكان قلب المدينة النابض يقع بالقرب من كنيسة القديس يوحنا ، التى حولها الأمويون فيما بعد إلى الجامع الذى نسب إليهم . وأقام معاوية بالقرب من هذه الكنيسة « قصر الخضراء » الذى اتخذه مقراً له ومركزاً لإدارة حكومته . وكانت الخضراء من المبانى التى شيدت من قبل أيام السيادة البيزنطية ، فجددها معاوية بأن هدم المتداعى منها ، وبناها بالطوب أولا ، ثم ما لبث أن أعاد بناءها من الحجارة . وزين هذا القصر بالذهب والمرمر ، وحجراته بالفسيفساء ، وأحاطه بالحدائق الغناء (٢) . وقد أشاد بهذه الأوصاف أحد الرحالة المسيحيين الذى وفد من غرب أوربا فى زيارة للشرق بعد انتشار الإسلام فى مصر والشام بثلاثين سنة . إذ زار هذا الرحالة المدعو « أركولف » إقليم الشام فى خلافة معاوية وأشار إلى احتفاظ دمشق بمظاهر نشاطها السابق قبل دخولها فى حظيرة الإسلام (٣) .

ولم تلبث دمشق بعد عهد معاوية أن شاهدت حركة واسعة فى البناء والتعمير ، وغدت مدينة إسلامية محصنة . وكانت دلائل هذا العهد الجديد بناء المسجد

---

(1) Encyc. of Islam (art Damascus)

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٣ ؛ Encyc of Islam (art Damascus)
Sayed Ameer Ali, A short History of the Saracens 159

(٣) عبر عن ذلك اركولف قائلا :

« in que (Sc. Ciuitate) Saracenorum rex adeptus eius principatum regnat, et ibidem in honorem Sancti Johannis baptistae quandis fundata ecclesia incredulorum et ipsa in eadem ciuitate, quam ipsi frequentant, fabricate est. »

الأموى ، إذ استولى الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٥ م على كنيسة دمشق المعروفة بكنيسة القديس يوحنا ، وأقام عليها المسجد المسمى بالجامع الأموى . وأدخل الوليد من التعديلات الكثيرة على مظاهر الكنيسة القديمة بما جعلها تأخذ صبغة مسجد إسلامى رائع ، وجعل له مآذن جميلة كان أهمها المئذنة الشمالية . وكانت هذه المئذنة تستخدم منارة لكشف أى حركة هجوم قد يشنها عدو على المدينة ، وأصبحت نموذجاً يحتذى فى سائر المبانى التى شيدت فيما بعد فى سائر أنحاء دمشق والشام . وبذل الوليد جهداً عظيما فى هذا المسجد ، الذى أصبح رمزاً لعظمة المسلمين فى الشام ، وشاهداً ينطق بقوة دولتهم أمام الزائرين من الأقطار المختلفة . فيروى أن الوليد قضى فى بنائه تسع سنين ، وأنفق عليه خراج مملكته سبع سنين ، حتى أصبح يضم من الروائع ما جعل الإنسان « لو عاش مائة سنة وكان يتأمله كل يوم ، لرأى فى كل يوم مالم يره فى سائر الأيام من حسن صنائعه واختلافها »(١) .

وكان أهم مظهر اشتهرت به دمشق على عهد الأمويين إلى جانب مسجدها الجامع هو نظام مياه الشرب ، وتحقيقه أسباب الرفاهية والراحة لجميع سكانها . فقد بذل الأمويون جهداً كبيراً فى تنظيم مياه نهر بردى الذى تعتمد عليه المدينة وغوطتها . ووصف ياقوت هذا النهر واعتماده على الينابيع وانسيابه إلى دمشق وحدائقها قائلا : « بردى أعظم نهر دمشق ، يخرج من قرية .... على خمسة فراسخ من دمشق مما يلى بعلبك ، يظهر الماء من عيون هناك ، ثم يصب إلى قرية .... على فرسخين من دمشق ، وتنضم إليه عين أخرى .... فإذا صار ماء بردى إلى قرية يقال لها دُمَّر افترق على ثلاثة أقسام .... وتمتزج هذه الأنهر الثلاثة بالوادى ثم بالغوطة حتى يمر بردى بمدينة دمشق فى ظاهرها(٢) » .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٥ ، ٧٦ .
(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١١٩ .

استغل الأمويون مياه بردى فى إمداد البيوت الكبيرة والصغيرة على السواء بما تحتاجه منها ، فزودوها بأحواض خاصة تنبثق منها المياه : على حين حفروا سبع جداول رئيسية تنساب فى أنحاء المدينة لضمان إمداد المنازل بالمياه من مجرى النهر الرئيسى . وتولى الخلفاء الأمويون العناية بمجارى بردى الرئيسة ، ورعايتها خالفا عن سالف . فشق يزيد بن معاوية النهر الذى عرف باسمه ، وكان هذا النهر فى الأصل مجرى صغير به قليل من المياه تروى ضيعتين فى منطقة الغوطة . وفى خلافة معاوية آلت ملكية هاتين الضيعتين إلى الخلافة و إدارتها . فلما ولى يزيد وجد أن الأرض التى تحيط بهاتين الضيعتين واسعة وتفتقر إلى الماء لإصلاحها واستثمارها . فأمر بتوسيع النهر الصغير الذى كان يروى الضيعتين وأصبح نهراً كبيراً عرف باسمه تخليداً لاهتمامه بمياه دمشق وتنظيمها [1] .

و بذل الخلفاء الأمويون جهوداً كبيرة فى دراسة مياه بردى وتنظيمها بما يكفل للجميع الراحة والهناء . ففى خلافة سليمان بن عبد الملك قلت المياه فى نهر بردى ، وشكا الناس إلى الخليفة الحال التى أصبح عليها النهر . فعهد سليمان إلى مهندس من رجاله بدراسة جهات يمكن أن يوجد بها عيون ماء جديدة تكفل تحسين مستوى مياه بردى . وتمت الدراسات على عهد الخليفة هشام ، واستفاد من العيون الجديدة بحفر قنوات أخرى إلى سائر الضياع التى شكت من قبل قلة المياه ؛ ثم نظم بعد ذلك توزيع المياه بالتناوب على نهيرات دمشق ، وزود كل منها بما تحتاجه من المياه . وغدت هذه الأنهار مما ينتفع به الدانى والقاصى « وينقسم منها الماء إلى الأرضين فى الجداول . . ويدخل من بعدها إلى البلد فى القنى ، فينتفع به الناس الانتفاع العام على الوجه المهنى ، ويتفرق إلى البرك والحمامات ويجرى فى الشوارع والسقايات [2] » .

---

(١) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

وهكذا خلق الأمويون من دمشق عاصمة زاهرة جديرة بأن تصبح المدينة الأولى في العالم الإسلامي ، وتضم أسباب الرفاهية لسكانها ورفع شأنهم في العالم المجاور لهم . وكانت هذه المنزلة الرفيعة التي نالتها دمشق على عهد الأمويين مثار تنافس بينها وبين مدينة القسطنطينية . إذ عز على هذه المدينة الأخيرة التي كانت منذ زمن غير قصير سيدة دمشق أن ترى تابعتها تبذها سلطانا وبهاءا . ونشب بين المدينتين صراع استطاعت فيه دمشق أن تلقن القسطنطينية درسا ، خلاصته أن الدين الإسلامي جعل من الشرق وحدة متماسكة تشد بعضها بعضا ، وأنها أصبحت بفضل خلفاء بني أمية رمز هذه الوحدة الجديدة ، ومطرقة تكيل لها أشد الضربات في سبيل إعزاز دولة الإسلام الناشئة والدفاع عنها .

نشأة القسطنطينية

في الفترة التي خرجت فيها هجرة الأنباط من بلاد العرب ، وأخذت تصبغ إقليم الشام وحاضرته دمشق بأولى ألوان الطابع العربي وهيأتهما لتبوء مركز الصدارة فيما بعد على العالم الإسلامي زمن الأمويين ، كانت هناك هجرة بشرية مماثلة قد سبقت هجرة الأنباط بقليل ، خرجت من بلاد اليونان واستعمرت شواطيء آسيا الصغرى الغربية والشمالية ، وتمخضت عن ميلاد مدينة عرفت فيما بعد باسم القسطنطينية ، منافسة دمشق أيام بني أمية . وكان أنشط جماعات اليونان في هذه الهجرة هم سكان مدينة ميجارا ، إذ اتصفوا بالمهارة والمقدرة الحسنة في اختيار أصلح الأماكن التي يشيدون عليها صرح مستعمراتهم ومدنهم الجديدة . فأسس بعض أولئك السكان مدينة خلقدونيا على الشاطيء الأسيوي قبالة مضيق البسفور ، حيث يتمتع هذا المكان بمميزات جغرافية هامة [1] .

---

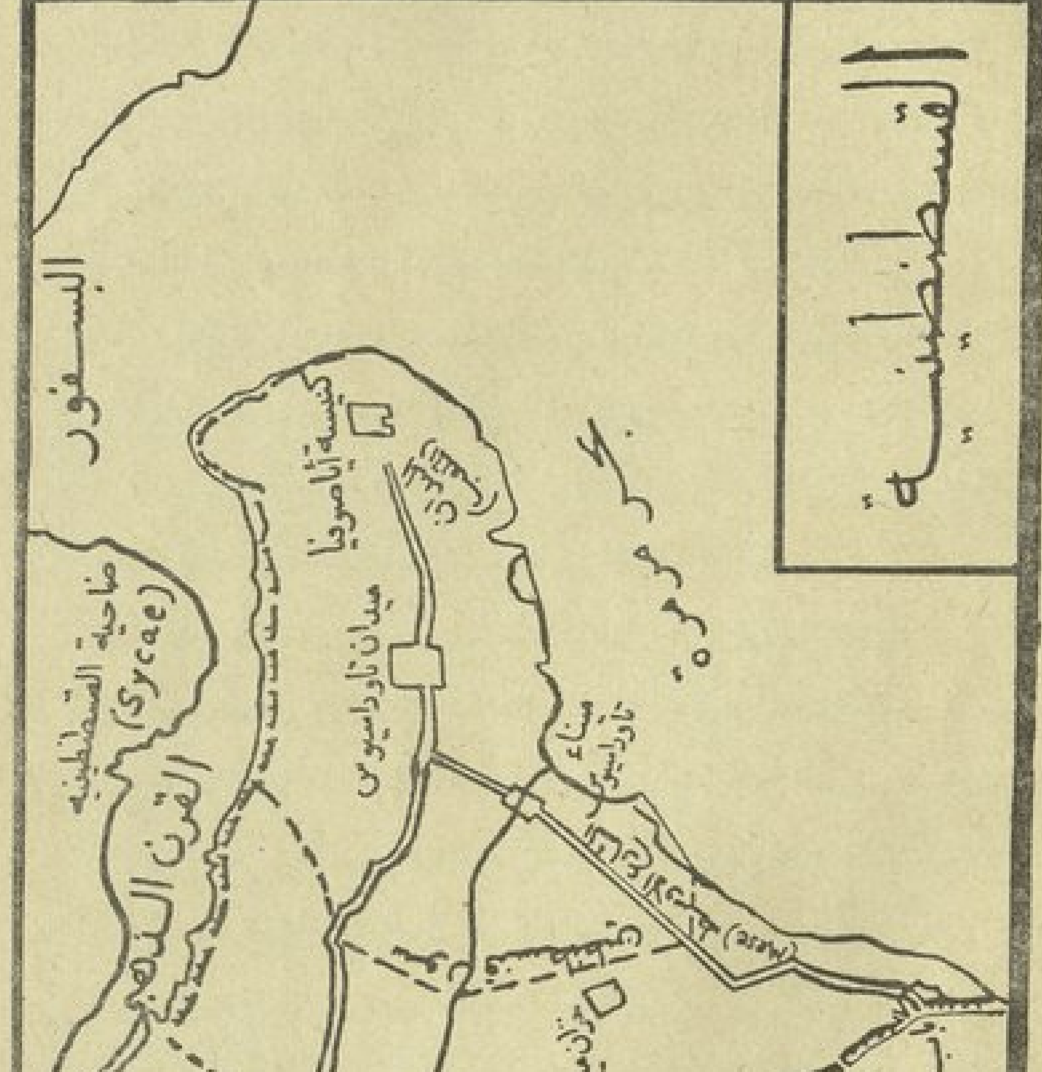
(1) Runciman, Byzantine Civilisation, 11.

على أن فريقاً آخر من سكان ميجارا بذ أقرانه جميعاً فى انتقاء المواضع التى تشيد عليها المستعمرات ، إذا انتقل إلى الشاطىء الآخر الأوربى المطل على البسفور قبالة مدينة خلقدونيا ، وأسس لنفسه فى هذا المكان الجديد مدينة عرفت باسم بيزنطة (Byzantium) . وحبت الطبيعة هذا المكان بمميزات جليلة جعلته يتحكم فى مفرق طرق هامة . ذلك أن مساحتين كبيرتين من الماء وهما البحر الأسود وبحر إيجه يفصلان قارة أوربا عن جنوب غربى آسيا . ولكن يمتد بين البحرين إقليم تراقيا قبالة آسيا الصغرى ، ويقترب الشاطئان الأسيوى والأوربى حتى لا يُفصلهما عن بعضهما البعض سوى مجريان ضيقان فقط ، هما البسفور والدردنيل وبحر مرمرة الممتد بينهما (١) .

ويعد مضيق البسفور الذى أسست عليه مدينة بيزنطة أسهل الممرات التى يمكن عبورها بين آسيا وأوربا . إذ أن المسافر عبر هذا المضيق يتجنب تسلق جبال آسيا الصغرى ، على حين يجد طريقه إلى أوربا بعد اجتياز المضيق سهلا ميسوراً عن طريق جبال تراقيا . ولذا أصبح المسافرون والتجار بين أوربا وآسيا يمرون بمدينة بيزنطة ، على حين تسير بالقرب من شواطئها السفن التى تبحر بين البحر الأسود وبحر إيجه متجهة إلى البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن البسفور يقع فى ممر طريقين هامين من طرق التجارة الكبرى بين أوربا وآسيا ، ويكفل للمدن التى تقام عليه سيطرة تجارية فضلا عن الموقع الممتاز (٢) .

وإذا كانت بيزنطة تشترك مع خلقدونيا فى أن كلا منهما يطل على البسفور ، إلا أن الأولى بذت الأخرى بسبب تمتع الشاطىء الأوربى بمميزات يفتقر إليها الشاطىء الأسيوى . إذ قبل اتصال مياه البسفور ببحر مرمرة يمتد داخل الشاطىء الأوربى خليج عظيم طوله سبعة أميال فى انحناء أشبه بالمنجل أو القرن ، جعله

(1) Runciman, op cit, 11 ;
Bury, History of the later Roman Empire (1931), 67.
(2) Runciman, op cit, 11, 12.


القسطنطينية
البسفور
ضاحية القسطنطينية
(Sycae)
القرن الذهبي
كنيسة أيا صوفيا
ميدان تاوراسيوس
بحر مرمرة
ميناء تاوراسيوس
باب الذهب

يعرف فى التاريخ بالقرن الذهبى . وأصبح محصوراً بين القرن الذهبى و بحر مرمرة رأس أرضية تلالية على شكل مثلث متساوى الضلعين تقريباً ، رأسه تقابل الشاطىء الأسيوى [١] . فكانت أى مدينة تقام على هذا الرأس تنعم بميناء طبيعى يهيىء لأساطيلها مرفأ آمنا هادئا ، فضلا عن الحصانة من ناحية البحر ، لأن المياه تحيط بها تقريباً من جميع الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية ، وقبضت بيزنطة على ناصية هذه المميزات الهامة وحدها .

على أن مناخ مدينة بيزنطة شاب مميزاتها الجغرافية وانتقص منها . إذ يهب على المنطقة التى تقع فيها المدينة رياح باردة فى فصل الشتاء ومطالع الربيع تأتى من الاستبس الأسيوى وتعبر البحر الأسود . وكان المستعمرون الأغريق يقشعرون من زمهرير هذه الرياح ، ولا سيما أنهم اعتادوا الحياة فى وديان بلاد اليونان التى تقيهم شر هذه الرياح . ولم يقتصر سوء المناخ على ذلك ، إذ أن الصيف فى هـذه المنطقة حار جداً ، مما يجعل الإقامة فيها أمراً غير محبوب . وامتدت آثار هذه الرياح السيئة إلى الملاحة فى مياه هذه المدينة ؛ إذ أن هـذه الرياح الشمالية تعرقل سير السفن فى تيار البسفور المتجه جنوباً وتعوقها عن السير حول رأس مدينة بيزنطة والوصول إلى القرن الذهبى . فالرياح تسير فى نفس اتجاه التيار المائى وتزيد من صعوبة الملاحة فيه [٢] .

وظل هذا المناخ من أهم العوامل التى أعجزت مدينة بيزنطة عن النمو والازدهار مدى ألف سنة بعد تأسيسها . ولـكن سرعان ماظهرت أهميتها وما تمتعت به من موقع فريد حين بدأ الصراع بين قوى الشرق والغرب على السيادة والسيطرة . فاهتمت أثينا بمدينة بيزنطة إبان الحروب البليبونيزية [٣] لأنها المدخل المؤدى إلى

---

(1) Bury, op cit, 7 , 8.; Runciman, op cit, 12.
(2) Runciman, op cit, 12 ; Bury, op cit, 7 , 8.

(٣) نشبت الحروب التى عرفت باسم البليبونيزية بين اسبرطه وحلفاءها من المدن اليونانية و بين امبراطورية أثينا فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد .

شواطىء البحر الأسود الشمالية ، حيث تحصل على ما تحتاجه هناك من غذاء من حقول القمح الغنية . واعتبرها فيليب المقدونى وابنه الاسكندر الأكبر البوابة الرئيسة التى تؤدى إلى آسيا (١) . ثم جاء أباطرة الرومان أخيراً وأدركوا أهمية هذه المدينة التجارية فى حلقة الاتصال التجارى بين الشرق والغرب ، فأقاموا بها جنداً نظامياً من الرومان لمساعدة الجند المحلى على حفظ الأمن بها وتنظيم أحوالها (٢) .

وأخذت مدينة بيزنطة منذ عهد الرومان تتأرجح علوا وانخفاضاً ، إذ سرعان ما ثارت على السلطات الرومانية مما حدا بأباطرة الرومان على منع أهالى المدينة من تسليح أنفسهم أو بناء حصون لهم . وظلت المدينة على هذا النحو من الحياة المستكينة حتى عهد الامبراطور دقلديانوس . فقد ظهر إذ ذاك جماعة من القوط (٣) أقاموا على شواطىء البحر الأسود الشمالية ، واحترفوا القرصنة وأخذوا يتوغلون بسفنهم حتى بحر إيجه عبر البسفور للقيام بأعمال النهب والسلب . فاضطر الامبراطور دقلديانوس إلى إعادة تسليح المدينة وتقوية أسوارها وحصونها لتقف سداً مانعا فى وجه القراصنة القوط . (٤)

ولم تلبث مدينة بيزنطة أن دخلت فى دور جديد من أدوار حياتها حين بدأ النزاع على العرش الرومانى بين الأمبراطور قنسطنطين الكبير ومنافسه ليكينيوس . إذ اتخذ الأخير مدينة بيزنطة مقراً لإدارة دفة عملياته الحربية وحصنا يحتمى به من منافسه القوى . ولكن تحطمت آمال ليكينيوس فى النصر حين حطم قنسطنطين أسطوله فى البسفور وأتبعه بايقاع هزيمة بجندة . وسيطر قنسطنطين على المدينة وأصبح السيد المطلق فى الدولة الرومانية . ولكنه لم يغض الطرف

---

(١) Runciman, op cit, 12.

(٢) Charlesworth, Trade Routes, 118 , 119.

(٣) القوط جماعات جرمانية اقتربت من حدود الامبراطورية الرومانية الكبرى ، وأخذت تغير على أراضيها تبتغى لنفسها العيش بها والنهب أحياناً .

(٤) Runciman, op cit, 13.

عن هذا الموقع الممتاز الذى كشفه فى مدينة بيزنطة خلال حروبه السالفه ، و بدأ يستغله بما فيه الصالح العام لأمبراطوريته[١] .

وكانت الأمبراطورية الرومانية قد أحست منذ عهد دقلديانوس ضرورة تعديل نظمها الإدارية لمواجهة الأخطار الملحة التى حاطت بها على حدودها الشرقية . فكانت حدودها مهددة بعناصر جديدة من القبائل الجرمانية التى أخذت تنثال على أراضى الدولة فى الشرق تبغى العيش والاستقرار فيها ؛ فضلا عن أخطار دولة الفرس العدو المزمن لها . واضطر الأباطرة الرومان إلى البحث عن مكان يقيمون به بالقرب من الحدود الشرقية لدفع هذا الخطر ، وأحسوا أن عاصمتهم روما لم تعد صالحة لأن تكون مركز امبراطوريتهم العتيدة . فأقام الامبراطور دقلديانوس فى مدينة نيقوميديا خاصة ليستطيع مراقبة الأحداث على الجبهة الشرقية .

ولما جاء الإمبراطور قسطنطين سار على نهج دقلديانوس فى ضرورة البحث عن مقر فى الشرق يتخذه عاصمة جديدة للدولة الرومانية بعد ما حاط بها من أخطار جسيمة . وتعلقت أفكاره ببعض مدن آسيا الصغرى وتنقل بينها ليدرس أحوالها . ولكن حين نشب الصراع بينه و بين ليكينيوس ، ورأى أن منافسه قد اتخذ من مدينة بيزنطة معقلا يحتمى به تفتحت عيناه واسعة عن أهمية هذه المدينة ، وزاد إدراكه لأهميتها بعد أن تم له الفوز ، ووقف على مميزاتها الطبيعية البرية والبحرية . وسرعان ما زال عنه التردد فى اختيار مقر جديد لحكمه ، وانتقى بيزنطة لينقل إليها عرش إمبراطوريته .

وفى نوفمبر سنة ٣٢٤م أرسل الإمبراطور قسطنطين المهندسين والمخططين إلى مدينة بيزنطة وضواحيها للبدء فى تعميرها و بنائها ، بما يجعلها جديرة بتولى إدارة شئون الإمبراطورية الرومانية ومقر الجالس على عرشها . وتمت عمليات البناء

(1) Runciman, op cit, 13.

والتعمير بعد خمس سنوات ونصف سنة ، واحتفل الامبراطور بانتقال ملكه إلى العاصمة الجديدة فى ١١ مايو سنة ٣٣٠م . وأطلق قنسطنطين على هذه المدينة اسم روما الجديدة تشبها بروما القديمة ، ولكن رعاياه أبوا إلا أن يسموها القسطنطينية نسبة إليه واعترافا بفضله ، شأن أى عمل جليل يقرن دائماً باسم صاحبه[1] .

وهكذا ارتفعت مدينة بيزنطة ، المستعمرة الإغريقية ، إلى مصاف المدن الكبرى العالمية ، واستطاعت أن تظل محتفظة بمكانتها السامية التى نالتها إلى أمد طويل. ذلك أن العناصر الجرمانية المهاجمة لأطراف الإمبراطورية الرومانية استطاعت أن تستولى على الأراضى الرومانية فى غرب أوربا وأسست لنفسها هناك دولا ، ولكنها لم تستطع القيام بأشباه ذلك فى الأراضى الرومانية فى الشرق بفضل يقظة القسطنطينية وأباطرتها . وحدا هذا المظهر الجديد إلى تسمية التراث الباقى من الإمبراطورية الرومانية باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، أوالإمبراطورية البيزنطية نسبة إلى الإسم القديم لحاضرة الإمبراطورية ، ودلالة على العهد الجديد الذى أخذ يظل بلاد القسم الشرقى من الامبراطورية العتيدة .

القسطنطينية البيزنطية :

لم يكن ارتفاع مدينة بيزنطة إلى مصاف العواصم الكبرى أمراً أفقدها طابعها القديم أو أكسبها سمة جديدة . إذ ظلت هذه المدينة محتفظة بطابعها الإغريقى دون أن تؤثر عليها اللاتينية السائدة فى روما العاصمة القديمة . فاضطر الأباطرة الذين أقاموا بها أن يعرفوا اللسان اليونانى حيث عاشوا فى وسط جديد يتحدث بهذه اللغة ، ويحرص على الاحتفاظ بتراثه الثقافى الإغريقى . كذلك جهد أولئك الأباطرة الذين أقاموا فى العاصمة الجديدة على الإفادة من مميزات مدينتهم الطبيعية واستغلالها لما فيه صالح الدفاع عنها . ومن ثم أضحت هذه المدينة

(1) Runciman, op cit, 14.

رغم توالى العصور ثابتة الدعائم، حرية أن تجمع بين اسمها القديم لخلود مظاهرها القديمة و بين اسمها الجديد لمكانتها الجديدة فى الامبراطورية الرومانية الشرقية.

ورسم الامبراطور قسطنطين لخلفائه من بعده السياسة التى يسيرون عليها للنهوض بأمر عاصمة ملكهم الجديدة، وتوجيهها لمهمة الدفاع عن كيان امبراطوريتهم. ونجحت سياسته لأنها قامت على القواعد الرئيسية الكبرى التى حرص القدامى على اتباعها لإعلاء شأن مدنهم والمحافظة عليها. فحصن الامبراطور قسطنطين عاصمته بأن بنى لها حائطا فى الجهة البرية يمتد من البسفور إلى القرن الذهبى، بحيث أصبح هذا الحائط قاعدة المثلث الذى قامت عليه بيزنطة. ولكن المدينة لم تلبث إن اتسعت بسبب كثرة سكانها، مما اقتضى إحداث تجديدات وتغييرات جوهرية فى وضع الحائط وبنائه. فكان الحائط ينقل تدريجيا إلى المنطقة الخلفية بحيث يضم البقاع الجديدة التى تعمر بسكان العاصمة[١].

وكان يدفع الأباطرة على تجديد هذا الحائط أيضا باستمرار الزلازل التى تكرر حدوثها فى منطقة القسطنطينية وتحطيمها بعض تحصيناته. وكان أهم هذه الهزات الأرضية الزلزال الذى حدث سنة ٤٤٧م وإصابته الحائط بأضرار جسيمة. فاقتضى ذلك تجديد بناء أسوار المدينة وحائطها، وظلت على هذا الطابع الأخير دون تغييرات جوهرية[٢] حتى وقفت أمامها جيوش المسلمين. ويعتبر هذا الحائط جزء لا يتجزأ من المدينة ومن نظام تخطيطها، كما أنه كان أول نقطة فى سياسة الامبراطورية العامة فى تنسيق وسائل الدفاع عن أراضيها، حتى أصبحت شئون هذا الحائط المقياس الذى يتحكم فى طول أعمار الحكومات البيزنطية وقصرها.

وانقسم هذا الحائط إلى عدة مناطق لكل منها تحصيناتها الخاصة. فكان يشمل جداراً داخليا يحيط بمبانى المدينة ويكون خط الدفاع الرئيسى عنها.

(1) Bury, op cit, 68.

(2) Ibid, 70.

ولذا بلغ سمك هذا الجدار ١٤ قدما ، عليه أربعة وتسعون برجا شديدة الارتفاع، ويبعد كل واحد عن الآخر بمسافة قدرها حوالى ٥٠ مترا . وكانت هذه الأبراج مقرّ حراس يرابطون فيها بصفة دائمة ، وعلى أهبة الاستعداد لرد أى عدوان يقع على المدينة . إذ يشتمل البرج على دهليزين ، يحوى أحدهما الذخيرة والعتاد الضرورى والآخر يقيم به الجند . ثم يحيط بهذا الجدار الداخلى سور خارجى يفصل بينهما مسافة سعتها تتفاوت بين خمسين إلى أربعة وستين قدماً (١) .

والسور الخارجى أقل سمكا من الجدار الداخلى، إذ يتفاوت سمكه بين قدمين وست أقدام ونصف قدم . وله تقريباً نفس أبراج الجدار الداخلى ، إذ تبلغ ستة وتسعون برجا يتفاوت ارتفاع كل منها بين ثلاثين وخمسة وثلاثين قدما . وأحاط بهذا السور جسر من الأرض عرضه ٦١ قدما ، ثم يدور حول هذا الجسر خندق عرضه كذلك ٦١ قدما ، ولكن عمقه يتفاوت من مكان إلى آخر . وهذه الأسوار البرية أتمت حلقة تحصين القسطنطينية ، التى تولى البحر حماية جهاتها الثلاثة الأخرى (٢) . ويتضح من استعراض هذه الأسوار وتحصيناتها مدى مابذلته السلطات البيزنطية من نفقات فى سبيل صيانتها والاحتفاظ بها معدة دائماً لدفع الأخطار عن المدينة .

وكانت تجتاز هذه الأسوار وتحصيناتها من عشرة أبواب رئيسية ، خمسة منها خصصت للأغراض الحربية وانتقال الجيوش عبرها ، والأخرى اقتصرت على استعمال المدنيين وشئونهم . ورتبت هذه الأبواب بحيث يكون هناك باب حربى وعلى بعد منه باب مدنى ثم باب حربى، وهكذا حتى يتم وضع الأبواب الحربية والمدنية بالتبادل عبر الأسوار. وكانت أعظم هذه الأبواب وأهمها « باب الذهب » الذى شيده الامبراطور تاوداسيوس العظيم (٣٧٩ — ٣٩٥م) تخليداً لذكرى

(1) Bury, op cit, 70 , 71.

(2) Ibid, 71,

انتصاره فى القضاء على ثورة عاتية أعلنها أحد أعدائه ومنافسيه . واشتمل هذا الباب على ثلاث فتحات أشبه بأبواب دمشق الرئيسية ، منها فتحة كبرى فى الوسط وعلى جانبيها الفتحتان الأخريتان . وكان هذا الباب أقرب أبواب المدينة لبحر مرمرة ويتلوه سائر الأبواب الأخرى التى تضمها الأسوار [١] .

أما الأبواب الأربعة الأخرى الرئيسية الحربية ، فكانت تحمل أسماء « باب ميلانتياس Melantias » و « باب ريجيون Rhegion » و « باب القديس رومانوس St. Romanus » و « باب خاريسيوس Charisius » . وكان الجزء من السور الممتد من باب القديس رومانوس إلى باب خاريسيوس يعرف بالحائط الأوسط ، واستهدف دائماً لهجمات الأعداء على المدينة ، حيث اعتبروه أصلح بقعة للهجوم على قلب المدينة . على أن هذه الأبواب قسمت سور المدينة إلى ست مناطق حربية للدفاع عنها ، قام بحراسة كل جزء منها فيلق من فيالق الجيش ، يتعاونون فيما بينهم بما يحقق للمدينة السلامة والطمأنينة [٢] .

وإلى جانب هذا السور البرى العظيم أنشأ الأباطرة جدراناً للدفاع عن المدينة من ناحية البحر . وكانت تحيط بجميع الجهات البحرية ، وتعتمد على القلاع والحصون أكثر من اعتمادها على سمك الجدار وضخامته . فكان على امتداد القرن الذهبي وبحر مرمرة أسوار بحرية تتصل بخط الدفاع البري الذى تم إنشاؤه فى القرن الخامس الميلادى . وأصبحت المدينة الجديدة التى أسسها الإمبراطور قسطنطين تامة الحصون ومستكملة لوسائل الدفاع عنها على عهد خلفائه [٣] . وكان الدافع على هذا النشاط الحربى الذى بذله الأباطرة لإعداد القسطنطينية رغبتهم فى جعل عاصمتهم تبذ روما العاصمة القديمة فى المنعة والقوة ، وتشجيع الناس

---

(1) Bury, op cit 71.
(2) Ibid, 71 , 72.
(3) Ibid, 72.

على الانتقال إليها بجعل وسائل الطمأنينة مكفولة لهم . وقد وقفت هذه الأسوار سداً منيعاً حتى بطش بها المسلمون على عهد الأمويين ثلاث مرات كبرى .

وقامت إلى خارج أسوار القسطنطينية خلف القرن الذهبي ضاحيتان هامتان من ضواحى المدينة ، أشبه بإقليم الغوطة الواقع خارج أسوار دمشق . وكانت هذه الضواحى مهمة فى حياة القسطنطينية لأنها تطل على القرن الذهبى أعظم موانى العاصمة . ولذا حرصت السلطات البيزنطية على إيجاد حلقة اتصال بينها و بين هذه الضواحى ، فأعدت سفناً منظمة تعبر الخليج جيئة وذهابا ، فضلاعن إنشاء جسر خشبى عليه ، ولكن لم يلبث أن أعيد بناء هذا الجسر من الحجر [١] . وكانت هذه الضواحى قبلة أنظار مهاجمى القسطنطينية ، يعملون على الاستيلاء عليها لعرقلة حركات الأساطيل فى القرن الذهبى ، فضلا عن قطع الأمداد التى تأتى إلى العاصمة من هذه الناحية .

واهتمت السلطات فى العاصمة بالموانى التى ترسوا بها الأساطيل المدافعة عنها. فإلى جانب القرن الذهبى كان للمدينة موانى أخرى صغيرة تطل على البسفور ، منها ميناء اليوثريوس (El eutherius) الذى عرف فيما بعد باسم ميناء تاوداسيوس، وكذلك ميناء أياصوفيا . ولعبت هذه الموانى رغم صغرها دوراً هاماً فى تسهيل الملاحة فى مياه القسطنطينية . إذ كانت تجد السفن فيها أماكن هادئة تأوى إليها عند اشتداد التيار المتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة وهبوب الرياح الشمالية العاصفة . فقد ترتب على هذا التيار والرياح معاً عرقلة سير السفن التى تبغى الطواف حول رأس مدينة القسطنطينية ودخول القرن الذهبى ، قاصدة ميناءاً فى هذا الخليج يدعى « بروسفوريانوس » (Portus prosphorianus) ، تلقى عنده مراسيها [٢] .

---

(1) Bury, op cit, 72.
(2) Ibid, 71, 72.

وكان الميناء الأخير فى القرن الذهبى محصنا بسلسلة موضوعة فى مدخل الخليج تمنع السفن التى لا يرغب فيها من الدخول ، شأن الموانى الهامة فى العصور الوسطى . وبذلك استطاعت القسطنطينية أن تنظم حركة الملاحة فى مياهها المحلية لسفنها التجارية وأساطيلها الحربية ، وفى نفس الوقت جهدت فى منع الأعداء من الاستيلاء على هذه الموانى الصغيرة أو الاستفادة منها فى حصار المدينة ، ولا سيما فى الاقتراب من الميناء الأخير فى خليج القرن الذهبى . إذ كان هذا الميناء يقع بالقرب من « باب الذهب » فى الركن الجنوبى الغربى للمدينة ، ويعتبر مفتاح الطريق الذى تدخل منه الامداد الحربية وغيرها إلى القسطنطينية . وظل هذا الميناء صعب المنال على القوى المهاجمة للعاصمة بسبب صعوبة التيارات المائية التى تدفع السفن الآتية من بحر مرمرة ، وإن كان كثيراً ما نال هجمات مفاجئة من السفن التى تأتى من البحر الأسود . ومن ثم اهتمت السلطات فى العاصمة بتقوية باب الذهب المشرف على هذا الميناء حتى أصبح أهم الأبواب الحربية فى المدينة[1] .

وكانت جهات القسطنطينية المطلة على القرن الذهبى تشمل أهم مرافق العاصمة . ففى الركن الشرقى للمدينة الذى يحده القرن الذهبى والبسفور يوجد قصور الأباطرة والملعب (الهبدروم) وكنيسة أياصوفيا[٢] . ويصل بين هذه الجهات الهامة طريق رئيسى يعرف بالشارع الأوسط (Mesé) أشبه « بالطريق المستقيم بدمشق » . وكان هذا الطريق طويل ، على جانبيه أعمدة تعطى للمدينة طابعاً شرقياً[٣] . ويمتد هذا الشارع من باب الذهب الذى اعتاد كبار الزائرين الذين يفدون إلى العاصمة الدخول منه . ويؤدى الطريق إلى نصب من الحجر يتخذ

---

(3) Bury, History of the Later Roman Empire, 52 , 53.

(2) Bury, op cit, 52 , 53.

(3) Ibid, 53.

نقطة مركزية تقاس منها الأبعاد (Milestone) . ولم يكن هذا النصب مجرد عمود حجرى ، وإنما هو عبارة عن مبنى مسقوف مفتوح من الجوانب ، ويحمل السقف على سبعة أعمدة ، بينها تماثيل للامبراطور قسطنطين الكبير مؤسس المدينة ، وأمه القديسة هيلانه وغيرها من التماثيل التى تمثل الشخصيات الكبرى للامبراطورية . وكان الأباطرة يتخذون من هذا البناء نقطة تتجمع عندها الوفود عند القيام بالمواكب الرسمية(١) .

وكان العابر لهذا الطريق يرى بعد أن يجتاز هذا النصب الحجرى قبة كنيسة أياصوفيا الهائلة ، التى بناها الإمبراطور جستنيان . وعندما يتجه الزائر لدخول هذه الكنيسة من الباب الغربى يجد على يمينه الملعب (الهبدروم) ، مقر لهو أهالى العاصمة وندوة اجتماعاتهم . وإذا ما انتهى الزائر من مشاهداته للكنيسة وخرج من بابها الجنوبى رأى أمامه القصر الأمبراطورى الذى تدار منه دفة شئون الإمبراطورية (٢) .

واهتم الأباطرة البيزنطيون بتهيئة أسباب الرفاهية لسكان عاصمتهم . وكان موضع رعايتهم جميعاً تزويد المدينه بالمياه ولا سيما أنها عرضة للحصار من شتى الأرجاء . واتبع الأباطرة البيزنطيون نهج أسلافهم الأباطرة الرومان فى جعل سياسة تزويد المدن بالمياه من مهام الدولة الرئيسية . فالمعروف أن أولئك الأباطرة أجادوا فن بناء خزانات المياه والقناطر فى عاصمتهم روما ، وفى غيرها من المدن الكبرى فى الولايات التى دخلت فى حظيرتهم . ووجد البيزنطيون مهمة الحصول على المياه سهلة ميسورة من الينابيع التى تفيض بها التلال الشمالية فى المدينة . وأعدوا خزانات مغطاة ومكشوفة كذلك فى سائر أنحاء المدينة لتزويدها بالمياه .

(1) Bury, op cit, 54.
(4) Ibid, 54.

وإلى جانب ذلك كان هناك نهر اسمه ليكوس (Lycus) يجرى بعرض المدينة ويصب فى بحر مرمرة [١] .

وكان المسلمون يعملون جاهدين على دراسة الموقع الاستراتيجى لمدينة القسطنطينية وما بها من حصون ومرافق لتدميرها فى حصارهم . وكان الأمويون واضعى الأسس الرئيسية فى سياسة المسلمين الخاصة بالوقوف على مظاهر الضعف والقوة عند أعدائهم البيزنطيين للاستفادة منها . ونتج عن هذه السياسة وحملات الأمويين المتكررة على القسطنطينية أن عرف المسلمون فيما بعد جميع أحوال هذه المدينة ، وحصلوا على وصف تام لأسوارها وحصونها . وخلفت لنا المراجع الإسلامية صورة عن أوصاف هذه المدينة تجلت فيها الدقة وتحرى الصدق .

وجاء فى تقارير المسلمين عن القسطنطينية ما يأتى : « وما وجدناه من صفة مدينة الرومية (وهى القسطنطينية) ثلاث نواح ، منها فى البحر العظيم مما يلى القبلة والمشرق والمغرب ، والناحية الرابعة مما يلى البر . . . ، يعنى الشمال . وطولها من الباب الغربى إلى الشرق ثمانية وعشرون ميلا ، ولها حائطان من حجارة ، وبينهما فضاء ستون ذراعا . وعرض السور الخارج ثمان أذرع وسمكه اثنتان وأربعون ذراعا ، وفيما بين السورين نهر يسمى فسطيطاس ...) وهناك نقير من المغرب إلى المشرق) يجرى فيه لسان من البحر، وتجرى السفن فى هذا النقير بحمولتها» .

« ولقسطنطينية قناة ماء يدخل إليها من بلد يقال له بلغر (بلاد البلغار) ، ويجرى إليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوماً ، فينقسم إذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث ، فثلث يذهب إلى دار الملك ، وثلث يذهب إلى حبوس المسلمين ، والثلث الثالث يذهب إلى حمامات البطارقة ، وسائر أهل المدينة فإنهم يشربون الماء الذى بين العذب والملح » [٢] .

(1) Bury, History of ths Later Roman Empire (1931), 73.

(٢) العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ؛ انظر ملحق ١ من ص ١٧٥ — ١٧٨ .

وهكذا كان العصر الأموى أهم حقبة فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، علت فيه راية الجيوش الإسلامية المظفرة فى أراضى الدولة البيزنطية ، وعادت محملة بأثمن المعلومات التى تفيد سياسة دولتهم العامة . واضطلعت دمشق فى هذا الدور برسم الخطوط الكبرى لهذه السياسة التى جعلت هدفها الأول إذلال عاصمة البيزنطيين، وقطع خط الرجعة على أى تفكير قديدور بخلد أولى الأمر فيها على مناوأة المسلمين والعمل على استرداد الأراضى التى استولوا عليها واستظلت براية الإسلام . فأصبحت دمشق طوال عصر الأمويين الزاهر مركزاً لعمليات حربية كبرى اتجهت الواحدة تلو الأخرى صوب القسطنطينية ، تلقى الحصار على أسوارها وتذيق أهلها صنوف المتاعب والضنك .

وآتت سياسة دمشق الحربية أكلها طوال العهد الأموى ، إذ ظلت الأراضى الإسلامية ،ولاسيما مناطق التخوم بها بعيدة المنال عن أيدى البيزنطيين. ونعم المسلمون بالهدوء والطمأنينة فى بلادهم ، وغدت دمشق نفسها عنوان هذه المنعة والعزة والسؤدد ، فضلا عن الهدوء والاستقرار . فلم تستطع جيوش البيزنطيين أن تطرق أبواب هذه العاصمة الفتية ، وظلت مبعثرة فى أنحاء آسيا الصغرى تعمل على عرقلة زحف المسلمين المظفر دون جدوى . إذ عهد الخلفاء الأمويون بقيادة جيوشهم إلى كبار رجال دولتهم ، وجعلوا أبناءهم فى صفوف الجند الإسلامى المحارب لينالوا شرف الجهاد فى سبيل الله و إعزازدينه . وكان ميدان القسطنطينية وحده هوالذى اختص بمشاهدة أعظم رجالات الامويين وأبناء خلفائهم وأخواتهم كذلك ، يحاربون فى صفوف المسلمين للحد من شوكة القسطنطينية ، رمز عناد البيزنطيين فى التمسك بأحلامهم القديمة فى إعادة دولتهم إلى سالف هيبتها ومجدها.

معاوية والقسطنطينية

فتى العرب وحصار القسطنطينية

بعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبى سفيان ، وصار خليفة العالم الإسلامى الذى غدت حاضرته دمشق ، بدأ يعمل على تصفية الموقف المعلق بين دولته والامبراطورية البيزنطية . فمنذ وقعة « ذات الصوارى » واستقرار أقدام المسلمين فى الشام ومصر دخل النزاع بين المسلمين والبيزنطيين فى مرحلة جديدة . فقد تخلت الامبراطورية البيزنطية بعد هزيمتها فى وقعة ذات الصوارى عن مشاريعها القديمة فى استعادة مصر والشام ، وأصبح الموقف الجديد يحتم عليها تعديل سياستها بما يتلائم مع ظهور المسلمين كقوة عظمى على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقى . ومن ثم كانت مسألة السيادة على البحر الأبيض المتوسط الشرقى هى شغل معاوية الشاغل ، وحجر الزاوية فى سياسته إزاء القسطنطينية التى جهدت على منع المسلمين من التوسع البحرى .

أدرك معاوية بثاقب نظره أن القسطنطينية عصب جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، تغذيها بالقوات والأمداد ، وتشجع أهاليها على شن الإغارات على سواحل المسلمين . وقوى هذا الاتجاه عند معاوية حملاته على قبرص ، ومنعها من أن تصبح قاعدة للبيزنطيين فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ويعد إدراك معاوية لقيمة القسطنطينية وأهميتها فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخ المسلمين السياسى من الدعائم الأساسية التى كتبت للمسلمين الخلود فى البحر الأبيض المتوسط ، القلب النابض للعالم القديم ومفتاح سيادته وزعامته . وجهد معاوية فى وضع خطة تهدف إلى ضرب القسطنطينية فى عقر دارها والإستيلاء عليها إذا تهيأت الظروف . وترك لخلفاءه من بعده طريقاً واضح المعالم للسير فيه من أجل رفع راية الإسلام

على مياه البحر الأبيض المتوسط .

استهل معاوية جهاده ضد القسطنطينية بعد أن نالت جيوشه قسطاً وافراً من المران الحربى على اجتياز آسيا الصغرى ، واطمأن إلى حسن تدريبها بعد الإغارات المتكررة التى شنتها على أراضى البيزنطيين . فأرسل حملة استطلاعية تمهيدية سنة ٤٩ هـ / ٦٦٨ م بقيادة فضالة بن عبيد الأنصارى إلى ضواحى القسطنطينية[1] ، لتعجم عود خط الدفاع البيزنطى الأمامى عن العاصمة . إذ تعتبر مدينة خلقدونيا ضاحية من ضواحى القسطنطينية على الشاطىء الأسيوى ، ومعقل لفيلق من الجيش البيزنطى مكون من حرس الامبراطور الخاص . واستطاع فضالة أن يكتسح المعاقل البيزنطية التى اعترضت طريقه حتى وصل مدينة خلقدونيا ، وأقام بها خلال فصل الشتاء الذى حل عليه بهذه المدينة[2] . وكانت العمليات الحربية تقف دائماً خلال هذا الفصل من السنة لشدة البرودة ، وظل طوال شتاء عام ٦٦٨/٦٦٩م ينظم قواته انتظاراً للأمداد التى كان يعدها معاوية بن أبى سفيان فى عاصمته دمشق.

وبذل معاوية جهوداً عظيمة لإعداد القوات الإسلامية التى رغب فى إرسالها لشد أزر جيش فضالة بن عبيد الأنصارى . فجعل على رأس هذه الحملة إبنه وولى عهده يزيد . واستهدف معاوية من وراء ذلك إعطاء ابنه فرصة يعلى فيها من ذكره واسمه فى ميدان الجهاد ضد البيزنطيين ، وليرد بذلك على الأشخاص الذين أبدوا إمتعاضهم من يزيد والمحاولات التى بذلها أبوه لأخذ البيعة له بالخلافة من بعده[3] . إذ صورت الدعايات المعادية لبنى أمية شخصية يزيد بحبها المجون والخلاعة ، وعدم أهليتها لتصريف شئون المسلمين . ومن ثم كان ميدان القسطنطينية خير

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ، ص ١٣٠ ؛
Hitti, History of Syria, 443.

(2) Ibid, 443.

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٣٠ ؛
Lammens, Etudes Sur Le Règne du Calife Omaiyade Mo, awia ler, 443,

مجال يدحض فيه يزيد افتراءات منافسيه وأعدائه ، ويعلن عن مواهبه الحربية وما اتصف به من شجاعة وإقدام .

وبلغ من اهتمام معاوية بأمر هذه الحملة وإكسابها طابع الجهاد المقدس ، أن ضم إلى ابنه شخصية كبرى من أصحاب الرسول الكريم ، وممن لعبت دوراً رئيسياً فى مؤازرته وفى نصرة دعوته . إذ اختار أبا أيوب الأنصارى ، الذى استقبل الرسول فى بيته بالمدينة ، وحارب إلى جانبه فى غزوة بدر ليرافق يزيد فى هذه الحملة . وكان الهدف من ذلك الإفادة من شخصية أبى أيوب فى تقوية روح الجند المعنوية وبث الثقة فى نفوسهم والتفاؤل الطيب [1] . وبعد أن تمّ جمع سائر الأمداد والعتاد توجهت الحملة بقيادة يزيد إلى مدينة خلقدونيا ، المقر الحربى الذى اتخذه فضالة مركزاً لإدارة دفة الهجوم على القسطنطينية .

وعلى ضفاف البسفور انضم يزيد إلى قوات فضالة ، وعبر مياه هذا المضيق إلى الشاطىء الأوربى ، وحقق لجنده سبقهم على أقرانهم من جند الإسلام فى مشاهدة أسوار القسطنطينية ، والوقوف أمامها يدقونها بآلاتهم الحربية ، ويعملون على تخريبها أو إحداث ثغرات فيها . وأظهر يزيد فى هذا الحصار من ضروب الشجاعة والبسالة ما أكسبه لقب « فتى العرب » [2] . ودونت المراجع سيرته وأعماله فى هذا النضال ، وكيف حاول أن يضم إليه بعض عرب الشام المسيحيين الذين استقروا فى القسطنطينية بعد استيلاء المسلمين على بلادهم . وكان معظم أولئك القوم من الغساسنة الذى فرّ زعيمهم جبلة بن الأيهم إلى بلاط البيزنطيين زمن الخليفة عمر بن الخطاب .

وأبدى الغساسنة عطفهم على القوات الإسلامية وميلهم إلى تشجيعها . فقد شاهد يزيد بالقسطنطينية أثناء حصارها قبتين عليهما ثياب الديباج ، ترتفع من إحداهما أصوات الدفوف والمزامير إذا أصاب المسلمون نجاحاً فى هجومهم ، على حين

---

(1) Lammens, op cit, 445, 446.
(2) Ibid, 446; Hitti, op cit. 443.

ترتفع أصوات القبة الأخرى بالتهليل عندما ينجح البيزنطيون فى صد هجمات المسلمين . فسأل يزيد عن هذه الظاهرة ، وعرف أن بالقبة المناصرة لجيوشه ابنة جبلة بن الأيهم ، وبالأخرى إبنة إمبراطور البيزنطيين ، وكل واحدة منهما تظهر السرور بما تفعله عشيرتها . وكان لذلك أعظم الأثر فى نفس يزيد الذى ضاعف من مجهوداته ليرضى شعور مناصر به من الغساسنة ، وليفوز بابنة جبلة بن الأيهم (١) .

وامتاز هذا الحصار بصبر المسلمين وجلدهم فى التضييق على سكان العاصمة البيزنطية ، حتى استشهد الجند دون خوف أو وجل . ونال هذا الشرف المقدس أبو أيوب الأنصارى نفسه الذى وافته المنية وهو يحاصر القسطنطينية ، ودفن بالقرب من أسوارها (٢) . ويعتبر هذا الحادث ذا نتائج كبرى فى التاريخ الإسلامى ، إذ ظل قبر أبى أيوب شاهداً يجذب أنظار المسلمين دائماً نحو عاصمة البيزنطيين ، ويلهب فى نفوسهم الرغبة فى إعادة الهجوم عليها مراراً وتكراراً . ونال هذا القبر تكريم المسيحيين اليونانيين المقيمين بالقرب منه لاعتقادهم أنه يجاب لهم الأمطار، وتعهدوه بالترميم والإصلاح . وقد اكتشف الأتراك العثمانيون موضع القبر عند حصارهم القسطنطينية سنة ١٤٥٣م وبنوا عنده مسجداً ، وأصبح أبو أيوب ، ذلك الشيخ التقى الذى كان من أنصار المدينة ، ولياً عند المسلمين والبيزنطيين والأتراك .

وفى صيف سنة ٦٦٩ م رفع المسلمون الحصار عن القسطنطينية ، بعد أن أثبتوا للبيزنطيين أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قوات الإسلام . وعادت الحملة الإسلامية إلى دمشق تستعد لمعاودة الكرة على حصار القسطنطينية . وقد خلفت هذه الحملة ورائها نتائج بعيدة المدى فى سياسة الامبراطورية البيزنطية ، إذ تولى العرش البيزنطى إذ ذاك الامبراطور قسطنطين الرابع ، وكان كأبيه قنسطانز الثانى من ألد الأعداء للمسلمين . فآثر هذا الامبراطور أن يسير قدما بسياسة أبيه وهى

---

(١) الأغانى ، ج ١٦ ، ص ٣٣ .

(2) Hitti, History of Syria, 444.

(3) Hitti, op cit, 444.

تأمين بلاده من هجوم المسلمين ، والتخلى تماما عن المشاريع القديمة التى تهدف إلى طرد المسلمين من الشام ومصر . ووجه هذا الامبراطور عنايته بصفة خاصة إلى تقوية وسائل الدفاع عن القسطنطينية والطرق المؤدية إليها ، و إحداث تغييرات جوهرية فى النظم الإدارية لامبراطوريته .

خط الدفاع البيزنطى عن القسطنطينية :

كان للحملة الإسلامية الأولى التى شنها معاوية بن أبى سفيان على مدينة القسطنطينية أثر كبير فى سياسة الأباطرة البيزنطيين ، إذ أقضت هذه الحملة مضاجعهم وجعلتهم يدركون أن مطرقة الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى مشارف عاصمتهم نفسها ، وأن المسلمين على استعداد لاستئناف حملاتهم على هذه المدينة بشكل أعنف وأقوى مما اضطلعوا به من قبل . واتجهت سياستهم إزاء هذا النشاط الإسلامى الحربى المضطرد إلى اتخاذ كافة الوسائل الممكنة التى تجعل عاصمتهم بعيدة عن أيدى المسلمين أو عرقلة زحف الجيوش الإسلامية عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، أو جعلها تصل إلى القسطنطينية وقد أنهكها التعب والكد .

و بدأ الأباطرة البيزنطيون ينفذون سياستهم الجديدة فى إقليم آسيا الصغرى ، الذى غدا بعد ضياع الشام ومصر أهم مورد تستمد منه الإمبراطورية الجند القادرين على القتال ، والأموال اللازمة للنهوض بمرافق البلاد والدفاع عن العاصمة (١) . فوضعوا للدفاع عن هذا الإقليم الذى أصبح خط الدفاع الأول عن القسطنطينية نظاماً حربياً بدأت نواته الأولى تترعرع منذ حركة الفتوحات الإسلامية الأولى على الشام ومصر ، ثم أخذت تنمو مع الزمن وتتطور بما يحقق

(1) Runciman, Byzantine, Civilisation 88 : Byzantium, 280. 285.

الأغراض المنشودة من هذا النظام الحربى الجديد . وتداول الأباطرة البيزنطيون العناية والاهتمام بهذا النظام الجديد حتى اكتملت صورته وأوضاعه .

وظهر الاهتمام الحقيقى بهذا النظام الحربى منذ عهد الإمبراطور هرقل ، الذى نالت جيوشه هزائم ساحقة متتالية على أيدى المسلمين . إذ دفعت هذه الكوارث المتلاحقة الإمبراطور هرقل إلى إنقاذ البقية الباقية من إمبراطوريته بآسيا الصغرى باتباع نظام إدارى يحقق لها الصمود أمام زحف المسلمين ، وسد الطرق الرئيسية بها المؤدية إلى القسطنطينية . وكان هذا النظام الإدارى الجديد ثورة على الأوضاع الإدارية القديمة التى كانت تسير عليها الإمبراطورية الرومانية منذ أواخر القرن الثالث الميلادى على عهد الإمبراطور دقلديانوس . إذ قام هذا الإمبراطور بإصلاحات فى إدارة إمبراطوريته هدفت إلى الفصل بين السلطتين الحربية والمدنية فى الأقاليم الرومانية المختلفة للحد من شوكة القادة الحربيين ، وللقضاء على الحركات الانفصالية التى أخذت تسرى فى أرجاء هذه الأقاليم [١] .

وظل نظام فصل السلطات الحربية والمدنية متبعاً فى أرجاء الدولة الرومانية حتى أبطله الإمبراطور جستنيان العظيم ، إذ رأى هذا الإمبراطور أن الأقاليم التابعة له ما زالت عرضة للاغارات والأخطار الخارجية رغم انتقال السلطان إلى مدينة القسطنطينية . وأيقن ألا سبيل للمحافظة على هذه الأقاليم ، ودرء الأخطار عنها إلا بصبغها بصبغة حربية تمكنها من الدفاع عن نفسها . وطبق هذه السياسة الجديدة فى إقليم إفريقيا الشمالية بعد أن طرد منها عنصر الوندال [٢] الجرمانى ، الذى انتزع هذه البلاد من أيدى البيزنطيين من قبل . فعين على إفريقيا رجلا جمع فى يده السلطة المدنية الخاصة بتصريف شئون هذه البلاد

---

(١) Vasiliev. Histoire de L' Empire Byzantin I. 76.

(٢) الوندال أحد العناصر الجرمانية التى أغارت على الامبراطورية الرومانية واقتطعت منها شمال افريقيا فى القرن الخامس الميلادى .

وأعمال القائد العام للجيش هناك « Magister Militum » (١).

واتبع جستنيان هذا النظام الجديد فى ولاية أرمينيا كذلك المعرضة دائماً لهجمات الفرس. فمنح القائد العام للجيش هناك « Magister Militum Per Armeniam » سلطات مدنية إلى جانب مهامه الحربية. فصار لحاكم أرمينيا الحربى الحق فى تصريف الشئون المدنية لهذا الإقليم وتنظيم أحوال الأهالى به (٢).

ولم تلبث الأحداث التى حاطت الإمبراطورية البيزنطية بعد عهد جستنيان أن عملت على تقوية دعائم هذه النظم الجديدة. إذ عانت الإمبراطورية منذ أواخر القرن السادس الميلادى، وهو القرن السابق مباشرة لحركات الفتح الإسلامى، ضعفاً مالياً أعجزها عن الاعتماد على الجيوش المرتزقة واصطناعها بالمال، واضطرت أمام الأخطار الخارجية المدلهمة أن تعتمد على أبناء أقاليمها أنفسهم، وتجندهم فى جيوشها. ونجح هذا النظام الجديد فى سائر الولايات حتى سار التجنيد وفق قواعد دقيقة متينة، وأصبح تحت تصرف حاكم كل إقليم جيش مدرب من أبناء البلاد (٣).

وحارب الامبراطور هرقل الفرس فى حملاته المظفرة بجيش عبأه على النمط السالف، أى من أبناء أقاليم الامبراطورية. وكانت غالبية الجند من الفرق الأرمينية وفرق تراقيا والأقاليم الشرقية للدولة، إلى جانب فرق الامبراطور الخاصة، (وتعرف الأخيرة بالحرس الامبراطورى Obseqium, obsequentes) (٤). وبعد سقوط الشام فى أيدى المسلمين ارتد جيش هرقل السالف إلى آسيا الصغرى، التى غدت منذئذ موضع عناية الأباطرة لمواجهتها لدولة المسلمين الفتية، لأنها أصبحت

(1) Bury, op cit II 346

(2) Ibid. 346.

(3) Byzantium, 297.

(4) Byzaztium, 297;
Bury, op cit, 348.

أهم مورد تعتمد عليه الدولة فى تجنيد جيوشها وتعبئة أساطيلها . ومن ثم اقتضى الدفاع عن الأراضى البيزنطية وضع آسيا الصغرى فى حالة دفاع دائم ، ولا سيما بعد أن أخذت جيوش المسلمين تطرق منافذها ومسالكها متجهة لحصار القسطنطينية . فاتجه الأباطرة إلى تطبيق سياسة الامبراطور جستنيان العظيم مع إدخال تعديلات هامة تتفق والدفاع عن العاصمة .

وكان النظام الجديد الذى طبقه الأباطرة البيزنطيون على آسيا الصغرى هو توزيع فيالق من الجيش (Themata) على جهات منها تعسكر فيها بصفة دائمة . ثم منح الأباطرة الجند المقيمين فى هذه الجهات قطعاً من الأرض يستغلونها ويتمتعون بخيراتها ، لترغيبهم فى الاستقرار بأماكنهم وتشجيعهم على الاستماتة فى الدفاع عنها . وإلى جانب ذلك منح الأباطرة قائد الفيلق فى الإقليم سلطات مدنية واسعة ، وأصبحت آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية ، يقيم بكل منها فيلق من الجيش ، يجمع قائده بين مهام الاشراف على جنده وأعباء الحاكم المدنى [١] .

وعرف هذا التقسيم الإدارى الجديد ، الذى كانت الوحدة فيه الإقليم الحربى ، باسم نظام الأجناد أو البنود ، حيث كان لكل جند أو فيلق بند خاص أو علم كبير يميزها بعضها عن بعض [٢] .

ونشأت بآسيا الصغرى فى القرن السابع الميلادى إبان اشتداد الحملات الإسلامية على القسطنطينية ثلاثة بنود كبرى لعبت دوراً هاما فى سير العمليات الحربية . وسمى إثنان من هذه الأقاليم الحربية باسم الفيلقين الذين أقاما بها ، ١
على حين أخذ الإقليم الحربى الثالث إسماً جغرافياً . فسمى الإقليم الأول باسم

---

(١) Runciman, op cit, 88.

(٢) ذكر المسعودى فى كتابه التنبيه والاشراف ، ص ١٥٠ : أن نظام البنود أو الأقاليم الحربية أشبه بنظام الأجناد الذى انقسمت إليه بلاد الشام ، فقال « أرض الروم (البيزنطيين) واسعة فى الطول والعرض ، مقسومة من قديم الزمن على أربعة عشر قسما ؛ أعمال مفردة تسمى البنود كما يقال أجناد الشام . »

البند الأناتولى (Anatolic Theme) ، وهى تسمية ترجع إلى الفترة السابقة مباشرة لظهور الإسلام ، إذ كانت كلمة الحاكم الأناتولى — ومعناها الشرقى — تطلق على القائد العالم للولايات الشرقية من الامبراطورية (Magister Militum Per Orientum) ، والتى كانت تضم سوريا وآسيا الصغرى . وعندما استولى المسلمون على الشام انسحبت الفرق الخاضعة لذلك القائد العام نحو الغرب ، واستقرت فى الجهات الواقعة شمال جبال طوروس للدفاع عن آسيا الصغرى . وتبعاً للنظام الجديد (أى نظام البنود) تلاشت سلطة القائد الشرقى العام ، ولكن إسمه لصق بالإقليم الجديد الذى استقرت به البقية الباقية من جنوده ، وأصبح قائدها الجديد يتولى تصريف مهام هذه المنطقة فى النواحى المدنية إلى جانب رعاية فيلقه الحربى [1] .

وأخذ البند الثانى اسمه من الفرق التى كونت حرس الامبراطور هرقل . وقد استقرت هذه الفرق بعد عودتها إلى آسيا الصغرى فى الجهات المحيطة ببحر مرمرة ، وعرفت باسم بند الأبسيق (Opsikion — أى إقليم فرق الحرس الامبراطورى) . واختصت هذه المنطقة بالحرس الامبراطورى لمواجهتها لشاطئ القسطنطينية ، وضرورة انتقاء الجند المدافع عنها لصد الحملات المباشرة على العاصمة . ودأبت الامبراطورية البيزنطية على تقوية هذا البند بإمداده بعناصر من جماعات السلاف التى أسرتها فى حروبها ، وعرفت بالبأس وشدة المراس . ففى سنة ٦٨٧/٦٨٨ م سهلت سبل الإقامة فى هذا البند لبعض العناصر السلافية لشد أزر الفرق الامبراطورية به . وكان هذا الإقليم الحربى يمتد من بحر مرمرة إلى مسافة كبيرة داخل آسيا الصغرى ، أقامت فى جهاته الساحلية فرق بحرية (Peratic Themes) لصد سفن المهاجمين عن العاصمة ، على حين استقر

(1) Bury, op cit, 347, 348; Vasiliev, op cit, 301

فى جهاته الداخلية فرق من الخيالة (Cavallarii) لعرقلة الزحف البرى [1].

وكان البند الثالث الهام فى آسيا الصغرى هو بند أرمينيا ، الذى اشتمل على الأراضى المواجهة لتلك المنطقة من أرمينيا التى خضعت لسلطان المسلمين . واهتم البيزنطيون بهذا البند الرئيسى لمواجهته لبعض المنافذ التى سلكتها جيوش المسلمين فى إغاراتهم الصيفية والشتوية على آسيا الصغرى ، ومحاولتها الاتصال بغيرها من القوات الإسلامية الزاحفة من الشام على القسطنطينية [2] .

وظهر إلى جانب هذه البنود الثلاث بآسيا الصغرى نواة بند آخر ، أخذ صورته الكاملة فى مطالع القرن الثامن الميلادى بعد آخر حملة أموية كبرى على العاصمة البيزنطية . وكان هذا الإقليم الحربى الصغير يعرف ببند كبيرا (Kibyrrhaitoi) . وظهر نشاطه المبكر أثناء سير السفن الإسلامية بالقرب من ساحل آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة لمعاونة الحملات الإسلامية البرية فى حصار القسطنطينية . واشتمل هذا الإقليم على الجهات الساحلية من آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة ، التى استمدت الامبراطورية البيزنطية منها خيرة بحارتها وأساطيلها . ولكن إزاء حملات المسلمين اتسع نشاط هذا الإقليم ، واضطرت الامبراطورية البيزنطية إلى تقسيمه قسمين ، الأول يضم الجهات الساحلية الجنوبية ، والجنوبية الغربية من آسيا الصغرى واحتفظت بالاسم القديم أى بند كبيرا . أما القسم الثانى فغدا بنداً بحرياً جديداً يضم جزر بحر إيجة ، ويعرف بالبند الايجى [3] .

ونظمت السلطات البيزنطية وسائل التعاون والنشاط البحرى بين هذين البندين بما يحقق الدفاع عن القسطنطينية . فكان لكل بند منهما أسطول خاص عليه أمير بحر (Drungarius) يشرف عليه . ولكن خضع هذان الأسطولان لسيادة أمير البحر العام المهمين على الأسطول الراسى بمياه القسطنطينية ، وكان هذا

---

(1) Bury, op cit, 348, 349.
(2) Bury, op cit, 341, 342.
(3) Ibid, 342.

القائد (Strategus of the Carabisiani) يزود معاونيه بالتعليمات ، ويرسم لهم الخطط اللازمة لمواجهة أي عدوان تتعرض له العاصمة [1] .

وكان ذلك الركن من الشاطىء الأوربى المواجه لآسيا الصغرى ، والذى تقع عليه مدينة القسطنطينية ، ينتظم بنداً قائماً بذاته ، وإن كان يعتمد فى الدفاع عن نفسه على بنود آسيا الصغرى السالفة . وهيأ البيزنطيون لهذا الإقليم سبل الدفاع عنه ، بما يمكنه من الصمود طويلا أمام أى حصار أو هجوم كبير . فنظموا موارده الغذائية وكيفية الحصول عليها ، لأنها العمود الفقرى فى مقاومة السكان المهاجمين . وكانت هذه المؤن تأتى إليه من اليونان وجزر بحر إيجه ، ومن سهول القمح الواقعة على شواطىء البحر الأسود الشمالية . وقد عرف المسلمون هذه الحقيقة وأدركوا أن قطع الأمداد والمؤن عن إقليم القسطنطينية ، هو الهدف الذى يجب أن يصلوا إليه ليصيبوا من عاصمة البيزنطيين مقتلا .

حرب السنوات السبع (٥٤ — ٦٠ هـ / ٦٧٤ — ٦٨٠ م)

فى الوقت الذى جهدت فيه الإمبراطورية البيزنطية على إعادة تنظيم أحوالها الإدارية ، وتدعيم نظام البنود ، أو الأقاليم الحربية ، بعد أن أحست وصول يد المسلمين القوية إلى أسوار عاصمتها ، صمم معاوية بن أبى سفيان على إعداد حملة ثانية لتقويض دعائم البيزنطيين . فاستهدف الاستيلاء على عاصمتهم ، قبل أن تفيق دولتهم من حالة الفوضى والقلق التى سادتها ، حيث كانت تجتاز مرحلة انتقال من عهد العظمة والتوسع إلى عهد الانكماش والانطواء . فبعث فى سنة ٦٧٣م حملة بقيادة عبدالرحمن بن خالد إلى القسطنطينية ، يؤازرها أسطول بحرى . وحل فصل الشتاء والقوات الإسلامية فى طريق زحفها عبر آسيا الصغرى ،

---

(1) Runciman, op cit, 150; Byzantium 304.

فألقت السفن مراسيها على شاطئ، قيلقيا حتى يتحسن الجو ويصبح ملائماً لاستئناف السير(١) .

وبمطلع الربيع عززت قوات خالد البحرية بوصول أسطول إسلامي آخر، واستأنفت القوات جميعها الزحف على القسطنطينية . وفى شهر ابريل اجتاز الأسطول الإسلامي مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة من البيزنطيين ، إذ كانت البنود البحرية لا تزال فى دور التكوين ، عاجزة عن الصمود أمام سفن المسلمين الفتية . وفى نفس الوقت كانت الجيوش الإسلامية البرية قد اجتازت آسيا الصغرى فى سهولة ويسر لاضطراب أحوال بنودها البرية ، وتفشى التنازع والتباغض بين قادتها (٢) .

واستولى المسلمون على جزيرة كزيكوس (أرواد) فى مياه القسطنطينية واتخذوها مقراً لإدارة حملتهم على العاصمة . فكانت الأساطيل الإسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية ، على حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تقف سفنه بين رأس هبدومون (Hebdomon) التى تبعد سبعة أميال عن أسوار المدينة ، وبين رأس كيكليبيوس (Kyklobios) الواقعة بالقرب من باب الذهب . واستمر الحصار البرى والبحرى للقسطنطينية من شهر ابريل إلى سبتمبر ، تتخلله مناوشات بين أساطيل وجنود المسلمين والبيزنطيين . وجرت خطة الحصار على اصطدام بين سفن المسلمين والبيزنطيين من الصباح إلى المساء ، على حين تتراشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطى المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام (٣) .

واستطاعت المدينة أن تصمد أمام الحصار طيلة هذا الوقت لأن الإمبراطور

---

(1) Bury, op cit II, 310.
(2) Ibid, 310
(3) Bréhier, Vie et mort de Byzance, 63;
Bury, op cit, 310,

البيزنطى قسطنطين الرابع ملأ خزائنها بالمؤن والعتاد ، وأصلح أسوارها قبل هجوم المسلمين بزمن يسير . على أن المسلمين أظهروا من المثابرة والجد ما أثار قلق سكان القسطنطينية . إذ فى شهر سبتمبر عادت السفن والجند الإسلامى إلى مقرها بجزيرة كزيكوس، تقضى بها فصل الشتاء وتنتظر تحسن الأحوال الجوية لإعادة الحصار على المدينة . وبمطلع الربيع عادت السفن الإسلامية محملة بالجند لحصار القسطنطينية براً وبحراً على النحو السالف ، وأذاقت حاميات المدينة أشد أنواع الضنك والأزهاق . وقد اقتصرت العمليات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين على الربيع والصيف فقط طيلة السنوات السبع التى استغرقتها عملية حصار القسطنطينية فى هذه المرة الثانية [1] .

وهذا الجهاد الإسلامى الرائع فى حرب السنوات السبع يقلل من الإشادة بالنار البحرية التى استعملها البيزنطيون لأول مرة أثناء هذا الحصار . إذ تذكر المراجع الأوربية أن البيزنطيين جهزوا سفناً مزودة بآلات خاصة تقذف نوعاً من النار لا يطفئها الماء ، وإنما يزيدها اشتعالا ، واستطاعوا أن يحرقوا كثيرا من السفن الإسلامية بهذا السلاح الجديد . على أن هذا السلاح لم يثن المسلمين عن عزمهم ، ولم يفت فى عضدهم ، أو يبعث فى نفوسهم القنوط ، إذ تابعوا الحصار كلما تهيأت لهم العوامل الطبيعية من اعتدال المناخ أثناء الربيع والصيف .

وساهم كثير من قادة الأمويين فى إدارة عمليات هذا الحصار ، فخلف القائد عبد الرحمن بن خالد شخصية أخرى كبيرة ، وهو سفيان بن عوف . واشترك ولىّ العهد يزيد بن معاوية فى حصار القسطنطينية كذلك ، حتى أن هذه الشخصيات الهامة ألهبت روح الجند الإسلامى حماساً ، وشجعته على متابعة النضال طيلة السنوات السبع . ولكن فى نهاية تلك الفترة أحس معاوية بن أبى سفيان دنو أجله ، وأن صالح الدولة الإسلامية العام يحتم سحب قواته المرابطة أمام القسطنطينية .

---

(1) Brehier, op cit 63.

وهكذا كان معاوية ثاقب النظر كذلك فى أيامه الأخيرة حين اتخذ هذا القرار الهام ، إذ أحس أن بيعة ابنه يزيد[١] لابد أن تلقى مقاومة فعالة حين تؤول مقاليد الدولة الإسلامية إليه ، وأن المحافظة على الخلافة فى بيته تحتم وضع أكبر قوات ممكنة تحت تصرف يزيد لمواجهة ماقد ينشأ من مصاعب طارئة . ومن ثم دخل معاوية فى مفاوضات مع الدولة البيزنطية تمهيداً لسحب قواته المحاصرة للقسطنطينية وإعادتها إلى قواعدها بالشام .

وكانت الدولة البيزنطية تتلهف لإنهاء حالة الحرب مع الدولة الإسلامية ، إذ أرسلت إلى دمشق رجلا يدعى يوحنا ، من أشهر رجالها الدبلوماسيين وأكثرهم ذكاءاً وفطنة . وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموى ، وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه . ونجحت مفاوضاته فى عقد صلح بين الطرفين مداه ثلاثون سنة[٢] . وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة براً وبحراً أمام القسطنطينية تلم شملها للعودة إلى الشام ، وتركت عاصمة البيزنطيين تئن من جراحها المثخنة .

النار البحرية :

يظهر من ثنايا الحوليات البيزنطية ، ومن المراجع الأوربية التى اعتمدت عليها ، أن أهم عامل أنقذ القسطنطينية من حصار المسلمين لها هو ظهور اختراع أثناء فترة حرب السنوات السبع يعرف بالنار البحرية[٣] . ولكن أحداث الحصار الإسلامى

---

(١) اتجه معاوية إلى أخذ البيعة لابنه يزيد بتحريض المغيرة بن شعبة . وفى سنة ٥١ هـ خرج معاوية إلى الحجاز وجهد على أخذ مبايعة أهله لابنه ، بعد أن نال رضاء أهل العراق والشام . وقد بايع أهل الحجاز يزيد تحت تهديد معاوية . ولكن أبى الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، مبايعة يزيد . وبذلك كان الموقف الذى ينتظر يزيد قلقاً .

(2) Bury, op cit II, 312: Gibbon, op cit II, 701.

(3) Bury, op cit II, 311, Brehier, op cit, 63.

مدينة القسطنطينية تبين بجلاء أن هذا السلاح الجديد ليس العامل الأول فى تمكين القسطنطينية من الصمود أمام القوات الإسلامية ، وإنما ترجع حصانة المدينة إلى موقعها الجغرافى وطبيعة التيارات المائية التى تحيط بجهاتها الساحلية . على أن قصة النار البحرية أعجبت مؤرخى الدولة البيزنطية ، لأنها شأن كل سلاح جديد اجتذبت أنظارهم ، ولا سيما أنها جاءت فى فترة كانت دولتهم وعاصمتها يعانيان من ألوان الضنك والمتاعب ما جعلهم يشيدون بأى سلاح يخفف عنهم الويلات التى حلت بهم .

وتنسب الروايات اكتشاف هذه « النار البحرية » إلى رجل من مواطنى مدينة هليو بوليس بالشام ، هاجر إلى القسطنطينية عندما سقط هذا الإقليم فى يد المسلمين [1] . وكان هذا الرجل ممن حذقوا أعمال الهندسة والكيمياء واستطاع أن يصل إلى اختراعه فى الفترة التى كان المسلمون يحاصرون فيها القسطنطينية ، مما جعل الدولة البيزنطية تتلهف عليه وتستخدمه فى الدفاع عن عاصمتها . وأطلق على هذا السلاح اسم « النار البحرية » لأنها استخدمت ضد السفن فى البحار ، وعلى الجند فى البر ، ولم تطفئها المياه التى لجأ إليها المسلمون فى أول الأمر ، وإنما زاد اشتعال النار كلما ألقى عليها الماء . وسميت هذه النار كذلك « بالنار الإغريقية » نسبة إلى الإغريق وهم البيزنطيون . وتعزى هذه التسمية الأخيرة إلى أن البيزنطيين استطاعوا الاحتفاظ بسر هذا السلاح فترة طويلة ، إلى نهاية القرن العاشر الميلادى ، ولصق اسمهم بهذه النار دليلا على احتكارهم لها .

وتناول الكتاب فى القرن العاشر وصف العناصر التى تكونت منها هذه النار ووسائل إخمادها . فذكر أحدهم « إذا أخذت كبريت نقى مع حامض الطرطريك والصمغ الفارسى والقار الخام والنترات ثم مزجت الخليط معاً ، وغمست فى هذا الخليط نسيج الكتان ، ثم أشعلت فيه النار انتشر اللهب

---

(1) Gibbon, op cit II, 796.

فى الحال . ويطفئ هذه النار الرمل فقط أو الخل ». وتطور هذا السلاح فيما بعد وظهر منه نوع أشبه بالمفرقعات . وكانت تتكون من وحدات ، كل منها تحوى رطلا من الكبريت المسحوق مع رطلين من الفحم البلدى وست أرطال من نترات البوتاس (ملح البارد) ، ثم يوضع المزيج فى غلافات طويلة ضيقة محكمة ، أشبه بالخرطوشة ، تغطى فتحتها بسلك حديدى . وتشعل هذه الأنابيب وتقذف فى الهواء بواسطة مجانيق ، ويسمع لها انفجار مدوى يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف[١] .

وكانت النار التى يلقيها الجند من أعلى الأسوار ، عبارة عن كرات من الحجر أو الحديد بها المزيج السالف ، ثم تحمى بالنار . وأحياناً تغطى الكرات بنسيج الكتان المشرب بزيت مغلى ، ثم يشعل فيها النار عند إطلاقها . وأما النار التى استخدمت فى الحرب البحرية ، فكانت عبارة عن أنابيب طويلة من النحاس تقذف من مقدمة المركب. وكانت توضع على مقدمات السفن تماثيل تصور مناظر الأسود وغيرها من الحيوانات الضارية ، ينبعث من أفواهها النار التى تلقى على سفن الأعداء[٢] .

وأمدت الإمبراطورية البيزنطية حلفائها بهذا السلاح من المفرقعات أو السفن المجهزة بقذائف النار البحرية ، دون أن تطلعهم على سر تركيبها . فكانت أهم الوصايا التى يلقنها الإمبراطور لولى عهده حين يعده لتولى مقاليد الأمور ، هى الاحتفاظ بسر صناعة هذه النار ، وألا يشير إليها فى مؤلفاته بما قد يكشف عن خواصها ، وإنما يقصر قوله عنها بأنها من وحى الله وإلهامه . ونفذ الأباطرة هذه الوصية بعناية مدى أربعة قرون حتى مطالع القرن الحادى عشر الميلادى ، إذ استطاع المسلمون بأبحاثهم الكيميائية ومثابرتهم أن يعرفوا هذا السلاح ، وأدخلوا عليه

(1) Bury, op cit II, 319; Oman, History of war II, 46, 47.
(2) Gibbon, op cit, 797.

من التعديلات ما جعله أشد فتكا وأقوى أثراً من النار الاغريقية [١].

واستخدم المسلمون هذه النار الجديدة فى الحروب الصليبية ، التى دارت رحاها بأرض الشام ، كأنما أرادوا أن يثبتوا مقدرتهم على النهوض بتراث الأمويين الحربى ، الذى خلفوه بدمشق عروس إقليم الشام ، والتى واجهت جيوشها النار الأغريقية لأول مرة فى التاريخ الإسلامى . فكانت النار التى قذفها المسلمون مثار رعب وفزع فى قلوب أعدائهم ، ولم يستطع الصليبيون رغم تظاهرهم بالشجاعة والبأس إخفاء ذعرهم من هذه النار ، إذ وصفها أحدهم قائلا « انطلقت النار علينا أشبه بتنين ذى جناحين طويلين ، رأسه تقرب من رأس الكلب ، وكانت مصحوبة بصوت أشبه بالرعد ، وبضوء أشبه بالبرق الخاطف ؛ وتبدد الظلام فجأة بهذا النور القاتل [٢] » .

وغدت هذه النار تنسب إلى المسلمين وتدعى « بالنار الإسلامية » ، لأن الأعداء عجزوا عن معرفة سر هذا السلاح الجديد الذى احتضنه المسلمون . وظل استخدام النار الإسلامية سائداً حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، حيث دخلت عليها تطورات وتعديلات كثيرة أدت أخيراً إلى صناعة البارود . ومن ثم تعتبر النار الإسلامية أساس هذا الإنقلاب الخطير فى أساليب الحرب التى عرفها العالم الحديث. وبرهن المسلمون على أنهم لا يقفون مكتوفى الأيدى أمام أى سلاح جديد يفاجئهم به الأعداء ، وأنهم قادرون على استغلاله فيما بعد لما فيه صالحهم ونفعهم.

---

(1) Gibbon op cit 797.

(2) Ibid, 798 ; Oman, op cit II 47, 48.

بنو مروان والقسطنطينية

تدعيم البيت الأموى :

بعد عودة القوات الإسلامية من حصار القسطنطينية المعروف بحرب السنوات السبع ، انفجرت بعض الأحداث فى جوف العالم الإسلامى كان لها أبعد الأثر فى مجرى الحرب مع الامبراطورية البيزنطية . إذ توفى الخليفة معاوية بن أبى سفيان تاركا لابنه يزيد عرش الخلافة ينازعه فيه كثير من كبار رجال الدولة الإسلامية . ومن ثم وقفت حملات المسلمين على أراضى الدولة البيزنطية فترة مداها خمسة عشر عاما ، صرفها أبناء البيت الأموى فى تدعيم سلطانهم على العالم الإسلامى وتأمين أحواله الداخلية . إذ انقسمت الدولة الاسلامية على عهد يزيد إلى ثلاثة أجزاء تقريباً ، وهى الشام الباقية على الولاء لبنى أمية ، والعراق حيث كانت الحركة لإقامة خلافة علوية ، وبلاد العرب نفسها التى كانت تريد إقامة خليفة عربى منتخب وفق نظام الشورى .

واستطاع يزيد أن يضم العراق إلى إقليم الشام بعد معركة كربلاء ، ومقتل الحسين بن على بن أبى طالب فيها [1] . إذ انهارت آمال أهل العراق فى إقامة خلافة علوية ، ودخلوا فى البيعة لبنى أمية مرة أخرى . ثم اتجه يزيد بعد ذلك إلى إقليم الحجاز الذى نادى بخلافة عبد الله بن الزبير ، ورفض إعلان ولائه لبنى

---

(١) رفض الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية سنة ٦٨٠ م ، واستجاب لدعوات أهل العراق الذين أعلنوا أنه الخليفة الشرعى . وذهب الحسين قاصداً الكوفة على رأس قوة صغيرة من ذوى قرباه . ولكن حاكم العراق الأموى عبد الله بن زياد سد الطريق فى وجه الحسين . وفى العاشر من محرم سنة ٦١هـ/ ٢٠ أكتوبر سنة ٦٨٠ م أحاطت قوة الأمويين الكبيرة باتباع الحسين عند كربلاء التى تبعد ٢٥ ميلا إلى الشمال الغربى من الكوفة . وأسفرت المعركة عن قتل الحسين وكثير ممن معه . ولكن جاءت هذه الحادثة وبالا فيما بعد على بنى أمية ، إذ غذت روح التذمر ضدهم حتى سقطت دولتهم آخر الأمر .

أمية . وكانت ثورة عبد الله بن الزبير من أخطر المشاكل التى واجهها يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان . إذ لم يستطع القضاء عليها ، وتوفى تاركا ابن الزبير يبسط سلطانه على إقليم العراق مستهدفا ضم سائر العالم الاسلامى تحت رايته .

وتوالت الأزمات على البيت الأموى بعد وفاة يزيد ،إذ بينما عبدالله بن الزبير يوسع دائرة نفوذه تولى عرش الخلافة الأموية بالشام ابن يزيد ، ويدعى معاوية الثانى . وكان حدثاً ضعيفاً غير قادر على مواجهة الموقف الدقيق الذى حاط بالبيت الأموى . فلم تلبث عوامل النزاع أن انتشرت بين القبائل العربية المقيمة بالشام ، وانقسمت إلى فريقين متناضلين؛ اليمنيون أو عرب الجنوب ومن أشهرهم قبيلة كلب ، والقيسية أو عرب الشمال . وعجز معاوية الثانى عن السيطرة على الموقف ، وأصبح البيت الأموى مهدداً بالزوال على عهده .

وكان لهذه الأحداث أثر كبير فى نفوس رجال البيت الأموى ، فأجمعوا رأيهم على إبعاد الفرع السفيانى عن تولى مقاليد الأمور حيث أصبح مفتقراً إلى الشخصيات الجديرة بمنصب الخلافة . ووقع اختيار أبناء البيت الأموى على أحد كبار رجالاتهم وهو مروان بن الحكم ، وكان مقيما بدمشق منذ وفاة يزيد . و بادر أتباع مروان الى مبايعته بالخلافة فى الجابية (ذى القعدة سنة ٦٤هـ/٦٨٤م). وتعتبر هذه البيعة حداً فاصلا بين عهدين من البيت الأموى ، إذ انتقلت الخلافة نهائياً من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى (من أبناء مروان بن الحكم) .

واشتهر مروان رغم شيخوخته بالدهاء والبراعة فى تهيئة الأمر لنفسه ولأبنائه من بعده . فاستمال إليه خالد بن يزيد ، بأن وعده بولاية العهد ، ثم كسب مع هذه الشخصية كذلك خال يزيد وهو حسان بن بحدل زعيم قبيلة كلب . وكان لهذا التحالف أثر كبير فى المحافظة على البيت الأموى ، إذ كان انضمام عرب الجنوب إلى مروان عاملا قويا شد أزره ضد القيسية ، التى كان زعيمها

الضحاك بن قيس الفهرى ، قد نصب نفسه واليا على دمشق من قبل عبد الله ابن الزبير[١] . فسار مروان على رأس حلفاءه إلى دمشق ، وخرج القيسيون للقاءه فى سهل مرج راهط شمال شرقى المدينة . وكان النصر حليف مروان فى هذه المعركة ، وأضحت الشام مرة أخرى وحدة تابعة لبنى أمية تحت إمرة مروان ابن الحكم .

وقضى مروان البقية الباقية من حياته فى التمكين للخلافة فى سلالته بدلا من الفرع السفيانى . فاستطاع بعد عدة مفاوضات إقناع ابن يزيد بالتنازل عن حقه فى الخلافة لابنه عبد الملك ، وضمن بذلك انتقال الخلافة الأموية إلى بيته نهائيا . ويعتبر ظهور هذا البيت الجديد من أهم العوامل التى أكسبت الدولة الإسلامية قوة وحيوية ، وبعثت فيها نشاطاً حربياً رائعا ، كانت آيته عبد الملك ابن مروان .

ويعتبر عبد الملك صورة حية لما تمتع به بنو أمية من نشاط وذكاء وروح الشجاعة . إذ سار على نهج السياسة العامة التى اتبعها معاوية مؤسس الفرع السفيانى وهى تدعيم الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية للتفرغ للبيزنطيين أعداء المسلمين ، مما ينهض دليلا على اهتمام الفرع المروانى بمتابعة سياسة أسلافهم من بنى سفيان فى الدفاع عن أرض الإسلام وإعزاز كلمة المسلمين . وجهد عبد الملك على أن يحيط نفسه بكافة الوسائل التى تكفل له تحقيق أهدافه فى توحيد القوى الإسلامية

---

(١) لما قتل الحسين نادت الحجاز بخلافة عبد الله بن الزبير . فأسرع يزيد بإرسال حملة تأديبية ضد أهل المدينة بالحجاز . وقد انتصرت هذه الحملة ، ثم اتجهت إلى مكة وحاصرتها ، حيث التجأ بها عبد الله بن الزبير . ولكن مات يزيد أثناء الحصار ، فرفعت الحملة الأموية الحصار وعادت إلى دمشق . وتلا موت يزيد فترة اضطراب زاد فيها نفوذ ابن الزبير ، إذ نادت به العراق خليفة كذلك ، وبعض أجزاء من الشام ، حيث أقام ابن الزبير زعيم حزب القيسية الضحاك ابن قيس الفهرى والياً على دمشق من قبله . ولكن انتصار مروان على حزب القيسية وأخذه الخلافه مهد للقضاء على ثورة ابن الزبير . اذ استطاع ابنه عبدالملك أن يطيح بابن الزبير بفضل الحجاج بن يوسف الثقفى . وكانت ثورة ابن الزبير قد استغرقت تسع سنوات .

جميعها . فعقد هدنة مع الامبراطورية البيزنطية فى مستهل حكمه ، حيث كانت الجيوش البيزنطية تقوم بإغارات على حدود الشام الشمالية ، منتهزة فرصة انشغال المسلمين بمشاكلهم الداخلية . واشترى عبد الملك هذه الهدنة بدفع مبلغ معين للبيزنطيين ، يعتبرتافها إلى جانب المشاريع التى حققها فيما بعد لدولة المسلمين فى ظل الهدوء والاطمئنان . ولم تكن سياسة شراء السلم بالمال مما يعيب الخلفاء الأمويين ، حيث برهنوا على أنهم استهدفوا من ورائها مصلحة أرض الإسلام ، لا عن خوف وخنوع .

وكرس عبد الملك جهوده ضد ثورة عبد الله بن الزبير التى كادت تفصم عرى الوحدة الإسلامية . فقضى على مصعب أخى عبد الله بن الزبير ، وكان ينشر الدعوة لأخيه بإقليم العراق . ثم وجه بعد ذلك إلى إقليم الحجاز ، الذى أقام به عبدالله ابن الزبير نفسه ، شخصية من أعظم الشخصيات الموالية للبيت الأموى وهوالحجاج ابن يوسف الثقفى(١) . واستطاع هذا القائد الأموى أن يعيد إقليم الحجاز إلى التبعية لبنى أمية بعد مقتل ابن الزبير عام ٦٩٢ م . وكان لهذا الانتصار الأموى أثر كبير على مجرى العمليات الحربية الإسلامية فيما بعد . إذ هاجر كثير من مسلمى الحجاز إلى الشام لينضموا إلى حملات الأمويين المظفرة ، التى كانت تعد مرة أخرى لاستئناف الجهاد ضد البيزنطيين .

عبد الملك بن مروان وجستنيان الثاني :

شـــاهد عام ٦٨٥ م ارتقاء حاكمين جديدين عرش الدولة الإسلامية والامبراطورية البيزنطية ، وارتبط بعهديهما تجدد الصراع الإسلامى البيزنطى ،

---

(١) كان الحجاج بن يوسف الثقفى معلم صبيه فى مدينة الطائف بالحجاز . وقد انضم إلى بنى أمية وساعدهم فى القضاء على ثورة ابن الزبير سنة ٦٩٢ م . ثم عينه عبد الملك بن مروان والياً على العراق الذى اشتهر أهله بالتمرد على الأمويين . واستطاع الحجاج ان يقبض بيد من حديد على هذا الاقليم ، ونشر الهدوء فى سائر أرجاءه . وقام بفتوحات جليلة فى بلاد ماوراء النهر من مقر ولايته الجديد .

واستئناف المجهودات الإسلامية لإذلال عاصمة البيزنطيين . وكان هذان الحاكمان على طرفى نقيض ، فالأول وهو عبد الملك بن مروان أريب متزن ، يغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وخبير بأحوال العالم الإسلامى ، و بصير بالطرق التى تكفل له الزعامة والغلبة على الامبراطورية البيزنطية . والحاكم الآخر هو جستنيان الثانى نزق أحمق ، يفتقر إلى تفهم شئون امبراطوريته وما يكفل لها الاستقرار (١) .

وتردد صدى ما اتصف به كل من عبد الملك بن مروان وجستنيان الثانى من صفات حين تجدد الاصطدام بين دولتيهما . إذ ابتدأ جستنيان بالعدوان على أراضى الدولة الإسلامية منتهزاً انشغال عبد الملك بالثورات الداخلية ، وخلو مناطق التخوم الإسلامية من القوات المرابطة بها . واعتمد جستنيان فى هذا الهجوم على جماعة المردة المقيمين فى جبال اللكام ، وكانوا دائماً وكلاء يعملون على تنفيذ أغراض الدولة البيزنطية فى الأراضى الإسلامية . وكان جستنيان الثانى يهدف من إغارات الجراجمة أو المردة إزهاق الدولة الإسلامية فى فترات اضطرابها ، دون الالتجاء إلى خرق المعاهدة التى سبق أن عقدها معه عبد الملك بن مروان فى مطلع حكمه . ولكن عبد الملك آثر القضاء على حركة الجراجمة نهائياً باتباع سياسة المسالمة ، ومعتمداً على قصر نظر جستنيان الثانى . إذ دخل فى مفاوضات لتجديد المعاهدة السالفة ، وأضاف إليها تعهد الإمبراطورية البيزنطيه بإبعاد الجراجمة عن مناطق التخوم الإسلامية مقابل دفع ١٠٠٠ دينار سنوياً (٢) .

وتعتبر هذه المعاهدة من أعظم الخطوات الدبلوماسية نجاحاً ، والتى تفوق بها عبد الملك بن مروان أثناء انشغاله بمشاكله الداخلية على الامبراطورية البيزنطية. وكان لها صدى بعيد فيما بعد حين تجدد النزاع الحربى بين المروانيين والبيزنطيين. إذ رأى الامبراطور البيزنطى فى الحصول على ذهب الدولة الإسلامية مقابل إبعاد

(1) Bury, op cit II, 320.
(2) Bury, op cit II, 302

الجراجمة ، رمزاً لعظمته دون أن يدرك ما يكمن وراء هذا العمل من أخطار جسيمة سوف تحيق بدولته . و بدأ جستنيان فعـلا بنقل ١٢٫٠٠٠ من الجراجمة إلى رومانيا، على حين ذهب بعضهم إلى تراقيا ، وتشتت البقية الباقية منهم داخل آسيا الصغرى[1] .

و بذلك كسب عبد الملك جولة هامة فى علاقاته مع الامبراطورية البيزنطية ، و برهن على أنه خبير بأحوال أعدائه كذلك . إذ كان جستنيان الثانى مستعداً لقبول فـكرة نقل الجراجمة مقابل مبلغ زهيد . فالدولة البيزنطية نظرت دائماً إلى الجراجمة نظرة شك و ريبة ، رغم ماقاموا به من خدمات ضد الدولة الاسلامية منذ أيام معاوية بن أبي سفيان . إذ كان أولئك الجراجمة على المذهب المونوفيزيتى البغيض لدى الأباطرة البيزنطيين ، وجاء جستنيان الثانى وحكم نزواته وحبه للمال وأبعد الجراجمة إلى الأبد ، وحطم بذلك هذا « الستار الحديدى[2] » ، على حد قول المراجع البيزنطية ، والذى وقف دائمـاً فى وجه الجيوش الإسلامية . وأثبت عبد الملك من ناحيته علو كعبه فى السياسة على الامبراطور جستنيان الثانى .

وسرعان ما تبين الامبراطور جستنيان الثانى خطأ تشتيته الجراجمة ، واحتياج الدولة لهم حين تجددت إغارات الجيش البيزنطى بأناتوليا على أراضى الحدود الاسلامية . إذ أدرك ضرورة سد الثغرة التى أحدثها نقل الجراجمة ، وعول على وضع عناصر جديدة ذات بأس وشدة فى الأماكن المعرضة للخطر ، لحمايتها على نحو ما فعل الجراجمة من قبل . واتجهت أنظار جستنيان الثانى نحو العناصر السلافية الضاربة فى أطراف البلقان. وكانت الدولة البيزنطية تدفع لهم ضريبة سنوية مقابل احتفاظها بالهدوء والسكينة فى الأراضى البيزنطية التى استقروا بها . ورأى جستنيان الفرصة مواتية للتخلص من التزاماته المالية والهجوم على هذه العناصر وأخذ عـدد كبير

---

(1) Bury. op cit 321.
(2) Ibid, 321.

منها أسرى لإحلالهم محل الجراجمة . ونجح فى مهاجمة العناصر السلافية المقيمة بالقرب من سالونيكا وجمع عدداً كبيراً حملهم معه إلى آسيا الصغرى (١).

ووزع الامبراطور جستنيان الثانى العناصر السلافية على أشد جهات آسيا الصغرى عرضة لهجمات المسلمين ، والتى كانت تقع على طريق زحفهم صوب القسطنطينية . فكون منهم فرقة كبرى بلغت ٣٠٫٠٠٠ جندى ، وجعل مقرها الرئيسى فى المنطقة المطلة على الدردنيل ، والتى عرفت إذ ذاك ببند أو پسيكيون (Opsikion) أو بند الفرق الامبراطورية (٢) . وكانت هذه المنطقة محط رحال القوات الإسلامية حيث جهدت على إقامة نقط ارتكاز لها هناك قبل عبورها المياه لحصار القسطنطينية . وأراد جستنيان بعد ذلك شد أزر جماعات السلاف بنقل عدد كبير من أهالى جزيرة قبرص إلى بند الأوبسيكيون أيضا . وكانت خطوته تحمل فى طياتها الكثير من العسف والعنت ، إذ واجهت السفن التى تقل أهالى قبرص عاصفة عاتية أغرقت الكثيرين ، ولم ينج إلا القليل عاد أدراجه إلى جزيرة قبرص (٣).

استئناف الجهاد ضد البيزنطيين :

ولكن سرعان ما حدث الانفجار بين عبد الملك بن مروان وجستنيان الثانى حول مسألة القراطيس ، أوالورق الذى كانت تستورده الامبراطورية البيزنطية من الدولة الإسلامية ، وتدفع مقابل ذلك دنانير بيزنطية ، كانت العملة السائدة فى البلاد الإسلامية . وكانت مصر هى القطر الذى يصدر القراطيس للدولة البيزنطية منذ تبعيتها لها قبل الفتح الإسلامى . وجرت عادة أقباط مصر على كتابة اسم المسيح وعبارة التثليث فى رؤوس الطوامير أو قطع الورق الكبيرة .

(1) Bury, op cit II, 336.
(2) Bury, op cit II, 323.
(3) Ibid, 323.

ولكن عبد الملك بن مروان رأى أن هذه الصيغة لا تتفق ومظهر الدولة الإسلامية الجديدة . فأمر أن يستبدل بهذه الصيغة عبارة « قل هو الله أحد »[١] .

ووصلت هذه القراطيس الجديدة إلى الإمبراطورية البيزنطية وأحدثت ضجة كبرى فى البلاط البيزنطى، إذ غضب الإمبراطور جستنيان الثانى واستكبر قيام الدولة الإسلامية بهذا العمل الجديد . فكتب إلى الخليفة عبد الملك « إنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فإن تركتموه ، وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه »[٢] وأغضب هذا الخطاب الخليفة عبد الملك كثيراً ، وخشى اضطراب أحوال العملة بسبب تهديد الامبراطور البيزنطى ، وما قد تحدثه من أثر سىء فى نفوس عامة المسلمين ، إذ أن الدنانير البيزنطية كانت العملة الرسمية للتجارة فى الأسواق الإسلامية ومع الدول الخارجية .

ولكن هذه الأزمة أثبتت قوة التعاون والتآزر بين أفراد البيت الأموى جميعاً ، وتفانيهم فى العمل على عزة المسلمين . إذ أشار خالد بن يزيد على الخليفة عبد الملك بالتمسك بالقراطيس الجديدة دون أن يخشى تهديد البيزنطيين ، فقال : « يا أمير المؤمنين حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها ، واضرب للناس سككاً ، ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا فى الطوامير »[٣] . وجاء هذا الحل بلسماً شافياً للخليفة ، ورأى أنه يصلح خطوة أساسية لصبغ الدولة الإسلامية بصبغة عربية ، وخلق وحدة اقتصادية فى العملة خاصة بها .

وأقبل عبد الملك على سك دنانير إسلامية جديدة عليها آيات من القرآن ، وعرفت باسم الدنانير الدمشقية[٤] . وخلص عبد الملك بذلك الدولة الإسلامية من ربقة العملات الأجنبية التى كانت متداولة فيها منذ زمن بعيد . إذ كانت دنانير

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٤٩ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .
(٣) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٤٩ .
(٤) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٤٧١ .

بيزنطة ترد إلى بلاد العرب منذ الجاهلية ، وتعتبر العملة الأساسية فى المعاملات التجارية الكبرى ، على حين يستخدم الدرهم الفارسى فى المعاملات المحلية . وظل أمر العملة الأجنبية معلقاً فى الشئون التجارية الإسلامية حتى نشب الخلاف بين عبد الملك وجستنيان الثانى ، حيث ضرب عملته الجديدة (سنة ٧٤/٧٥ هـ/ ٦٩٢ / ٦٩٣ م) ليتخلص من تهديد البيزنطيين . ولم يحدث هذا التغيير انقلاباً فى أحوال الدولة الإسلامية لأن الناس سرعان ما تعاملوا بالنقود الجديدة ، ووجدت الجماعات التى تشذ عن استعمالها قسوة وعقاباً صارماً من الخليفة (١) .

ونجم عن العملة الإسلامية الجديدة تجدد الصراع الحربى بين المسلمين والبيزنطيين ، حيث انتقل الأمر من مجرد تهديد ووعيد إلى صليل السيوف . إذ أرسل الخليفة عبد الملك فى سنة ٦٩٢ م التزاماته المالية للدولة البيزنطية ، نظير إبعاد الجراجمة ، من هذه العملة الجديدة . فرفض جستنيان الثانى قبول هذه العملة الخالية من صورة الأباطرة البيزنطيين ، وأخذ يتحرش بالمسلمين و يهاجم أراضيهم . ولكن صادفت هذه الأعمال انتهاء الخليفة عبد الملك من مشاكله الداخلية كلها ، وعول على إلقاء درس قاس على الإمبراطور المغرور .

استهل عبد الملك جهاده للذود عن أرض الإسلام بالزحف على قيليقيا بآسيا الصغرى ، واصطدام عند مدينة سيواس (Sebosptoplis) بالقوات البيزنطية ، التى كانت تضم عدداً كبيراً من العناصر السلافية التى وضعها جستنيان فى بثند أو بسيكيون . وجاء الإمبراطور نفسه على رأس هذه القوات لمحاربة المسلمين ، تحدوه الآمال فى الانتصار عليهم . ولكن المسلمين بددوا آمال الإمبراطور ؛ إذ دارت رحى الحرب على قواته بسبب انضمام العناصر السلافية فيها إلى المسلمين . وكانت هذه الجماعات السلافية تحقد على الامبراطور وترفض طاعة أوامره ، ومن

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٥ .

ثم دخلت غالبيتها فى التبعة للمسلمين حين سنحت لها الفرصة فى معركة سيواس، وحاربت إلى جانب المسلمين أيضاً فى هذه المعركة ضد من تبقى من قوات مع الإمبراطور جستنيان [1] .

وعاد الإمبراطور بعد هزيمته هاربا مع فلول جيشه متجها إلى البسفور . وكان يصحبه بعض جند السلاف ممن بقى على الولاء له . ولكنه ارتكب خطأ فاحشا مع فلول السلاف بسبب حنقه على خيانة زملائهم ، إذ جمعهم عند مدينة ليوكاتا (Leucata) وقتلهم جميعاً ، شافياً غليلة مما فعله بنى جلدتهم من التخلى عنه والانضمام إلى المسلمين . [2] ونجم عن هذه الحادثة أن أصبح جستنيان الثانى موضع كراهية السلاف جميعاً المقيمين فى سائر أنحاء آسيا الصغرى ، وغدوا أداة مستعدة لخدمة المسلمين فى أى نضال حربى ينشب بينهم و بين البيزنطيين [3] .

واستفاد المسلمون كثيراً من ولاء السلاف لهم ، إذ كانوا على علم بدروب آسيا الصغرى والمسالك التى تصل بين مدنها المختلفة . فقاموا بوظيفة الأدلاء للجيوش الإسلامية ، يهدونها إلى أسهل الطرق وأيسرها للاستيلاء على المعاقل الهامة بهذه البلاد . ولذا تابعت الجيوش الأموية انتصاراتها و إغاراتها على مدن آسيا الصغرى دون أن تلقى جهداً كبيراً .

---

(1) Bury, op cit II, 322.
(2) Bury, op cit, 322.
(3) Ibid, 322,

الحصار الثالث للقسطنطينية

الاستعدادات الإسلامية والبيزنطية

لم تتغير سياسة البيت الأموى تجاه القسطنطينية رغم انتقال الخلافة من الفرع السفيانى إلى المروانى . فلئن كرس معاوية بن أبى سفيان ، زعيم الفرع الأول ، جهوده لحشد قوى الدولة الإسلامية لضرب القسطنطينية ، فإن الخليفة عبدالملك بن مروان زعيم الفرع الثانى فى البيت الأموى مهد الطريق لأبنائه من بعده على الجهاد ضد عاصمة البيزنطيين وتخليد اسمهم فى سجل التاريخ الإسلامى . وقد استطاع أن يسلم لأبنائه دولة مستقرة الأركان يسودها الهدوء والنظام ، وأحيى فى نفوس أهلها حب الجهاد ضد البيزنطيين ، والتطلع مرة أخرى إلى إذلال عاصمتهم وما بها من أباطرة تملأ نفوسهم البغضاء والكبرياء الأجوف .

وكان الوليد بن عبدالملك خير خلف لأبيه ، إذ تابع الفتوحات التى بدأها أبوه فى آسيا الصغرى ، وجعل هدف حركاته الحربية الاستيلاء على المعاقل الهامة الواقعة فى الطريق الرئيسى المؤدى إلى القسطنطينية . واستهل الوليد تنفيذ خطته الجديدة بحصار مدينة طوانة (Tyana) مفتاح الطريق الهام بين الشام والبسفور ، والذى تسلكه الجيوش الإسلامية فى طريقها لمهاجمة القسطنطينية . وحاصر المسلمون هذه المدينة عامين متتالين ، لشدة تحصيناتها ولاستماتة البيزنطيين فى الدفاع عنها . وأرسل الأمبراطور جستنيان الثانى قائدين من قادة الدولة على رأس قوات من الجند النظامى ، ومعهم عدد من الجند غير النظامى كذلك لإنقاذ المدينة وتخفيف حدة الهجوم عن حامياتها . ولكن المسلمين قضوا على هذه الامدادات ، وتابعوا حصارهم المدينة . ولم تجد الحاميات البيزنطية مفراً من التسليم بعد أن أنهك الجوع جندها وضج سكان المدينة من العناء . ودخلت

الجيوش الإسلامية مدينة الطوانة سنة ٧٠٧ م ، وأصبحوا يتحكمون فى أهم معاقل إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى [١] .

وتابع المسلمون إغاراتهم على مدن آسيا الصغرى ، وامتازت سنوات ٧١٠ ، ٧١١ م بما لازم الجيوش الاسلامية من توفيق فى نشر الذعر والاضطراب بين صفوف الجنود البيزنطيين . وفى سنة ٧١٢ م وصلت الجيوش إلى البسفور واستولت على بعض المعاقل الهامة بالقرب منه [٢] . وكانت هذه العمليات الحربية الاسلامية حملات استطلاعية وتمهيد الزحف المباشر على العاصمة البيزنطية. وساهم الأسطول الاسلامى فى الحركات الحربية كذلك . ومن ثم [illegible] البيزنطيون على حمل المسلمين وديًا على إيقاف زحفهم صوب [illegible] إذ أسر الأسطول البيزنطى فى سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م خالد بن [illegible] صاحب البحر ، أى أمير البحر على السفن الاسلامية . فبادر الأمبراطور البيزنطى إلى إعادته للخليفة الوليد مدللا على رغبته فى استئناف العلاقات الودية مع المسلمين [٣] .

وانتقل الخليفة الوليد بعد نجاح جيوشه فى السيطرة على معاقل آسيا الصغرى الهامة إلى إعداد حملة لمهاجمة القسطنطينية نفسها . وكان الامبراطور البيزنطى إذ ذاك هو أنسطاس الثانى (Anastasius) الذى أدرك الفوضى التى سادت أقاليم آسيا الصغرى الحربية ، وافتقارها إلى القادة الأكفاء والجند المدرب . فبدأ الأمبراطور يقوى جبهة آسيا الصغرى لمواجهة الحملات الاسلامية المتكررة . وعين على بند أناتوليا ، أى الاقليم الحربى الشرقى بآسيا الصغرى ، قائداً أعدته الأحداث لأن يلعب دوراً هاماً فى قصة الحملة الاسلامية الكبرى التى كانت تعد لمهاجمة القسطنطينية .

وكان القائد البيزنطى الجديد يدعى ليو ، من مواطنى المنطقة الجبلية

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٨٨ ؛ Bury, op cit II, 362

(٢) Bury, op cit, 392.

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ٦٨ .

فى إقليم إيسورة ، ولكنه قضى فترة طفولته فى مدينة مرعش (Germanica) على الحدود الاسلامية البيزنطية . وبذلك أتيح له أن يعرف اللسان العربى وأن يفهم تقاليد الاسلام ومطامح المسلمين . وعندما شب وترعرع ظهرت عنده ملكة حب الخداع وإيقاع الفرقة بين طوائف الناس . فأوفده الأمبراطور جستنيان الثانى إلى القبائل الضاربة على حدود الأمبراطورية فى الشمال لبذر بذور التفرقة والشقاق بينها . وعاد مكللا بالنجاح من مهمته على عهد الامبراطور انسطاسى الثانى ، الذى كان يبحث عن رجال جدد يعهد إليهم بإدارة الأقاليم الحربية فى آسيا الصغرى ، ولا سيما بعد أن تحولت حملات المسلمين عليها إلى نشاط منظم هدفه الاستيلاء على القسطنطينية . فاختار الامبراطور انسطاس الدبلوماسى ليو ليدير إقليم أناتوليا بآسيا الصغرى (١) ، ومهد بذلك لهذا القائد طريق الاحتكاك بالمسلمين خلال أحداث حصارهم الثالث لمدينة القسطنطينية .

وفى الوقت الذى كان الامبراطور البيزنطى يرفع فيه شخصية ليو إلى مسرح الاحداث ، كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعد شخصية أخرى اضطلعت ببطولة الحصار الأموى الثالث لمدينة القسطنطينية . إذ عهد إلى أخيه مسلمة ابن عبدالملك إدارة دفة الحملات الاسلامية التى استولت على معظم المعاقل البيزنطية بآسيا الصغرى ، والمؤدية إلى القسطنطينية . وبذلك أصبح مسلمة القائد الأموى الجدير بتولى الحملة الاسلامية التى أخذ الوليد يعدها لضرب القسطنطينية ، ويتوج مجهوداته بالاستيلاء على عاصمة البيزنطيين .

وأقبل مسلمه بن عبد الملك على مساعدة أخيه الخليفة الوليد فى تجهيز الحملة الإسلامية القاصدة حصار القسطنطينية . وكانت الاستعدادات الإسلامية واسعة النطاق بحيث ترامت أنباء هذه الحملة إلى السلطات البيزنطية فى العاصمة سنة

---

(1) Bury, op cit II, 374 :

٧١٤ م . فأوفد الإمبراطور أنسطاس سفارة إلى دمشق لتتباحث مع السلطات الإسلامية فى شأن عقد هدنة بين الدولتين ، ولكن زود السفارة البيزنطية بتعليمات سرية تقضى التجسس على مدى استعداد المسلمين الحربى ، والتحقق من صدق عزمهم على مهاجمة القسطنطينية . وكان رئيس هذه السفارة رجلا حصيفا يدعى دانيال (Daniel) حاكم مدينة سينوب ، ومن الشخصيات الكبرى التى تعتمد الدولة البيزنطية على صدق تقاريره (١) .

ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق شاهدت عظمة المسلمين فى عاصمتهم ، ونشاط الخليفة فى إعداد الجيوش لتوجيهها ضد القسطنطينية . فعادت السفارة تحمل إلى الإمبراطور البيزنطى صدق عزيمة المسلمين على الجهاد ، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة . ونفذ أنسطاس تعليمات السفارة ، فأعلن فى القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة ، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته . ثم ملأ الخزائن الإمبراطورية بكميات هائلة من القمح وغيره من الحاجات التى يتطلبها المدافعون عن المدينة . واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة ولا سيما الجهات المطلة منها على الميـــاه ، حيث كان التداعى قد دب فيها ، ووضع على الأسوار البرية كل الآلات الحربية من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع (٢) .

وفى تلك الفترة من الاستعدادات الاسلامية البيزنطية توفى الخليفة الوليد . ولكن المشروع الاسلامى لحصار القسطنطينية سار قدما دون أى تغيير ، إذ تبنّاه أخوه سليمان بن عبد الملك ، الذى خلفه على عرش الدولة الاسلامية بحماس أشد قوة . فقد بلغ اهتمام المسلمين فى أرجاء الدولة الاسلامية شأوا كبيراً

---

(1) Bury, op cit 371.
(2) Ibid, 371.

بالمساهمة فى مجهودات الخليفة سليمان[١] . وتكاتفت مصر والشام وشمال إفريقيا على تزويد الحملة الاسلامية بكل ما تحتاج إليه من عدة وعتاد . فأبحر أسطول من مصر إلى شواطىء الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان ليصنع منها سفن جديدة فى دور الصناعة بمصر، لتعزيز الأسطول الاسلامى المتجه لحصار القسطنطينية.

وعلم الامبراطور انسطاس بأخبار نشاط المسلمين و إزدياد استعدادهم الحربى على عهد الخليفة سليمان ، وآثر أن يعرقل هذه الاستعدادات ولا سيما البحرية منها ، لأنه أدرك أهمية الدور الذى ستضطلع به السفن الاسلامية . فعمد إلى مهاجمة الأسطول المصرى وتخريب الأخشاب قبل عودتها إلى مصر . وعهد إلى جند إقليم أو بسيكيون (أى إقليم فرق الحرس الامبراطورى) بتنفيذ هذه المهمة . ولكن باءت مجهودات الامبراطور انسطاس الثانى بالفشل لعصيان الفرق الامبراطورية لأوامره وكراهيتها له . إذ شقت عصا الطاعة حين وصلت جزيرة رودس فى طريقها لمهاجمة سواحل الشام ، وقتلت القائد الذى عينه الامبراطور عليها لادارة عمليات الهجوم ، وعادت إلى القسطنطينية وعزلت الامبراطور[٢] وعينت على العرش امبراطور آخر[٣] .

سير الحملة الإسلامية :

رأى الخليفة سليمان بن عبد الملك ملاءمة أحوال الامبراطورية البيزنطية لضرب القسطنطينية ، ولا سيما بعد أن سرى الفساد فى جميع مرافقها و إدارتها . فأعد فى دابق بشمال الشام معسكراً كبيراً ليكون مقراً لادارة دفة العمليات الحربية ضد القسطنطينية . وقضى الخليفة معظم وقته فى هذا المعسكر ليشرف

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٨ .

(٢) Bury, op cit, 372.

(٣) Ibid, 372 373

بنفسه على سير العمل فيه ، « وأعطى الله عهداً أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى الروم القسطنطينية »(١) .

وفى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م تحركت الجيوش الاسلامية نحو القسطنطينية تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك أخى الخليفة نفسه . وأمر سليمان أخاه « أن يقيم عليها (أى على القسطنطينية) حتى يفتحها أو يأتيه أمره »(٢) . فبعث مسلمة أحد قواده ويدعى سليمان على رأس جيش يستطلع له الطريق عبر آسيا الصغرى . وتوغل سليمان فى إقليم أناتوليا (أى الاقليم الشرقى) حتى بلغ حاضرته وهى مدينة عمورية ، التى كانت منذ أيام معاوية بن أبى سفيان مقصد الجيوش الاسلامية الزاحفة على القسطنطينية . وألقى سليمان الحصار على هذه المدينة ، وعلم إذ ذاك أن حاكمها المدعو ليو ، يدين بمركزه للامبراطور السابق انسطاس ، ويناهض الامبراطور تاود اسيوس الثالث القابض على أزمة الحكم بالقسطنطينية .

وبدأ القائد سليمان يدبر خططاً هدفها القبض على ليو وإدخاله فى التبعية للمسلمين ، والاستفادة من خبرته فى هدم الأمبراطورية البيزنطية . فكتب إلى ليو خطابا جاء فيه « نحن نعلم أن مآل الامبراطورية الرومانية إليك ، فاخرج لنا لنتفق على شروط الصلح » ، ثم أمر القوات الاسلامية المرابطة أمام أسوار عمورية بأن تهتف « يحيا الأمبراطور ليو(٣) . » وأجاب ليو على خطاب سليمان متسائلا « لماذا يحاصر المسلمون مدينة عمورية إذا كانوا يريدون عقد صلح معه ؟ » . فرد عليه سليمان مبينا « أن الحصار سيرفع عن المدينة عندما تبدأ المحادثات الرسمية بينهما »(٤) .

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٨ .
(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٨ .
(٣) Bury, op cit, 376
(٤) Bury, op cit, 379,380 381

وأدرك ليو أن المسلمين سيواصلون الزحف على القسطنطينية ، وأنه لابد أن يسلم لهم . فبيت أمراً خطيراً احتفظ به لنفسه فقط ، وهو أن ينضم إلى الجيوش الإسلامية متظاهرا بإرشادها إلى ما يجب أن تفعله للاستيلاء على القسطنطينية ، ولكن ليصل بذلك إلى العاصمة نفسها ويحصل على العرش ، ثم يقف بنفسه مناهضاً الجيوش الإسلامية . فدخل ليو فى مفاوضات مع المسلمين أعلن لهم فيها انضمامه إليهم ، وطلب منهم رفع الحصار عن عمورية ، ثم صاحب الجيوش الإسلامية بعد نجاح مفاوضاته قاصداً القسطنطينية . وكسب ليو من وراء ذلك ولاء أهل عمورية الذين حفظوا له تجنيبهم ويلات الحصار ، ونادوا به امبراطوراً على الدولة البيزنطية [1].

ولكن أعداء ليو اتهموه بتفريطه فى الدفاع عن إقليم أناتوليا ، وبممالأته للمسلمين ، وتسهيله سبل الطمأنينة والراحة لهم عبر آسيا الصغرى . وكان هذا الاتهام عاملا جعل ليو موضع ثقة المسلمين ، وسمحوا له بأن يسبقهم إلى القسطنطينية ليمهد لهم سبل الاستيلاء عليها . وبدأ ليو حينئذ ينفذ ما عزم عليه من الحصول على السلطان وعرش الامبراطورية . فأخذ يعمل على إضعاف جبهة الامبراطور تادواسيوس الثالث المقيم بالقسطنطينية ، والمنغمس فى لهوه ومسراته . وكان هذا الامبراطور يعتمد فى قوته على الجند المقيم فى إقليم أوبسيكيون ، أى جند الفرق الامبراطورية ، ونصب عليها ابنه قائداً ليحقق لنفسه أسباب الطمأنينة والسلام .

ولذا ناهض ابن الامبراطور حركات ليو واستعد لصد عدوانه عند مدينة نيقوميديا بآسيا الصغرى . ولكن ليو تمكن من هزيمة ابن الامبرطور ، وعبر البسفور إلى القسطنطينية . واستطاع أن يقتحم المدينة من باب الذهب ودخلها ليوطد نفوذه بها . إذ سرعان ما كشف عن نواياه الحقيقية عندما احتل العاصمة ، وأخذ يعمل على الوصول إلى العرش الامبراطورى . واستغل أخبار الحملة الإسلامية

(1) Bury, op cit. 381, 382.

وقرب وصولها إلى القسطنطينية ليجذب الأنصار حوله . فأعلن أن المدينة معرضة لحصار طويل ، وأن جيش المسلمين قوى العدة والعتاد ، وأن الموقف يتطلب شخصية حازمة لمواجهة الأزمة التى توشك أن تحل بالعاصمة . وساعد ليو على نجاح دعوته العناصر الأسيوية المقيمة بالقسطنطينية ، إذ انضمت إليه ونادت به امبراطورا (١) .

وفى ٢٥ مارس سنة ٧١٧ م عقد اجتماع من كبار رجال العاصمة ، قرر عزل تادواسيوس عن العرش وتنصيب ليو امبراطوراً تحت اسم ليو الثالث (٢) . وبذلك حقق ليو ما كانت تصبو إليه نفسه من آمال ، حيث وصل إلى أعلى مركز فى الامبراطورية . ولكن لم يتمتع بهذا الظفر طويلا ، إذ كانت الجيوش الإسلامية تقترب حثيثا من القسطنطينية ، مصممة على إنزال أشد ألوان الهوان بها . وكان ليو يعلم الكثير عن مطامح المسلمين وأغراضهم فى هذه الحملة الكبرى ولاسيما أنه صاحب جيوشها فترة من الزمن ، فأسرع فى تحصين العاصمة وتقويتها لمواجهة الحصار الإسلامى المنتظر .

الحصار الاسلامى :

كان أمام ليو فترة خمسة شهور لإتمام استعداداته الحربية ، إذ قضى المسلمون هذه الفترة فى تدعيم خطوط مواصلاتهم وتأمين مؤخرتهم . فاستولى مسلمة بجيشه البالغ ٨٠٫٠٠٠ جندى على مدينة برجام ، ثم عبر الدردنيل عند أبيدوس وعسكر أمام أسوار القسطنطينية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٧ م (٣) . وكان مسلمة يدرك أهمية تدبير مؤونة جيوشه ، فأمر « كل فارس أن يحمل على عجز فرسه

(1) Bury, op cit, 383.

(2) Bury, op cit, 383.

(3) Bury, op cit, 401.

مدين من طعام حتى يأتي به القسطنطينية »[١]. واحتفظ بقدر كبير آخر من المؤن لتزويد جنده بها أثناء الحصار .

و بعد ستة عشر يوما من وصول مسلمة إلى أسوار القسطنطينية ، دخل مياه البسفور فى أول سبتمبر أسطول إسلامى كبير، مكون من ١٨٠٠ سفينة كبيرة عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة . وأخذ مسلمة ينظم التعاون بين القوات البرية والبحرية لإتمام حلقة الحصار على القسطنطينية . فاضطلعت قوات مسلمة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية ، على حين عمد سليمان أمير البحر المسلم على سد المنافذ والمسالك المائية التى يمكن أن تحصل منها العاصمة على الأمداد والمؤن ، ثم حصار أسوار المدينة البحرية كذلك. فاحتل الأسطول الإسلامى مدخل البسفور الجنوبى لقطع الاتصال بين المدينة و بحر مرمرة وبحر ايجه كذلك . ثم انتهز أمير البحر فرصة هبوب رياح جنوبية طيبة و بعث شطراً من أسطوله لاحتلال مدخل البسفور الشمالى لمنع وصول أى مدد يأتى للمدينة من البحر الأسود ، ولاسيما أن شواطئه الشمالية كانت غنية بحقول القمح التى تزود القسطنطينية بالغلال [٢].

وسارت السفن الإسلامية الكبرى سيراً بطيئا رغم الريح المواتية بسبب التيار المائى الشديد الذى يتدفق من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة . ثم غيرت الرياح اتجاهها فجأة ، شأن الأحوال الجوية فى تلك المنطقة . فاختل سير السفن لسوء الأحوال الطبيعية ورداءة الملاحة فى هذه المياه الإقليمية للقسطنطينية. ولذا انتهز البيزنطيون هذه الفرصة ، و بعثوا سفنهم المحملة بالنار الإغريقية ليزيدوا من متاعب السفن الإسلامية [٣] . ويلاحظ أن ليو لم يجرؤ على إرسال سفنه

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٧.

(2) Bury, op cit, 401, 402 .

(3) Bury, op cit. 402 .

إلا بعد أن ساءت الأحوال الجوية ؟ وأن سفن النار البحرية ليست هى العامل الأول أو الرئيسى فى منع أمير البحر المسلم من إكمال حلقة الحصار البحرى للقسطنطينية .

وحاصر المسلمون القسطنطينية حصاراً قاسياً شديداً رغم بقاء جهتها المطلة على القرن الذهبى مفتوحة . وظل الحصار مستمراً حتى جاء الشتاء ، وهو قارس جداً ، ويعتبر من العوامل الطبيعية الأخرى التى تعتمد عليها القسطنطينية فى الدفاع عن نفسها و إطالة مدة مقاومتها . غير أن مسلمة احتاط لهذه العوامل الطبيعية « وعمل بيوتاً من خشب ، شتا فيها وزرع الناس ... وأقام بالقسطنطينية قاهراً لأهلها ، ومعه وجوه أهل الشام »[1] . و برهن المسلمون بهذا الثبات طول الشتاء القارس أنهم أولى بأس وعزم صادق فى الجهاد ، وأنهم حريصون على رفع راية الإسلام فى كل مكان .

و بمطلع الربيع وصلت نجدات بحرية و برية للقائد مسلمة بن عبد الملك . فجاء أسطول من مصر بقيادة أمير بحر يدعى سفيان ، وآخر من شمال إفريقيا تحت إمرة شخص يدعى يزيد . وتعاون هناك القائدان مع مسلمة ، لأن أمير البحر السابق سليمان توفى من قبل أثناء الشتاء . وكذلك وصلت نجدات برية بقيادة رجل يدعى مرداس ، عبرت آسيا الصغرى عن طريق أبواب قيليقيا ، وعسكرت فى نيقوميديا ونيقيا . وأخذت القوات الأخيرة تهاجم من شواطىء إقليم أو بسيكيون الحربى ، المعروفة بالشواطىء البحرية « Peratic coast » السفن البيزنطية التى تحاول الخروج ، طلباً للحصول على صيد بحرى يغذى سكان العاصمة ،أو الذهاب إلى البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه[2] .

× واستخدم المسلمون النفط ، واستعانوا بنوع أشبه بالمدفعية فى حصار القسطنطينية .

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٧ .

(٢) Bury, op cit 403 .

وأبلى الجند من ضروب الشجاعة ماشهد لهم بعلو روحهم المعنوية وحبهم للاستشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الاسلام[١] . وظهر من الجند الاسلامى رجل يدعى عبد الله البطال ، وكان كبير حراس مسلمة بن عبد الملك . فقد أبلى فى هذا الحصار بلاءاً حسناً أكسبه لقب زعيم الأبطال . واستشهدهذا البطل فى معركة تالية (٧٤٠م) بعد انتهاء الحصار الاسلامى ، حيث كان دائباً على الجهاد . وعرف فى القصص التى تداولت عن شجاعته باسم السيد غازى ، واعتبره الأتراك فيما بعد بطلا من أبطال أمتهم . وأنشىء على قبره بالقرب من إسكى شهر تكية ومسجداً لأبناء الطريقة البكتاشية لا يزالان إلى اليوم . وتسرد القصص عن البطال أيضاً أن البيزنطيين رسموا صورته على بعض كنائسهم لتذكير الناس بما له من بأس وسطوة بين جند المسلمين[٢] .

وفى تلك الفترة التى اشتد فيها الحصار الاسلامى لمدينة القسطنطينية ، توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز . وتردد صدى هذا التغيير فى ميدان الحملة الاسلامية المحاصرة للعاصمة البيزنطية . إذ كان الخليفة سليمان يمثل عصر أوج الفتوحات الاسلامية ، مما جعله يبدى اهتماماً بالغاً بإمداد الجيوش الاسلامية أمام القسطنطينية بكل ما يكفل لها السيادة والقوة . ولكن أحوال الدولة الاسلامية على عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز اقتضت إيجاد فترة استقرار فى تيار الفتوحات لتدعيم الصرح الإسلامى العظيم الذى ظهر وعلا . إذ غدت الدولة الإسلامية تمتد من حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً ، ومن بحر آرال شمالا إلى شلالات النيل السفلى جنوباً . وأصبحت بذلك تبذ سائر الامبراطوريات الكبرى التى عرفها التاريخ من قبل ؛ وتقضى أوضاعها الزمنية توجيه الجهود إلى تنظيمها وتأمين رقعتها قبل الاستمرار فى الفتح والتوسع .

---

(١) العيون والحدائق ، ج ٣ ص ٢٤ .
(٢) Hitti, History of Syria, 449.

ولذا اتجهت أنظار الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى سحب القوات الاسلامية المحاصرة للقسطنطينية . فأرسل فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م أى بعد حصار دام اثنى عشر شهراً كاملا ، يطلب من مسلمة العودة بجيوشه وأساطيله إلى الشام . وهكذا عادت الجيوش الاسلامية إلى قواعدها بعد أن أدت رسالتها فى إعزاز دولة الاسلام ، وحملت عاصمة البيزنطيين وأباطرتها على التخلى عن مشاريعهم وأحلامهم القديمة فى استعادة سالف أراضيهم التى دخلت فى رقعة الاسلام . وترك الخلفاء الأمويون بحملاتهم المتكررة على القسطنطينية سجلا حافلا بجهودهم فى نصرة الاسلام ،وحافذاً جعل خلفاؤهم من الدولة الاسلامية يتطلعون للاستيلاء على هذه العاصمة . وظلت رسالتهم ماثلة حتى حققها شعب إسلامى فتى ، هم الأتراك العثمانيون ، بعد انقضاء سبعة قرون تقريباً على الحملة الأموية الكبرى زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك .

وإذا كان الأمويون قد تركوا مهمة الاستيلاء على القسطنطينية لغيرهم من المسلمين ، فإن جهودهم وحملاتهم على هذه العاصمة لم تضع سدى،إذ تردد صدى هذه الحملات فى إقليم شمال إفريقيا ، الذى اتجهت إليه جيوشهم أيضاً لطرد البيزنطيين منه ، وضمه إلى رقعة الاسلام . فقد صرفت أحداث الحصار الأموى للقسطنطينية أنظار الأباطرة عن التفرغ لدفع المسلمين عن شمال إفريقيا ، واعتبروا حماية هذا الاقليم فى المرتبة الثانية بالقياس إلى الدفاع عن عاصمتهم . وهكذا جنى الأمويون ثمار جهودهم ضد القسطنطينية ، حيث جعلوا من شمال إفريقيا ركناً هاماً من أركان الدولة الاسلامية القوية الأوتاد .

الفصل الرابع

استيلاء الأمويين على شمال إفريقيا وإقصاء البيزنطيين

المغرب قبل العصر الأموى

إفريقية البيزنطية

حمل الأمويون راية الجهاد ضد البيزنطيين فى كل مكان ، وتعقبوهم فى كل بقعة يمكن أن تتخذ قاعدة يهاجمون منها أرض الإسلام . وكانت الجبهة الجديدة التى اتجه إليها الأمويون هى شمال إفريقيا البيزنطية . وقد آلت هذه البلاد إلى الامبراطورية البيزنطية بعد انهيار الدولة الرومانية الكبرى ، واشتملت على الساحل الممتد من برقة إلى طنجة . واعتمدت السلطات البيزنطية على موارد الغلال بهذه البلاد فى تموين رعاياها بالعاصمة ، فضلا عن أخذ أخشابها لبناء أساطيلها [1] . وهذا يوضح أهمية الدور الذى قام به الأمويون لانتزاع هذه الأراضى من البيزنطيين ، وتقليل مجهوداتهم على الحدود الشرقية بآسيا الصغرى .

وكان سلطان البيزنطيين غير مستقر فى هذه الرقعة من ممتلكاتهم قبل قيام الفتوحات الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . إذ ساءت العلاقات بينهم وبين سكان البلاد ، ولا سيما أبناء البلاد الأصليين [2] ، الذين ظلوا بعيدين

(١) Brehier, Vie et Mort de Byzance, 26·

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب (١٩٤٧) ص ٥ ؛
ويعتبر هذا الكتاب أحدث مرجع تناول فى أسباب فتح المسلمين للمغرب ، ويضم=

عن حضارات البحر الأبيض المتوسط . وكان الرومان يطلقون كلمة برر (Barbari) — على نحو ما فعل اليونان من قبل — على سائر العناصر التى لا تدين بحضارتهم . ومن ثم لصق هذا الاسم بسكان شمال إفريقيا الأصليين ، وظل شائعاً حتى جاء المسلمون واتخذوا نفس الاسم للدلالة على سكان المغرب دون تغيير فى مدلوله (١) .

وقد انقسم أولئك البربر إلى قسمين متباينين كان لهما أبعد الأثر فيما بعد فى الصراع الذى نشب بين المسلمين والبيزنطيين . القسم الأول يشمل على البربر المستقرين المقيمين فى النواحى الخصبة المحيطة بجبال أوراس ، وهى جنوب ووسط الجزائر الحالية ، وجنوب مراكش و بعض أجزاء من تونس الغربية . وكان هذا القسم على جانب من الحضارة لقيام نوع من العلاقات بينه و بين البيزنطيين المستقرين فى البلاد ، واشتغل بالزراعة والصناعة (٢) .

وكان القسم الآخر من البربر يضرب فى الجهات الصحراوية التى تلى منطقة جبال أوراس ، وفى الواحات التى تقع فى المنطقة الجنوبية والشرقية من الصحراء . ودأب أولئك البربر على مهاجمة أراضى البربر المستقرين ، حتى ظهر نوع من العلاقات بين البربر المستقرين والبيزنطيين لصد عدوان البربر البدو . واستغل البيزنطيون هذه العلاقات حين زحف المسلمون على شمال إفريقيا ، وظلوا يعتمدون عليها فى المقاومة حتى تمكن المسلمون من ضم البربر البدو إليهم وسيطروا على شمال إفريقيا . وهكذا كان الشقاق بين عنصرى البربر من العوامل التى أطالت عهد البيزنطيين بأراضيهم . ولكن كان نفوذهم غير مستقر ، حيث بسط البربر البدو

معلومات قيمة أشير على القارىء بالرجوع اليها فيما يريد أن يتوسع فيه من آراء جاءت فى هذا الفصل . وقد بذل المؤلف جهدا كبيراً فى مناقشة أحداث الفتح وضبط سنواتها .

(١) Hitti, History of the Arabs, 214.

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع، ص ٦ .

إغاراتهم على سائر الأراضى التابعة للبيزنطيين بالساحل (١).

وزاد فى عدم استقرار النفوذ البيزنطى فى شمال إفريقيا أن حكام هذه الولاية جنحوا فى الفترة السابقة لحركة امتداد الزحف الإسلامى إلى الاستقلال بشئونهم (٢). إذ ظهر على مسرح الأحداث أسرة عسكرية من سلالة أحد الحكام البيزنطيين يدعى جريجوريوس (٣)، تولى حكم إفريقيا البيزنطية سنة ٦١٠ م، واعتبرت البلاد ملكا لهم (٤). واتجه آل جريجوريوس إلى تدعيم علاقاتهم بالبربر ليضمنوا استقرار الأمور لهم. وظهر تفكيرهم فى الانفصال عن الدولة البيزنطية فيما بين سنة ٦٢٨، ٦٢٩ م حين فكر الامبراطور هرقل فى نقل عاصمته من القسطنطينية إلى قرطاجنة بشمال إفريقيا فراراً من الزحف الفارسى. فقد اضطرب حاكم إفريقيا، وكان إذ ذاك يدعى جريجوريوس أيضا، وهو الذى عرفه المسلمون فيما بعد باسم جرجير، وصمم على الانفصال التام حتى لا ينتقل هرقل إلى قرطاجنة (٥).

ولم يلبث جرجير أن انتهز فرصة عدول الإمبراطور عن ترك القسطنطينية، وقيام الفتوحات الإسلامية فى الشام فيما بعد واستقل تماماً بشئون إفريقيا. واعتمد فى ذلك على تشجيع البابا فى روما، حيث كان يناهض سياسة الأباطرة البيزنطيين الدينية، وعلى مؤازرة البربر أيضاً الذين أعلنوا ولاءهم لآل جريجوريوس، حيث أنقذوهم من المطالب الباهظة؛ وإلى جانب ذلك عضد بعض البيزنطيين

---

(١) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٦، ٧

(٢) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢١.

(٣) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢١، ٢٢.

(٤) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢٣، ٤٢.

(٥) ابن عبد الحكم، نفس المرجع، ص ١٨٣؛ Bréhier, op cit, 59.

من أصحاب المطامع استقلال جرجير بإفريقيا [١] . ولكن لم يهنأ جرجير باستقلاله ، إذ ما كاد ينفصل عن الدولة البيزنطية حتى كان المسلمون قد استولوا على مصر ، ووصلت طلائع جيوشهم إلى برقة وطرابلس .

طلائع الفتح الإسلامي :

كان اتجاه عمرو بن العاص لفتح مصر ضرورة اقتضتها العمليات الحربية وتأمين الفتوحات الإسلامية بالشام . إذ كانت مصر معقلا حصينا للبيزنطيين وقاعدة تهدد سلامة الجيوش الاسلامية بالشام. ولكن بعد أن تم لعمرو فتح مصر أدرك أن ذنب الأفعى البيزنطية ما زال قائماً فى شمال أفريقيا ، وأنه لا بد من القضاء عليه . فقد تلقت الحاميات البيزنطية بمصر مددا وعونا من شمال إفريقيا مكنها من مقاومة الزحف الإسلامى ، وجعلت عمرو بن العاص يعرف أن برقة وما والاها من بلاد تابعة للبيزنطيين ، ولهم فيها منعة وعزة . وفضلا عن ذلك كان أهل برقة وطرابلس بصفة خاصة على علاقات قوية مع مصر ، حتى أن بعض قبائلهما اعتبر من سكان مصر الأقباط [٢] . وقامت بين مصر وهذه البلاد سبل الاتصال فى سهولة ويسر ، مما حفز عمرو على أن يتابع سيره إليها بعد فتح الاسكندرية للقضاء على ما قد يكون بها من تجمعات للبيزنطيين .

ولم يضيع عمرو بن العاص وقتا حين وجد الظروف تحمله على غزو شمال إفريقيا ، إذ بادر بإرسال عقبه بن نافع الفهرى فى سرية صغيرة إلى برقة ليستطلع أحوالها ريثما ينتهى من إتمام فتح مصر . ولما اطمأن إلى سلامة موقفه بمصر ،

---

(١) Diehl, L'Afrique Byzantine, 552, 556;
حسين مؤنس ، فتح المغرب ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٥٣ ؛
ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

ووصلته أنباء مشجعة من عقبة عن حالة برقة ، زحف بنفسه على تلك البلاد وفتحها . وقد سارع البربر بالدخول فى طاعة المسلمين وصالحوهم على دفع جزية كبيرة . ودفع أهالى برقة الجزية عن طيب خاطر وبعثوا بها إلى مصر ، حتى أنه « لم يكن يدخل برقة يومئذ جابى خراج ، وإنما كانو يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها »[١].

وسار عمرو بن العاص بعد ذلك إلى فتح طرابلس ، واتبع خطة تعتبر النموذج الذى احتذاه قادة بنى أمية فيما بعد لاتمام فتح شمال أفريقيا . إذ تقدم عمرو على امتداد الساحل دون أن يهمل الناحية الداخلية ، فكان يعمل على تأمين جيوشه من الأخطار التى قد تدهمها من هذه الجبهة وتدعيم مركزه فيها قبل أن يواصل زحفه على الساحل . فأرسل البعوث الحربية إلى داخل البلاد ، ثم بدأ فتح مدائن الساحل ، إذ عرف أن انتزاع الساحل من أيدى البيزنطيين لا يعنى خضوع البلاد ، ودخولها فى حظيرة المسلمين . واستطاع عمرو بذلك أن يستولى على مدن الساحل بطرابلس ، وواحاتها الداخلية دون أن يلقى مقاومة كبيرة[٢].

وترجع السهولة التى سيطر بها عمرو على طرابلس إلى عدم وجود أية مقاومة بيزنطية . ذلك أن جرجير لم يبد إهتماما بالدفاع عن برقة وطرابلس . فقد انفصل تماما عن الدولة سنة ٦٤٦م ، أى فى الوقت الذى زحف فيه عمرو على طرابلس . ومن ثم اتجه جرجير إلى تأمين نفسه أولا وتعزيز دولته الجديدة قبل أن يواجه المسلمين. ووقع اختياره على أحد حصون الهضبة الداخلية ويعرف بمدينة سبيطلة . وكانت هذه المدينة إلى جانب منعتها تشرف على السهل الساحلى كذلك . وما أن

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ٢٣٢ ؛ ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ١٧٠ ، ١٩١ .
(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٥٧ .

انتهى عمرو من الاستيلاء على طرابلس حتى رأى التوقف عن الزحف وطلب أمداداً جديدة قبل استئنافه السير. ثم انسحب عندما أمره الخليفة عمر بن الخطاب بالكف عن مواصلة الفتح، حتى تستقر الأوضاع فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية[١]

وبعد عودة عمرو بن العاص إلى مصر خرجت طرابلس عن طاعة المسلمين واحتلها البيزنطيون مرة أخرى، أما برقة فقد ظلت على التبعية المسلمين، وبقى بها عقبة بن نافع، حيث قضى وقته متنقلا بين قبائلها الضاربة حولها وبالقرب من واحاتها. ولكن المسلمين لم يغضوا الطرف عن شمال أفريقيا، حيث رأى خليفة عمرو بن العاص على مصر، وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح، خطورة بقاء البيزنطيين فى تلك البلاد بالقرب من التخوم الإسلامية. فبعث يستأذن الخليفة عثمان بن عفان فى غزو شمال أفريقيا للقضاء على جرجير ومملكته.

أذن الخليفة لعبد الله بن أبى سرح بالزحف على أرض المغرب. فخرج على رأس قوات كبيرة ووصل إلى سهل تونس. وكان جرجير قد تعمد أن لا يصد زحفه، متجها إلى تحصين نفسه بالداخل. ووقف جرجير على أتم استعداد عند مدينة « عقوبة » على أميال من سبيطلة. وهناك دارت معركة رهيبة تم للمسلمين فيها الفوز وسقط فيها جرجير نفسه قتيلا[٢].

وتابع عبد الله انتصاره بالزحف على سبيطله نفسها، وحاصرها حصاراً شديداً حتى سقطت، وقضى على من بها من البيزنطيين. وبسقوط هذ المدينة أصبحت ولاية أفريقية تحت رحمة المسلمين، فواصلوا تقدمهم حتى بلغوا سفوح الجبال

---

(١) البلاذرى، نفس المرجع، ص ٢٢٤؛ حسين مؤنس، نفس المرجع، ٦٧، ٦٨.
(٢) البلاذرى، نفس المرجع ص ٢٢٤، ٢٣٥؛ ابن خلدون، نفس المرجع، ج ٢ ص ١٢٩.

مطاردين فلول البيزنطيين . إذ تفرقت قوة البيزنطيين بعد واقعة سبيطلة ، ولجأ معظمهم إلى حصن قـــديم يدعى « الجم » (Thysderas) . فسارع عبد الله بن أبى سرح وحاصر هذا الحصن حتى استولى عليه وأطاح بقوة البيزنطيين تماما (١) .

وأغارت بعض السرايا من جيش عبد الله بن أبى سرح على سائر أرجاء البلاد فى الفترة التى كانت تسقط فيها حصونها الهـــامة على الساحل . ومن ثم اضطر رؤساء البربر إلى عقد اتفاق مع عبد الله بن أبى سرح يقضى بأن يدفعوا له قدراً معيناً من المال سنوياً ، وأن يترك بلادهم (٢) . وقد آثر عبد الله بن أبى سرح انتهاز فرصة عرض البربر الصلح وصمم على الرجوع إلى مصر لقلة عدد الجند فى جيشه ، وعدم استطاعتها مواصلة القتال . وشجعه على العودة أنه انتهى من تحقيق هدفه وهو القضاء على قوة جرجير الثائر البيزنطى ، الذى وقف وحيداً فى الميدان دون أن يتلقى أمداداً من الدولة البيزنطية .

وبذلك لم تكن حملة عبد الله بن أبى سرح فتحاً منظماً ، إذ لم يتبع خطة مرسومة على نحو ما فعل عمرو بن العاص من قبل ، كما أن حملته لم تتمخض عن نتائج لها أهميتها فى استقرار الفتح الإسلامى . إذ لم يستطع عبد الله بن أبى سرح الحصول على أمداد جديدة من الخليفة عثمان تمكنه من استئناف الزحف على شمال أفريقيا . فقد أخذت بذور السخط على الخليفة عثمان تنمو رويداً لتفضيله أبناء البيت الأموى فى إدارة الأمصار الإسلامية ، ثم شبت وترعرعت حتى غدت عاصفة هو جاء . فقتل الخليفة عثمان ، وشغل بنو أمية فى الدفاع عن أنفسهم تحت لواء معاوية والى الشام .

---

(١) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٢٩ .

وانقضت فترة بلغت ثلاثة عشر عاماً تقريباً بعد عودة عبد الله بن أبي سرح من شمال أفريقيا ،وقفت فيها المجهودات الحربية الإسلامية للقضاء على البيزنطيين فى تلك البلاد . ولكن بعد أن استتب الأمر لمعاوية وأصبح خليفة للمسلمين وجه عنايته لمحاربة البيزنطيين بشمال أفريقيا مثلما بذل من جهود للاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية . وقد استفادت الجيوش الأموية الغازية لشمال أفريقيا من انشغال البيزنطيين بالحروب دفاعاً عن عاصمتهم حتى تم لهم أخيراً السيطرة على هذه الرقعة الهامة وضموها إلى حظيرة الإسلام .

معاوية بن أبى سفيان والمغرب

حملة معاوية بن حديج سنة ٤٥ هـ / ٦٦٦ م

أخذت موجة الفتوحات الاسلامية تنطلق مرة أخرى بعد استقرار الأمور لمعاوية بن أبى سفيان . واتسمت فى هذه الحقبة بطابع النشاط والعمل المتواصل ، إذ عهد معاوية بمشاريعه الحربية إلى رجال مخلصين خبرهم وجرب عودهم أثناء مساعدتهم له فى النضال بينه و بين على بن أبى طالب . فعين الكثير من أولئك الرجال على قيادة الجيوش الأموية لاستئناف الجهاد ضد البيزنطيين . واختص الجبهة الإفريقية بالشخصية الأولى من رجاله الممتازين وهو عمرو بن العاص فاتح مصر الأول ، وواضع الحجر الأساسى لفتوح شمال إفريقيا .

وكان عمرو إذ ذاك قد تقدم به العمر ، وما زالت مشاكل الخلافة بالشرق لا تسمح بحشد جيوش كبيرة لفتح شمال أفريقيا ، فآثر أن يبعث سرايا حربية صغيرة إلى برقة وطرابلس تحت إمرة عقبه بن نافع الفهرى ، دون الدخول فى مشاريع واسعة النطاق (١) . وكانت الامبراطورية البيزنطية إذ ذاك قد أخذت تولى عنايتها بشمال أفريقيا ، وتعمل على تدعيم نفوذها بها . وتجلى هذا التغيير فى السياسة البيزنطية بعد واقعة ذات الصوارى البحرية (٣٤ هـ/٦٥٥ م) ، إذ بينما شغلت الدولة الاسلامية بفتنة مقتل عثمان وما تلاها من صراع بين على ومعاوية ، تحول الامبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى إلى العناية بشئون شمال أفريقيا .

ودفع الامبراطور قنسطانز إلى الاهتمام بأحوال شمال إفريقيا إدراكه عجز دولته عن إخراج المسلمين من الشام ومصر بعد واقعة ذات الصوارى . ومن ثم أخذ يعمل على تنظيم دولته بما يجعلها تواجه الأمر الواقع ، وهو أن المسلمين غدوا

---

(١) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١١١ .

قوة كبرى فى البحر الأبيض المتوسط . وبدأ قنسطانز سياسته الجديدة بأن نقل عاصمته إلى جزيرة صقلية ، حيث يستطيع من هذا المقر الآمن البعيد عن متناول الإغارات الاسلامية إعادة تنظيم صفوفه . واستهدف فى الخطة الجديدة ربط ما تبقى لدولته من أملاك بإيطاليا مع إفريقيا البيزنطية ، وتوجيههما إلى صد الزحف الاسلامى الذى أخذ يمتد إلى هذا الشطر من أملاك دولته(١) .

واتبع الامبراطور قنسطانز سياسة لم تؤد الغرض المنشود ، فما أن وصل صقلية . حتى عول على معاقبة البابا مارتن بروما لتشجيعه جرجير من قبل على الانفصال عن الدولة البيزنطية . فبعث جنداً قبضت على البابا ثم نفاه . وأعقب ذلك بإغضاب أهل شمال افريقيا من البربر المسيحيين بسبب سياسته الدينية والمالية . إذ تابع سياسة أسلافه من قبل باضطهاد البربر بسبب عقيدتهم الدينية ، وغالا فى فرض الضرائب عليهم ليملأ خزائنه بالمال . وأخذ من عاصمته الجديدة سيراكوز بصقلية يسترد بعض الأقاليم التى دانت للمسلمين فى شمال افريقيا ، ويطبق عليها سياسته المجحفة . ونجم عن ذلك أن عمّ السخط البلاد ودبرت مؤامرة للتخلص منه نجحت فى ١٢ يوليو سنة ٦٦٨ م ، إذ اغتيل الامبراطور فى عاصمته الجديدة ، وقبر معه مشروع تقوية الجبهة الغربية من امبراطوريته(٢) .

ولم تقتصر نتائج سياسة قنسطانز على إثارة السخط فحسب ، وإنما حملت البربر كذلك على الاستنجاد بالمسلمين وتخليصهم من النير البيزنطى وجاء هذا النداء فى الفترة التى عول فيها الخليفة معاوية على استئناف الجهاد ضد البيزنطيين بشمال إفريقيا. وكان عمرو بن العاص والى مصر قد توفى سنة ٤٣هـ/٦٦٤م وكان يشرف على شئون افريقيا إلى جانب ولاية مصر . فنصب الخليفة معاوية عقبة بن عامر

---

(1) Vasiliev, Histoire de L'Empire Byzantin I, 282

(2) Bury, op cit, 302, 303

الجهنى على مصر ، وخصص لشئون شمال أفريقيا معاوية بن حديج[١] إذ نصبه على قيادة الجيوش التى أعدها لفتح تلك البلاد ، وتولى إمارة ما يفتحه منها.

خرج معاوية بن حديج من مصر سنة ٤٥ هـ / ٦٦٦ م على رأس جيش كبير يضم عدداً عظيما من الصحابة والتابعين . وسار على طول الساحل حتى وصل سهل تونس ، ونزل عند مكان يدعى قمونية ، التى يرجح أنها الموضع الذى شيدت عليه مدينة القيروان فيما بعد . وكان البيزنطيون قد علموا بزحف معاوية بن حديج على شمال إفريقيا ، فأعدوا جيشاً كبيراً بقيادة رجل يدعى نقفور ، نزل فى تلك البلاد ، ليصد زحف المسلمين . ولكن البيزنطيين أدركوا قوة المسلمين وعجلوا بالانسحاب بحراً بعد المناوشات الأولى[٢] .

وسار معاوية بعد ذلك شمالا[٣] قاصدا مدينة بنزرت . ويلاحظ أن معاوية فضل الاتجاه إلى هذه المدينة متجنباً الهجوم على قرطاجنة ، ويبدو أنه آثر الابتعاد عن المدينة الأخيرة لقوتها ومنعتها ، حيث كانت معقلا قويا للبيزنطيين . ولذا لم يكن هجومه على بنزرت ليؤثر كثيراً فى مصائر الفتح الاسلامى لهذه البلاد . على أن معاوية استطاع فتح هذه المدينة ، ولقى من بعض أهالى البلاد القريبة منها عطفا ومساعدات[٤] . وهذه الظاهرة من الأمور الهامة التى ستنمو وتترعرع فيما بعد إبان الحملات الاسلامية التالية الأخرى . إذ كان ترحيب الأهالى بالمسلمين مما ساعد الجيوش الاسلامية على القضاء على البيزنطيين رغم الكر والفر الذى تبادله الطرفان على امتداد شمال افريقيا .

ولم يعمل معاوية على تدعيم هذه الفتوحات الإسلامية قبل عودته إلى مصر ،

---

(١) كان معاوية بن حديج من كبار القواد فى جيش عبد الله بن أبي سرح سنة ٣٤هـ/٦٥٥ م ، ومن أنصار عثمان بن عفان ، وبذل جهودا كبيرة فى نصرة معاوية فى النضال الذى تلا مقتل الخليفة عثمان. وقد كافأ الخليفة معاوية هذا القائد بأن عهد إليه فتح شمال افريقيا.

(٢) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٣.

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٣.

(٤) البكرى ، المغرب ، ص ٥٨ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١١

إذا اكتفى بهذا القدر من الفتوحات وقفل راجعاً فى أوائل سنه ٤٧ هـ. وخرجت المدن التى فتحها عن طاعة المسلمين بعد عودته ، مما جعل حملته لا تتمخض عن نتائج لها أهميتها فى فتح شمال إفريقيا . ولكن لم تلبث موجة الفتح الحقيقى أن بدأت بالحملة التى تلت أعمال معاوية بن حديج ، وكان بطل هذا الفتح رجلا عرف شمال إفريقيا وطالت خبرته بها و بأحوالها .

حملة عقبة بن نافع الأولى :

تعتبر حملة عقبة بن نافع الفهرى حداً فاصلا بين عهد الاغارات الإسلامية السريعة على شمال إفريقيا وعهد الفتح المنظم المستقر لهذه البلاد . إذ قام بعدة أعمال فى ذلك الميدان تعد الحجر الأول فى بناء إفريقيا الإسلامية ، رغم أن حملته بدت كسابقتها من الحملات الإسلامية إغارة سريعة طويلة المدى ، بلغت شاطئ المحيط الأطلسى ثم عادت أدراجها إلى قواعدها الأولى . إذ تركت حمله عقبة ورائها آثارا جعلت قلوب المسلمين تتعلق بشمال إفريقيا ، وتعتبره قطراً من دولة الإسلام يجب طرد البيزنطيين تماما منه وضمه إلى أرضهم .

و يعزى نجاح عقبة فى وضع الأسس الأولى لبناء دولة المسلمين بشمال إفريقيا إلى خبرته الواسعة بشئون هذا الإقليم . فقد عرف أحواله منذ ولاية عمرو بن العاص الأولى ، كما دان بظهوره على مسرح التاريخ الإسلامى فى هذا الميدان إلى تلك الفترة المبكرة من ولاية عمرو على مصر . فكان عقبة قرشياً من فهر يتصل بعمرو بصلة قربى من ناحية أمه[1] . وعرف عمرو فيه المقدرة والشهامة ، ووثق به ثقة كبرى . فعهد إليه باستطلاع أحوال برقة ، ثم عينه عليها سنة ٢٣هـ/٦٤٣م أثناء زحفه على طرابلس . ولبث عقبة مقيما ببرقة حتى حملة عبد الله بن أبى سرح

(١) ابن الأثير، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢٠ ؛ Encyc. of Islam (art Okba)

سنة ٢٧ هـ/ ٦٤٧ م ، ثم عاد إلى مصر حين رجع عبد الله بن أبى سرح سنة ٢٨ هـ/ ٦٤٨ م . وقد تركت السنوات الست التى قضاها عقبة ببرقة أثراً كبيراً فى نفسه . إذ صرف هذه الفترة فى التنقل بين قبائل البربر وواحاتهم ، مما جعل همته تتعلق بالفتح والغزو ، وغدا شخصية لا تعرف شيئاً غير الجهاد فى سبيل الله.

وأدرك عقبة من تجاربه ببرقة أن فتح المغرب لا يتم إلا إذا أنشأ المسلمون لهم فى قلب شمال إفريقيا مركزاً تعسكر فيه حامياتهم ، ويتخذوه قاعدة لمتابعة الغزو . وعمد إلى تحقيق هـذا الهدف عندما كلفه معاوية سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م بالزحف على شمال إفريقيا . وما كاد عقبة يتلقى الأمداد والجيوش حتى اتجه إلى أرض المغرب ، واتبع الطريق الداخلى الذى لا توجد به إلا مقاومة ضئيلة من البربر وسكان الواحات ، ووصل إلى موضع قمونية الذى عسكر فيه معاوية بن حديج من قبل .[١]

وولى عقبة عنايته حالما وصل قمونية إلى تأسيس مقر للمسلمين لتدعيم فتوحاتهم. وجاء اهتمامه وليد تجاربه ومشاهداته فى أرض المغرب ، إذ قال لجنده حين شرح لهم الأسباب التى تدعوه إلى تأسيس معسكر لهم مستقر ، أن أهالى إفريقية لا يعتنقون الإسلام إلا إذا دخلها قائد مسلم « فإذا خرج منها رجع من كان أسلم بها ، وارتد إلى الكفر ؛ وأرى لكم — يا معشر المسلمين — أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكراً ، وتكون عز الإسلام إلى آخر الدهر . »[٢]

وأخذ عقبة يبحث عن مكان يشيد فيه معسكره ، ولم يعجبه موضع قمونية نفسه الذى سبق أن عسكر فيه معاوية بن حديج. فأخذ يتجول فى منطقة قمونية بحثاً عن مكان يليق بما فى نفسه من أهداف . وكانت هذه المنطقة عبارة عن

---

(١) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٦ ؛
حسين مونس ، نفس المرجع ، ص ١٣٩ .
(٢) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٦ .

جهات فسيحة ، بها كثير من الزرع ، كما كانت غاصة بالحصون البيزنطية . وفى بقعه بالقرب من قمونية وجد حصناً قديماً تدل بقاياه على آثار عز سالف ، ولكن أدركه الخراب أوائل القرن السابع وهجره أهله ، وسكنته بعض الذئاب والضباع وما إلى غير ذلك من أشباه هذه الحيوانات . ووقع اختيار عقبة وصحبه على هذا الحصن وحطوا رحالهم بالقرب منه ، وأخذوا يستعدون لتخطيط مدينتهم إلى جواره . ففزعت الضوارى من حركة الجيش وولت الأدبار هاربة [١] .

ويعزى إعجاب عقبة بموضع هذا الحصن إلى أنه بعيد عن الساحل مما يجعله بمأمن عن إغارات البيزنطيين المفاجئة من البحر ، كما أنه يقع بالقرب من أرض ترعى فيها الماشية فى مأمن من هجمات البربر النصارى من أحلاف البيزنطيين . وأثبتت الأحداث صدق فراسة عقبة فى انتقاء الموضع الذى شيد عليه معسكره إذ كان موقعه الحربى ممتازاً ، حيث يستطيع الحاكم المقيم به أن يدير دفة عملياته فى سهولة ويسر . فهو يستطيع أن يرى العدو من بعيد ويأخذ حذره منه ، كما يتمكن من مطاردة البربر وتعقبهم فى أعالى الهضبة لأن الموقع يسيطر ويتحكم فى سائر الوديان الهامة التى تخترق الهضبة .

وبدأ عقبة بتخطيط المدينة التى عرفت باسم القيروان [٢] ، فشيد دار الإمارة والمسجد أولا ، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم حولها [٣] . وقد غدت المدينة علي عهده أشبه بمخزن للسلاح ، ولكن أخذت فى هذه الفترة المبكرة تلعب دوراً هاماً فى أحداث الفتح الإسلامى ببلاد المغرب ، إذ كان تأسيس القيروان الخطوة الأولى العملية فى القضاء على نفوذ البيزنطيين بشمال إفريقيا ، حيث

---

(١) المالكى، نفس المرجع ، ص ٦ ، ٧ ؛ Encyc. of Islam (art Kairawan)

(٢) القيروان لفظ فارسى معرب ، ومعناه قافله أو مراح القوافل ، وكان العرب يستخدمون هذه الكلمة زمن الجاهلية (انظر حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٥٣) .

(٣) المالكى . نفس المرجع ، ص ٧ ، ٨ .

دعمت أقدام المسلمين وسط ولاية إفريقية البيزنطية ، التى تحممت بهـا معظم حصون البيزنطيين ومعاقلهم .

ولم يبد البيزنطيون أى نشاط لعرقلة عقبة عن الاستمرار فى بناء هذه المدينة ، إذ قضى أربع سنوات فى تخطيطها دون أن يحرك البيزنطيون فى قرطاجنة التى تبعد عن القيروان مسيرة ثلاثة أيام ساكنا ، ربما لم يدركوا خطورة ظهور هـذا المعقل الإسلامى بالقرب منهم . ولـكن يعزى السبب فى هذا التقاعد إلى أن الدولة البيزنطية عجزت عن بسط يد المساعدة لأبنائها بشمال إفريقيا ، لانشغالها بالدفاع عن عاصمتها . فقد عاصرت أعمال عقبة فى شمال إفريقيا وتأسيسه القيروان الحصار الثانى الذى ضربه معاوية حول القسطنطينية ، وهو المعروف بحرب السنوات السبع . (١)

ولـكن عقبة لم ينعم بثمار جهوده ، إذ تطلع والى مصر إذ ذاك مسلمة بن مخلد (٤٧ هـ / ٦٦٨ م) إلى ضم ولاية إفريقية الى دائرة نفوذه بمصر . ووافق الخليفة معاوية على طلب مسلمة (٢) ، حيث كان من كبار أنصار معاوية أثنـاء فتنة عثمان بن عفان . ولما ولى مسلمة شئون شمال إفريقيا عزل عقبة ، وبعث قائداً جديداً يدعى دينار أبو المهاجر ليحل مكان عقبة (٣) . وقد عاد الأخير الى دمشق مغيظاً حيث كان قد أخذ يعد العدة لاستئناف الفتح بعد فراغه من بناء القيروان.

---

(١) Deihl, L'Afrique, 573

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢٩ .

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ١٩٧ ؛ السلاوى ، الاستقصاء ، ص ٣٧ .

التحالف البيزنطى البربرى

حملة دينار أبو المهاجر (٥٥-٦٢هـ/٦٧٤-٦٨١م)

عاصرت بداية حملة دينار أبى المهاجر[١] انقلابا فى السياسة البيزنطية تجاه البربر، كان لها أبعد الآثار فى وضع الصعاب أمام فتح المسلمين لبلاد المغرب. اذ استطاعت الدولة البيزنطية فى الفترة التى عزل فيها عقبة أن تستعيد نشاطها، حيث انتهى الحصار الأموى الثانى لعاصمتها. وكان الامبراطور البيزنطى إذ ذاك هو قنسطنطين الرابع، الذي أخذ يدرس الأسباب التى أدت إلى ضعف دولته ويعمل على إزالتها. وتبين قنسطنطين أن علة الفساد فى دولته وضعفها هو العداء المذهبى والسياسة الدينية الاضطهادية التى اتبعتها السلطات البيزنطية إزاء أهالى ولاياتها المخالفين لها فى العقيدة الدينية. ورأى قنسطنطين نتائج هذا الاضطهاد فى إفريقية البيزنطية، إذ كان البربر المسيحيون يضمرون الكراهية والبغضاء للدولة ويتمنون زوال سيادتها عنهم.

بادر قنسطنطين باتخاذ خطوة هامة ليتقرب إلى أولئك البربر ولضمهم إلى جانب قواته فى نضالها ضد المسلمين. فجمع مجلسا دينيا سنة ٦٨٠ م نجح فى وضع حد للخصومات المذهبية[٢] التى فرقت بين الدولة البيزنطية و بين ما تبقى لها من رعايا بشمال إفريقيا و إيطاليا. وجنى الامبراطور قنسطنطين ثمار هذا المجلس الدينى، إذ زال ما عند البربر المسيحيين من عوامل الكراهية نحو الدولة البيزنطية و بدأوا يعملون على شد أزرها ومناصرتها فى حربها مع المسلمين.

---

(١) اغفل الكتاب سيرة دينار أبو المهاجر لأن حملته وقعت بين حملتين كبيرتين قام بهما عقبة بن نافع. ولكن يرجح أنه كان من أهل مصر، أعتقه مسلمه بن مخلد والى مصر، وقربه اليه لذكائه ومهارته.

(٢) Diehl, op cit, 57‍6.

ووجد بذلك تحالف بين البربر المسيحيين والبيزنطيين بشمال إفريقيا ، وظهر تعاونهم جليا خلال الحملات الإسلامية التى تلت عزل عقبة ، واصطدم بتحالفهم الأول دينار أبو المهاجر . ولكن يلاحظ أن هذا التحالف لم يكن واسع النطاق ، إذ ظل البربر البدو بمعزل عنه ، ولم يدخل تحت لواءه إلا البربر المسيحيون ، ولا سيما أولئك الذين تأثروا بالحضارة البيزنطية . على أن القائد المسلم دينار أبو المهاجر استطاع أن يواجه هذا التحالف البيزنطى البربرى بحزم وكياسة وتمكن أن يقلل من الفوائد التى عمدت الدولة البيزنطية إلى الحصول عليها .

وعندما وصل دينار أبو المهاجر ضواحى القيروان أحس تبدلا فى نشاط البربر ، إذ كانوا من قبل لا يبدون مقاومة فى مناهضة الحملات الإسلامية . وأدرك أن المغرب الأوسط ولا سيما المنطقة الواقعة بين تاهرت ووهران والتى تتوسطها تلمسان هى مقر نشاط البربر الجديد . فكانت هذه المنطقة أسرع الجهات استجابة لسياسة البيزنطيين ، لأنها موطن البربر الذين تأثروا منذ زمن قديم بالحضارة البيزنطية . وأقام فى مرتفعات تلمسان والمنطقة المجاورة لها منذ أواخر العصر البيزنطى أقوى قبائل البربر المسيحيين وهى قبيلة أربة [١] .

وعرفت قبيلة أوربة نوعا من الزعامات القوية ، كما ساد أفرادها النظام والطاعة للرؤساء . وكان يتولى أمرهم فى الفترة التى وصل فيها دينار أبو المهاجر إلى القيروان شخص يدعى كسيلة وأخذ هذا الزعيم بتحريض من البيزنطيين يجمع القبائل البربرية ويحشدها لمواجهة زحف المسلمين الذى اقترب من موطنهم الأصلي . وهكذا أخذ أصبع البيزنطيين يندس بين البربر المسيحيين ويحركهم ضد المسلمين بعد أن كانوا لا يفكرون فى مقاومتهم . وبادر القائد المسلم دينار أبو المهاجر إلى مهاجمة أولئك البربر فى مقرهم ليقضى على تجمعاتهم ، ويحد من شوكتهم رغم بعد الشقة بينه وبينهم [٢] .

---

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٦ .
(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

وصل دينار أبو المهاجر وجيشه إلى المنطقة المحيطة بتلمسان ، مقر حركة المقاومة البربرية ، واصطدم بالبربر هناك . ولكن القائد المسلم لم يقس فى حربه مع كسيلة حيث استخدم السياسة فى كسب هذا الزعيم البربرى إلى جانبه . ولذا عندما هزم كسيلة وأسر عامله دينار أبو المهاجر معاملة حسنة ، حتى قام نوع من المودة والصداقة بينهما . فأسلم كسيلة ، وانضم إلى جيش المسلمين يعاونهم فى حرب البيزنطيين (١) .

ويعتبر دينار أبو المهاجر واضع الحجر الأساسى فى سياسة فصم البربر عن البيزنطيين وتحطيم التحالف الذى قام بينهما . وآثر فى كل أعماله إظهار عطفه واحترامه للسكان الأصليين ، وبيّن بجلاء أن هدف المسلمين تخليص بلاد البربر من نير البيزنطيين . ويبدو أن البيزنطيين فى المدن الساحلية اكتفوا بتحريض البربر على المسلمين دون التصدى لهم . واستفاد دينار أبو المهاجر من ذلك ، إذ بعد أن انتهى من القضاء على حركة البربر سار قاصداً قرطاجنة أقوى المدن البيزنطية بشمال إفريقيا .

حاصر المسلمون مدينة قرطاجنة سنة ٥٩ هـ / ٦٧٨ م ، وقاتلوا أهلها قتالا شديداً دون أن يستطيعوا الاستيلاء عليها . على أن دينار أبا المهاجر رفض أن يرفع الحصار عنها إلا بعد أن تنازل البيزنطيون له عن جزيرة شريك . وكانت هذه السياسة بارعة من القائد المسلم ، فلم يقبل أن يترك قرطاجنة وحصارها مقابل مبلغ من المال ، وإنما طلب تنازلهم عن جزء من بلادهم . وضمن بذلك وضع شوكة تهدد عاصمة البيزنطيين بشمال أفريقيا . إذ أرسل قائدة حنش الصنعانى ومعه شطر من الجيش الإسلامى ليعسكر بهذه الجزيرة ، وأوجد بذلك حارساً يهدد قرطاجنة نفسها ويرقب أعمال البيزنطيين بها ، ويمنعهم من التقدم نحو الجنوب إذا حدثتهم نفسهم بالهجوم على القيروان (٢) .

---

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٦ .Mercier, L'Afrique, 204

(٢) المالكي نفس المرجع ، ص ٢٠ ؛ حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٧٢ .

عاد دينار أبو المهاجر إلى مقره الذى اتخذه بالقرب من القيروان بعد أن أمضى نحواً من عامين فى جهاد البيزنطيين ، ونجح فى تحقيق أهدافه بفصم عرى التحالف بين البربر والبيزنطيين . واستطاع فى حملته أن يكسب إسلام زعيم كبير من رجال البربر وهو كسيلة . وطبيعى أنه نهج على منوال كسيلة كثير من البربر ودانوا بالإسلام . ولكن تقلب السياسة فى الدولة الإسلامية لم يمكن ديناراً أبو المهاجر من تحقيق أهدافه إلى نهايتها ، إذ عزل عن ولاية إفريقية وخلفه عقبة بن نافع مرة أخرى .

حملة عقبة بن نافع الثانية (٦٢ — ٦٣هـ / ٦٨١ — ٦٨٢ م)

كان عقبة يعمل جاهدا فى دمشق منذ عزله عن ولاية إفريقية على العودة إلى هذا الميدان الذى قضى به سنوات كثيرة من زهرة عمره وتعلق قلبه به . وقد حانت الفرصة له حين توفى مسلمة بن مخلد على عهد الخليفة يزيد بن معاوية . إذ استجاب يزيد لرغبة عقبة و بعثه على رأس أمداد كبيرة إلى الجبهة الإفريقية فى سنة ٦٢هـ / ٦٨١م . ووصل عقبه إلى حاضرته القيروان وجدد عمارتها ، حيث أصابها بعض الخراب لإهمال دينار أبو المهاجر لها وقد دخل هذا القائد فى خدمة عقبة (١) ، وسار معه فى فتوحاته بشمال إفريقيا . ولكن عقبة لم يحاول الاستفادة من خبرة هذا القائد ولا سيما من حيث استرضاء البربر . إذ غاب عن عقبة أن أحوال إفريقية قد تبدلت تبدلا جوهريا منذ حملته الأولى ، ولم يدرك كنه التحالف الذى نشأ بين البربر والبيزنطيين بعد سياسة قنسطنطين الرابع الدينية .

وقد سار عقبة على سياسته القديمة فى محاولة التوغل داخل بلاد البربر دون أن يستميلهم إليه ، وتجلت هذه السياسة القديمة فى علاقته مع كسيلة زعيم البربر ،

(١) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٧٧ ؛
ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٨ .

الذى اعتنق الإسلام على عهد دينار أبى المهاجر . فقد أخذ عقبة هذا الرجل معه فى حملاته دون أن يظهر له العطف والتقدير على نحو ما فعل سلفه . ومن ثم تغير قلب كسيلة على عقبة ، ولعب دوراً كبيراً فى القضاء على مجهوداته ، حين جاءته الفرصة المناسبة أثناء الحملة .

فقد زحف عقبة من القيروان على شمال إفريقيا عبر الطريق الداخلى البعيد عن الساحل [1] . ولكن التحالف البربرى البيزنطى تصدى له عند المدن الهامة وأخذ يطمر آبار المياه فى طريقه . وزاد فى مقاومة البربر مراسلة كسيلة لهم سراً ، وحثهم على تنظيم صفوفهم . على أن عقبة تغلب على ما واجهه من صعاب حتى بلغ طنجة ، حيث قدم له حاكمها فروض الطاعة .

عاد عقبة بعد ذلك قاصدا القيروان [2] التى خلف عليها من قبل زهير بن قيس البلوى . واختار لعودته نفس الطريق الداخلى الذى سلكه من قبل متجنباً طريق الساحل . وكان طريق العودة مليئاً بالأخطار والمخاوف ، حيث استطاع كسيلة أن يفر من جيش عقبة ، وأعد البربر للغدر به . وأحس عقبة بما كان يدبر له ، فعجل بالسير حتى وصل مدينة طبنة . وهناك أمر معظم جيشه بالذهاب رأساً إلى القيروان ، إذ أحس فساد المياه فى الأبار التى مر عليها ، وبقى مع جزء يسير من قواته لحماية مؤخرته .

ورأى البربر والبيزنطيون فرصتهم قد سنحت للغدر بعقبة بعد أن سبقه معظم جيشه ، فانسحبوا أمامه متجهين إلى الجنوب الغربى فى اتجاه تهودة ، وأغروه على أن يقتفى أثرهم ، متظاهرين بقلة عددهم . وعند حصن قديم بيزنطى بالقرب من تهودة تحصن كسيلة ، حيث كان البيزنطيون قد استعدوا هناك كذلك [3] .

---

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٨ .

(٢) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٨.

(٣) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ ، ١٤٦ .

وبادر عقبة بالهجوم على الحصن ليقضى على البيزنطيين وأحلافهم ، ولكن ما أن اقترب منه حتى أحاط به البربر من كل مكان وضيقوا الخناق على القوات الإسلامية . على أن عقبة قاوم فى شجاعة مما جعل المعركة حامية الوطيس ، ولكن لم يلبث أن استشهد فى ساحة القتال ومعه كثير من كبار رجال جيشه ومن بينهم دينار أبى المهاجر ، ووقع كثير من باقى المسلمين أسرى (١) . وقد نجم عن هذه المعركة نتائج كان لها أبعد الأثر على مجريات الفتوح الإسلامية فيما بعد . إذ افتدى بعض كبار الشخصيات من رجال البربر نفرا من الأسرى المسلمين ، مما يدل على أن الإسلام كان قد دخل قلوب بعض البربر وآمنوا به وكان معظم أولئك البربر الذين مالوا إلى الإسلام من القبائل البدوية البعيدة عن الحضارة البيزنطية (٢) .

ولما بلغ زهيراً نبأ مأساة تهودة ، أخذ يستعد للأخذ بثأر عقبة ، ولكن الجهد كان قد نال من الجند الإسلامى ، وآثروا العودة إلى مصر . فلم يجد زهير بداً من الانسحاب بالجيش الإسلامى إلى برقة سنة ٦٥ هـ ، وظل هو مقيما بها تتوق نفسه للعودة إلى الميدان واسترداد شمال إفريقيا (٣) . إذ أحس زهير كما أحس غيره من المسلمين أنهم ارتدوا عن بلد من بلادهم، تركوا بها قيروانا ومساجداً ، وجماعات تعتنق الدين الإسلامى . وهكذا أنبت دم عقبة بذور دوحة المسلمين بشمال إفريقيا، وقام زهير بن قيس البلوى بالإشراف على رعاية هذة الدوحة فى عهدها الأول (٤)

حملة زهير بن قيس البلوى :

بعد معركة « تهودة » وارتداد المسلمين إلى برقة دخل كسيلة القيروان

---

(١) ابن عبد الحكم، نفس المرجع ، ص ١٩٨ ؛ Fournel, op cit, 16

(٢) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٧ ؛
حسين مؤنس نفس المرجع ، ص ٢٠٠

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ، ص ١٧٨ ؛ Mercier, op cit, 211

(٤) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٨٨ .

واحتلها ، وبدا كأنما عادت الأحوال بشمال إفريقيا إلى سابق عهدها قبل الفتح الإسلامى . إذ قام فى سهل تونس ما يشبه دولة بربرية مسيحية . ولكن تلك الدولة الجديدة افتقرت إلى الوحدة والتماسك . فلم يكن كسيلة وأتباعه سادة شمال إفريقيا بعد ارتداد المسلمين ، كما أنه لم يكن الحاكم المطلق على سائر القبائل التى أحاطت بالقيروان ، ولا سيما قبائل البربر البدوية (١) .

وتعزى الظاهرة السالفة إلى أن الحملات الإسلامية المتكررة على شمال إفريقيا خلفت وراءها بدو من البربر يعتنقون الإسلام ، وأظهروا عطفهم على المسلمين ، كما قدموا لهم خدمات جليلة أثناء الفتح . ولم يخلد أولئك البربر إلى السكون والدعة بعد ارتداد المسلمين . وإنما أعلنوا عصيانهم لكسيلة ، وأبوا إطاعة أوامره . إذ كان البربر البدو ينظرون إلى البربر المسيحيين على أنهم حلفاء البيزنطيين ، وأداتهم فى قضاء مآربهم بشمال إفريقيا . ولذا ظل البربر المسلمون على ولائهم للدولة الإسلامية ، وانتظروا عودة الجيوش الإسلامية لشد أزرها فى طرد البيزنطيين وتأديب البربر الموالين لهم .

وكان كسيلة يدرك قوة البربر المسلمين ، وما هم عليه من منعة وعزة ، وأن البلاد التى يسيطر عليها ليست خالصة الولاء له . ومن ثم آثر الاحتفاظ بحسن الجوار مع البربر ولا سيما المقيمين منهم فى القيروان ، فلم يتعرض بأى أذى المسلمين فى القيروان رغم أن وجودهم كان يحمل فى طياته أخطاراً كبيرة على سلامته وسلامة دولته . وظل كسيلة متجنباً الأسباب التى قد تثير عليه غضب البربر المسلمين، حيث كان لهم أنصار عديدون متفرقون فى أنحاء البلاد (٢) .

ولذا أخذ كسيلة ينظم دولته معتمداً على مساعدات البيزنطيين . وقد رأت الدولة البيزنطية أن انسحاب المسلمين بعد واقعة « تهودة » خير فرصة لاقتسام

---

(١) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢١٠ .
(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٢ .

مناطق النفوذ بشمال إفريقيا مع حليفهم كسيلة . وكانت الدولة البيزنطية إذ ذاك طليقة اليد فى تنفيذ أغراضها فى هذه البقعة من إفريقيا ، إذ كان المسلمون فى شغل ببعض المشاكل الداخلة التى واجهت بداية عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان . فاستطاعت القوات البيزنطية بالمدن الساحلية بشمال إفريقيا أن تستعيد ما كان للدولة من أملاك فى هذه البلاد ، ودعمت أقدامها فيها لمقاومة أى زحف إسلامى فى المستقبل[١] .

وكان زهير بن قيس البلوى يعمل جاهداً منذ عاد إلى برقة سنة ٦٥ هـ/٦٨٤م على استنهاض الخليفة عبد الملك بن مروان لإعداد جيوش يسترد بها شمال إفريقيا. واستطاع الخليفة رغم انشغاله بثورة عبد الله بن الزبير أن يعد فى سنة ٦٩هـ/٦٨٨م جيشاً عظيما أمر عليه زهير بن قيس البلوى و بعثه لاسترداد شمال إفريقيا . و يعتبر إقدام الخليفة عبد الملك على اتخاذ هذه الخطوة ، وهو لا يزال فى غمرة مشاكله الداخلية ، دليلا على أن الخلافة نظرت إلى شمال إفريقيا على أنه قطر إسلامى تهتم به الدولة الإسلامية اهتمامها بأمور العراق والحجاز[٢] .

وكان زهير يعرف الميدان الإفريقى منذ سنة ٤٣ هـ / ٦٦٣ م حيث صحب عقبة بن نافع فى جهاده وفتوحه بتلك البلاد . ثم إن عقبة ولاه على القيروان حين قام بزحفه الواسع المدى ، والذى استشهد بعد عودته منه . ولذا استطاع زهير أن يوفق فى زحفه ، إذ سار من مصر على رأس جيشه العظيم الذى ضم عدداً كبيراً من علية القوم فى الشام ومصر . وما أن عبر زهير إقليم برقة حتى انضم إليه كثير من البربر الجنوبيين أو البدو الذين أشربت نفوسهم حب الإسلام . ومن ثم انحصرت المقاومة فى قبائل البربر الشماليين الذين كانوا متحالفين مع البيزنطيين[٣] .

---

(١) Dieh, op cit, 519.

(٢) حسين مونس ، نفس المرجع ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ١٦ .

وما أن ترامت أنباء الزحف الإسلامى الجديد على شمال إفريقيا حتى استولى الفزع والخوف على كسيلة ، وكان مقيما إذ ذاك بالقيروان . ورأى أن المقام بهذه المدينة لا جدوى منه ، إذ بها جماعات من المسلمين ، ويخشى أن تثور عليه فى الوقت الذى يحاصر فيه زهير المدينة . فوقع اختياره على قرية تدعى ممس[1] ، لقربها من الهضبة وجبال أوراس ، ولاتصالها بقبائل البربر المسيحيين فيهما ، وبذلك يستطيع كسيلة أن يحصل على الأمداد والمؤن اللازمة لنضال المسلمين ، وإذا انهزم فرّ إلى الجبال واعتصم بها بعيداً عن متناول المهاجمين[2] .

على أن زهيرا رسم خطة حربية كفلت له الفوز ، إذ رأى أن يبادر بالهجوم على البربر الخاضعين لكسيلة أولا ، ثم ينازل البيزنطيين بعد ذلك . وكان زهير يقصد من خطته تجنب النضال فى جبهتين وتشتيت قواته تبعاً لذلك . وساعده على تنفيذ خطته بنجاح أن البيزنطيين آثروا أن يتركوا المسلمين يحاربون البربر مستهدفين أن يضعف النضال قوى الفريقين ، وإذا ما تغلب أحدهما على الآخر يهاجمون المنتصر ، ويستردون البلاد منه قبل أن يستعيد قوته . على أن هذه الأنانية البيزنطية تمخضت عن نتائج خطيرة ، جنى البيزنطيون ثمارها فيما بعد ، إذ فقدوا إلى الأبد قوة البربر مما عجل بالقضاء عليهم بعد ذلك .

وزحف المسلمون على ممس بحماس رائع لإعلاء كلمة الإسلام والأخذ بثأر عقبة . ودارت رحى معركة عنيفة أبلى فيها المسلمون بلاءاً حسناً ، حتى كتب لهم النصر وقتل كسيلة على أرض المعركة ، دون أن يتمكن من الهرب كما رتب لنفسه من قبل . إذ أحسن زهير سد المنافذ والمعابر المؤدية إلى الهضبة مما جعل الفرار غير مستطاع ؛ وقضى على مقاومة البربر تماماً .

---

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ١٦ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

وقفل زهير عائداً إلى القيروان (١) بعد أن حقق هدفا عظيما فى الفتح الإسلامى لشمال أفريقيا . إذ كان انتصار زهير حدا فاصلا بين نشاط البربر السابق لواقعة ممس والنشاط الذى تلاها . فقد ترك البيزنطيون حلفاءهم البربر يتلقون وحدهم أشد الضربات قوة ، مما جعل التحالف القائم بينهما ينتهى بخروج البربر من الميدان . وغدا الموقف فى شمال أفريقيا قاصراً على المسلمين والبيزنطيين وحدهم . وجاءت الأحداث بعد ذلك تنبه المسلمين إلى تعجيل ضرباتهم للبيزنطيين، حيث رأوا فيهم الغدر وانتهاز الفرص للاطاحة بالجهود الإسلامية فى شمال أفريقيا .

على أن البيزنطيين استهدفوا من وقوفهم موقف الحياد فى الصراع الذى نشب بين زهير والبربر المسيحيين تنفيذ أمر بيتوه لإفساد أعمال المسلمين . إذ تركوا المسلمين يطيلون خطوط تموينهم لقطع خط الرجعة عليهم فى سهولة ويسر . ولم يتنبه زهير لمثل هذه الأعمال المفاجئة التى قد يقوم بها البيزنطيون . وقد جاء الخطر من ناحية القوة البحرية البيزنطية ، إذ اتصل البيزنطيون فى مدن الساحل الأفريقى بالسلطات المركزية فى القسطنطينية وزودوها بمعلومات عن سير المسلمين . واتفق الفريقان على حضور أسطول بيزنطى يحط رحاله عند برقة ، ويفاجىء الحامية الإسلامية بها ويأسرها ، ثم يعسكر البيزنطيون بالقرب من الساحل للهجوم على جيش زهير فجأة وهو فى طريق عودته إلى مصر .

وكان زهير قد فرغ إذ ذاك من مهمة إخضاع البربر الموالين للبيزنطيين ، ثم أخذ يعد العدة للرجوع إلى برقة . وكانت غالبية الجيوش الإسلامية حتى ذلك الوقت تعود إلى مصر بعد أن تنتهى من مهمتها فى شمال أفريقيا . ووقع زهير فى خطأ أشبه بما تردى فيه عقبه . إذ سمح لجنده بأن يعجلوا بالعودة إلى مصر على حين سار هو فى المؤخرة . وعندما اقترب من برقة علم أن البيزنطيين قد نزلوا ساحلها ، ولم يتوقع زهير أن يجد البيزنطيين مستعدين فى قوة عظيمة ، إذ اعتقد أن سفنا

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٧ .

ضئيلة من أسطولهم قـــد رست بشواطىء برقة ، ولا ضير من مهاجمتها والاستيلاء عليها[١] .

وذهب زهير إلى الساحل على رأس نفر يسير من قواته ليستطلع الأخبار ، فوجد البيزنطيين فى سفن كبيرة كثيرة العدد ، ومعهم عدد كبير من أسرى المسلمين . ولم يكد هؤلاء الأسرى يرون زهير حتى استغاثوا مستنجدين به . فأخذت الحمية زهير ومن معه وأسرعوا بمهاجمة السفن البيزنطية لتخليص المسلمين الأسرى . ولكن البيزنطيين كانوا قد أعدوا معسكرا على الساحل بعيداً عن أعين المسلمين ، إذ ما كاد زهير يطأ أرض الساحل حتى فاجأه جند هذا المعسكر البيزنطى ، ودارت رحى معركة عنيفة أحاط فيها البيزنطيون بزهير وأتباعه . ولكن زهيرا أبدى من ضروب الشجاعة والبسالة ماجعل استشهاده[٢] فى ساحة القتال لا يقل روعة عن استشهاد عقبة فى واقعة « تهودة » .

وكان لاستشهاد زهير بأرض برقة نتائج بعيدة المدى على مجرى الفتوحات الإسلامية بشمال أفريقيا ، إذ رأى المسلمون أن عدوهم الحقيقى هو الدولة البيزنطية ورعاياها بالمدن الساحلية ، وأن الجهود يجب أن تكرس للقضاء عليهم . وجاء هذا التطور فى السياسة الإسلامية بعد أن قضى زهير على البربر أحلاف البيزنطين ، وغدا الميدان قاصراً على البيزنطيين والمسلمين وجها لوجه .

---

(١) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٤ ، س ١٧٨ ؛
ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٤ ، س ١١٨٧ .

(٢) Fournel, op cit 28, 29.
حسين مؤنس ، نفس المرجع ، س ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

زوال النفوذ البيزنطى و تمام الفتح الإسلامى

حملة حسان بن النعمان :

أعقب مقتل زهير تطوراً عظيما فى سياسة كل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية بشئون شمال إفريقيا . فقد رأى أولو الأمر فى الدولة الإسلامية أن البيزنطيين يهدفون إلى الإضرار بسمعة جيوشهم وإظهار عدم قدرتها على إتمام فتح شمال إفريقيا ، وأن الواجب يقضى ألا تغض الدولة الإسلامية الطرف عن قائدين عظيمين من قادتها يذهبان ضحية الغدر البيزنطى . وكان الخليفة إذ ذاك عبد الملك بن مروان ، الذى أثبت أنه جدير برد اعتبار الدولة الإسلامية و إضعاف هيبة البيزنطيين وطردهم نهائيا .

وأظهرت الامبراطورية البيزنطية إهتمامها كذلك بأحوال شمال إفريقيا بعد هزيمة زهير [1] . فبدأت بتقوية مدنها الساحلية وتزويد رعاياها بها بالعتاد والذخيرة . وأدى هذا النشاط البيزنطى الجديد إلى اعتماد القوات البيزنطية فى شمال إفريقيا على جهودها الخاصة دون الاعتماد كلية على حلفائهم من البربر . وكان التعاون بين البيزنطيين والبربر قد أصبح قاصراً على بعض قبائل متفرقة منذ قتل كسيلة . ولذا استطاع خليفة زهير أن يستفيد من تغير الموقف بشمال إفريقيا ، و يقضى على البقية الباقية من مظاهر التحالف البيزنطى البربرى [2] .

واضطلع بالعبء الجديد من النضال ضد البيزنطيين حسان بن النعمان ، أحد كبار قادة الدولة الأموية . وفى سنة ٧٦ هـ / ٦٩٥ م . أعد له الخليفة جيشاً كبيراً رغم ما كان يحيط به من صعاب ، حيث رأى ضرورة تخليص شمال

---

(١) Dieh . op cit, 581.

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٣٤ .

إفريقيا من نير البيزنطيين . وكان اختيار حسان يقوم على ما تمتع به من شهرة حربية عالية ، فضلا عن مكانته فى البيت الأموى . فهو لم يسبق له الذهاب إلى الميدان الإفريقى ، ولكن رشحته كفاءته ودرايته بالخطط الحربية والسياسية لإدارة حركات المسلمين فى شمال إفريقيا[١] ، ووضع حد لهذا الفتح الذى استغرق إلى ذلك الوقت خمسين سنة ونيف ، دون أن يتحقق هدف نهائى فيه . وسار حسان على رأس جيشه إلى مصر حيث قضى بها بعض الوقت ليتم فيها استعداداته الحربية[٢] .

سار حسان من مصر مسرعا إلى شمال إفريقيا ، واجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقى مقاومة . وقد انضم إليه فى طرابلس كثير من البربر ، اتخذهم أدلاء فى زحفه على سائر أنحاء البلاد . وكذلك دخل فى جيشه كثير من البربر البدو من أهالى الجنوب الذين سبق لهم اعتناق الإسلام[٣] .

وعندما دخل حسان القيروان أدرك التغير السياسى الذى طرأ على البلاد ، وأن البيزنطيين غدوا أصحاب الكلمة العليا فى المدن الساحلية ، على حين ضعفت شوكة حلفائهم من البربر . وكان حسان يسير وفق خطة مرسومة أعدها من قبل ، وجاءت مطابقة للموقف الذى واجهه فى شمال إفريقيا . إذ حضر إلى القيروان وفى خطته مهاجمة البيزنطيين فى قرطاجنة ، أقوى معاقلهم[٤] .

وكان يدرك أن نجاحه يتوقف على سرعة العمل والتنفيذ ، فبادر بالهجوم على ضواحى المدينة وأوقع بالبيزنطيين هزيمة فادحة . ولذا تملك الخوف والفزع الحامية البيزنطية فى المدينة ، وأسرعت بالانسحاب منها ، والالتجاء إلى السفن

---

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ١٨ ؛ السلاوى ، كتاب الاستقصا ، ص ٤٢ .

(٢) Fournel, op cit, 38

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(٤) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

واهرب إلى صقلية [١]. وهكذا سقطت المدينة دون عناء كبير، وزلزل حسان أول معقل بيزنطى هام فى شمال إفريقيا. على أن البيزنطيين لم يهدفوا بإخلاء قرطاجنة تركها إلى الأبد فى أيدى المسلمين، وإنما بيتوا فى أنفسهم الهجوم عليها مرة أخرى بعد خروج حسان منها.

وساعد البيزنطيين على تنفيذ مآربهم ما كان لهم من حصون ومعاقل منتشرة فى المنطقة المحيطة بقرطاجنة. ولذا ما أن غادر حسان قرطاجنة عائداً إلى القيروان حتى علم أن البيزنطيين الذين هجروها أخذوا يفدون عليها ثانية من النواحى المحيطة بالمدينة، وعجلوا بالاعتصام بها، وإصلاح أسوارها وحصونها. وأدرك حسان خطورة هذا العمل وما ينطوى عليه من عناد البيزنطيين وخداعهم. فعاد حسان سريعا إلى قرطاجنة وحاصرها حصاراً شديداً حتى اقتحمها، وأنزل بالبيزنطيين هزيمة فادحة. ثم هدم كثيراً من أسوار المدينة وحصونها ليقضى على أى أمل للبيزنطيين فى الاعتصام بها مرة أخرى [٢].

وقد نبهت أعمال البيزنطيين حسان بن النعمان إلى الخطة التى يجب أن يسير عليها بعد استيلائه على قرطاجنة. فعرف أن للبيزنطيين على الساحل معاقل وحصون أخرى يستطيعون الاحتماء بها والالتجاء إليها بعد أن فقدوا الأمل فى استعادة قرطاجنة، وأن قوتهم فى هذه المنطقة الساحلية ما زالت خطراً يهدد بقاء المسلمين فى القيروان. ولذا لم يعجل حسان بالعودة إلى القيروان، وآثر متابعة حملاته على البيزنطيين بالساحل لإزالة ما لهم من نفوذ به [٣].

وقد حاول البيزنطيون اتخاذ شبه الجزيرة الواقع شمال تونس والذى تقع فيه بنزرت مقراً لأعمالهم الحربية ضد المسلمين. وتعرف هذه المنطقة بإقليم سطفورة،

---

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٤، ص ١١٣؛ البكرى، وصف افريقية، ص٣٧؛ Fonrnel, op cit, 38.

(٢) ابن عذارى، نفس المرجع ج ١، ص ٢٠؛ Fournel, op cit, 39.

(٣) حسن مؤنس، نفس المرجع، ص ٢٤٠، ٢٤١.

ويضم عددا كبيراً من أهم مدن تونس ، ويعتمد على البحر فى الحصول على الأمداد ، إذا ما اشتد الخطر على الجند المدافعين عنه [١] . على أن حسان تمكن من هزيمة البيزنطيين هناك ، وتابع إخضاع أهالى هذا الإقليم ، دون أن يقابل مقاومة بيزنطية أخرى . فآثر العودة إلى القيروان ليحصل جنده على الراحة بعد عناء المجهود الشاق الذى بذلوه فى الزحف السابق [٢] .

ودخل حسان وجنده القيروان معتقداً أنه قد أطاح بالبيزنطيين ، وأنه لن تقوم لهم بعد الضربات الشديدة التى أنزلها بهم أية قائمة . ولكن البيزنطيين لم يركنوا إلى الهدوء والاستسلام طالما بقى لهم مدن أو معاقل على الساحل مهما كان شأنها . ثم جاء حادث مفاجىء منحهم بعض الوقت ، يستردون فيه قوتهم. إذ انشغل حسان بثورة لم يكن يتوقعها ، جاءت من إحدى قبائل البربر ، عرف أخبارها بعد عودته إلى القيروان .

ثورة الكاهنة

بلغ حسان بن النعمان عندما دخل القيروان أن إحدي قبائل البربر المقيمة بجبل أوراس لم تأنس لاستقرار المسلمين فى منطقة تقع بالقرب من موطنهم . وكانت هذه القبيلة تدعى جراوة ، على قسط من الحضارة ولها رؤساء يتولون شئونها ، وجهدوا على الاحتفاظ باستقلالهم الذاتى رغم قيام بعض المصاهرات بينهم وبين البيزنطيين . إذ ظلت مضارب هذه القبيلة بعيدة عن متناول القوات البيزنطية ، ويحيا أفرادها حياة خاصة بهم ويدين معظمهم بالديانة اليهودية . [٣]

ولم تكن قبيلة جراوة على علم بأهداف المسلمين ورسالتهم فى شمال إفريقيا ،

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .
(٢) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .
(٣) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .

مما جعلهم يتخوفون من اقترابهم من موطنهم بجبل أوراس . وكان يتزعم هذه القبيلة إذ ذاك امرأة تدعى بالكاهنة ، وصلت إلى مركز الصدارة لتوليها الوصاية على ولدين لها من زعيم جراوة السابق . وقد توفى هذا الزعيم قبل عودة حسان إلى القيروان وترك زوجته الكاهنة ترعى شئون القبيلة . وكانت ذات نفوذ واسع وكلمة مسموعة بين سائر أفراد قبيلتها ، ويأتمر الجميع بأمرها . وكانت تدعى العلم بالغيب ، مما جعل المسلمين يطلقون عليها لقب الكاهنة عند ما تسامعوا بأخبارها (١) .

وكانت خطة حسان دائماً المبادرة بالهجوم قبل أن يتم عدوه واستعداداته . وطبق هذه الخطة مع الكاهنة وقبيلتها جراوة ، حيث عجل المسير إليها . ولكن هذه السياسة لم تثمر مع قبيلة جراوة ، إذ كانت الكاهنة قد علمت بمسير حسان إليها ، وأسرعت بجمع عدد كبير من أتباعها وتحصنت بجبل أوراس عند مدينة باغاية ، التى تقع على سفح الجبل وتتحكم فى الدروب المؤدية إليه . واختارت الكاهنة هذا المكان لتكون قريبة من موطن قبيلتها وتستمد منها العون إذا ما اشتد عليها الخطر . ولكن يلاحظ أن الكاهنة عملت هذه الاستعدادات دون مساعدة من البيزنطيين ، الذين لم يكن لهم أى نصيب فى تلك الثورة بعد هزيمتهم فى واقعة قرطاجنة و بنزرت . إذ أن الكاهنة ما كادت تحط رحالها بالقرب من باغاية حتى هدمت حصون هذه المدينة خشية أن يستولى عليها المسلمون ويتخذونها قاعدة لأعمالهم . (٢)

وسياسة هدم المعاقل والحصون لا يقرها البيزنطيون وإنما كانوا يشجعون البربر إبان تحالفهم السابق على الاعتماد على الحصون والمدن المنيعة لصد الزحف

---

(١) السلاوى ، نفس المرجع ، ص ٤٢ ، ٤٣ ؛
ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢١ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٤٧ .

الإسلامى . أما الكاهنة فاتبعت سياسة لا تعرف الحصون ولا الدفاع من وراء الأسوار ، وإنما تفضل اللقاء فى الأرض الفضاء ومنازلة خصومها . وبذلك واجه حسان مقاومة عنيفة ، ولا سيما أن جنده كان لا يزال متعباً من حملة قرطاجنة ومطاردة البيزنطيين . فاضطر حسان إلى التقهقر بعد أن وقع فى أسر الكاهنة عدد من رجال المسلمين (١) .

وتابعت الكاهنة تقدمها بعد ارتداد حسان حتى استعادت حدود قبيلتها والأرض التابعة لها . على أنها لم تدخل القيروان ، ولم تحاول أن تمسها بسوء . ويدل ذلك على أن حركة الكاهنة كانت أعمال مقاومة محلية لإحدى قبائل البربر التى لم تعرف النظام والطاعة . إذ لو كانت الكاهنة تهدف إلى حركة مقاومة بربرية عامة لما ترددت فى الذهاب إلى القيروان على نحو ما فعله كسيلة من قبل بإرشاد البيزنطيين . ولذا ظلت القيروان عامرة بالجاليات الإسلامية ، عليها رجل من قبل حسان يدعى أبو صالح (٢) . وقد آثر حسان العودة بقواته إلى طرابلس، لانتظار الأمداد (٣) .

وقد سادت الفوضى منطقة جبال أوراس لأن البربر أبوا الخضوع للكاهنة ، ولم تستطع أن تلم شملهم لدفع الهجوم الإسلامى المنتظر . فعاملت البربر معاملة قاسية حتى انتشر السخط بينهم . ثم اتبعت سياسة جديدة عجلت بزوال سلطانها ، إذ وهمت الكاهنة أن المسلمين لا يقصدون شمال إفريقيا إلا طمعاً فى الاستيلاء على المدن الزاهرة بها ، وسلب كنوزها وذخائرها (٤) . وهذا الاعتقاد يدل تماما على أن الكاهنة وقبيلتها جراوة كانت بعيدة تماما عن مجريات الفتح الإسلامى

---

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ ؛ Fournel, op cit, 43
(٢) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ٥٧ .
(٣) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٠ .
(٤) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢١ .

والصراع مع البيزنطيين وأحلافهم من البربر . إذ غاب عنها أن المسلمين يسيرون فى فتح شمال إفريقيا وفق خطط مرسومة تهدف إلى نشر الإسلام فى هذه البقعة ، وطرد البيزنطيين منها ، وإقصائهم عن أى مكان قد يهددون منه أرض الإسلام . وكذلك يستدل من اعتقاد الكاهنة الخاطىء على أنها كانت تجهل تماما ما غرسه المسلمون من بذور فى حملاتهم المتوالية على البلاد .

وجنت الكاهنة ثمار تفكيرها السقيم حين عمدت إلى تخريب المدن وقطع الأشجار حتى لا يطمع فيها المسلمون . إذ أخذ كثير من البربر يستنجد بحسان لتخليصهم من نير الكاهنة ، بعد أن رأوا أنها تخرب بلادهم بنفسها على حين لم يمسسهم المسلمون بسوء . وهكذا أصبح البربر ينظرون إلى المسلمين على أنهم منقذون لهم ، وكان هذا التطور من أهم العوامل التى ساعدت حسان فيما بعد على طرد البيزنطيين نهائياً من شمال إفريقيا بعد أن تخلص من الكاهنة . وكان البيزنطيون قد انتهزوا فرصة هزيمة حسان فى حرب الكاهنة واستردوا قرطاجنة.

وظل حسان مقيما بطرابلس حتى جاءته الأمداد سنة ٨١ هـ ، فاستأنف الزحف على شمال إفريقيا . ووجد أن أحوال الكاهنة قد تغيرت عما كانت عليه من قبل [١] ، إذ انفض عنها جانب كبير من أهلها حيث ملوا طول القتال . وعند قابس لقيه أهلها بالطاعة وقدموا له الأموال لمساعدته . ثم التقى بعد قابس بجيوش الكاهنه ، وأوقع بها هزيمة فادحة ، ثم تبعها إلى جبال الأوراس حيث لقيت حتفها ، وخضع البربر من قبيلة جراوة لسيادة المسلمين .

وكان للكاهنة إبنان عاملهما حسان معاملة حسنة ، وعمد إلى تأليف قلبيهما ليستفيد منهما فى صراعه المقبل ضد البيزنطيين . فعين الابن الأكبر على رأس الجماعات البربرية المنضوية تحت لوائه وقربه إليه [٢] . وبذلك قضى حسان

---

(١) ابن خلدون، نفس المرجع، ج ٦ ، ص ١٠٩ ؛ ابن عذارى ، نفس المرجع، ج ١ ص ٢٢ .
(٢) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ .

على آخر خطر مفاجىء قد يأتى من ناحية البربر ، إذ سارع البربر إلى الدخول فى الدين الإسلامى أفواجا لما رأوه من حسن معاملة المسلمين لهم ، وأنهم يساوون بينهم جميعاً فى المعاملات لا فرق بين مسلم عربى ومسلم من البربر .

نهاية البيزنطيين :

بعد أن فرغ حسان من شئون البربر اتجه بجميع قواته صوب البيزنطيين عامداً على اقتلاع جذورهم نهائياً من البلاد . وكانت الدولة البيزنطية تقف بالمرصاد لحركات حسان منذ طردة القوات البيزنطية من قرطاجنة وتضييقه الخناق عليها فى شبه جزيرة صطفورة . واعتبرت السلطات البيزنطية سقوط قرطاجنة ضربة قوية لا بد من العمل على التخلص من آثارها ، وجاءتها ثورة الكاهنة فرصة ذهبية يجب اقتناصها . وكان الإمبراطور البيزنطى إذ ذاك يدعى ليونتيوس ، (٦٩٥ — ٦٩٨ م) ، وأراد أن يستهل عهده باستعادة قرطاجنة واعلاء شأن دولته بشمال أفريقيا ، إذ رأى أن غض الطرف عن قرطاجنة معناه نهاية السيادة البيزنطية إلى الأبد من تلك البلاد (١) .

ودل على اهتمام الامبراطور ليونتيوس بشئون شمال أفريقيا أنه ما أن علم بارتداد حسان بن النعمان بعد مقاومة الكاهنة حتى أعد جيشا عظيما وأسطولا كبيراً لاسترداد قرطاجنة ، وعهد بقيادة هذه الحملة إلى قائد من أشهر قادة الدولة وهو البطريق يوحنا «Patricius Jean» . وهاجم الأسطول البيزنطى مدينة قرطاجنة على حين غفلة منها سنة ٦٩٧ م/ ٧٨ هـ ، واستولى علي المدينة فى سهولة ويسر . وكان فى المدينة إذ ذاك أبو صالح الذى تركه حسان على القيروان قبل هجومه على الكاهنة . فارتد أبو صالح ومن معه من القوات عن المدينة ، وترك البطريق يوحنا يشفى غليلة فى الانتقام من أهلها . وقضى يوحنا طيلة شتاء سنة

---

(1) Diehl, op cit, 583.

٦٩٧ م فى تعذيب أهالى قرطاجنة غير عابىء بما قد يأتى من ناحية المسلمين[1].

على أن حسان ما كاد يقضى على الكاهنة حتى توجه لطرد البيزنطيين من قرطاجنة . وقد عرف أنهم يعتمدون على قوتهم البحرية فى إغاراتهم المتكررة على القواعد الإسلامية . ومن ثم استعان بأسطول إسلامى كان أول قوة بحرية إسلامية ظهرت فى مياه شمال أفريقيا . واستطاع حسان بفضل المعونة البحرية أن ينال النصر على البيزنطيين ، إذ دارت رحى معركة بحرية بين الأسطول الإسلامى والبيزنطى أسفرت عن هزيمة البيزنطيين . فدب اليأس فى قلب البطريق يوحنا، وجمع قواته وآثر الفرار بما تبقى لديه من سفن قاصداً بيزنطة[2].

وكان البطريق يوحنا يقصد من انسحابه المحافظة على قواته ليعود بها مرة أخرى إلى قرطاجنة حين تسمح له الظروف . ولكن غاب عنه أن انسحابه عن شمال أفريقيا فى هذه المرة هو آخر عهد للبيزنطيين بالبلاد ، إذ أصبح البربر والمسلمون قوة واحدة جعلت تفكير البيزنطيين فى استعادة نفوذهم بالمغرب ضربا من الأوهام أو من قبيل الأحلام . ودخل حسان بن النعمان مدينة قرطاجنة وأعلى بها كلمة الإسلام مرة أخرى .

واستفاد حسان كثيراً من مجرى النضال بينه و بين البيزنطيين ، ورأى أن يقطع عليهم خط الرجعة نهائياً فى استرداد قرطاجنة . فاتجه إلى اتخاذ قاعدة بحرية جديدة تحل مكان قرطاجنة ، ويتوافر لها الحماية والابتعاد عن إغارات البيزنطيين المفاجئة . فوجد إلى جنوب قرطاجنة بلداً على بحيرة داخلية صغير تسمى آدس (Ades) لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير . وكانت هذه المدينة يونانية اضمحل أمرها ، ولم يبق من معالمها غير دير قام به بعض الرهبان . فوقع اختياره

---

(1) Diehl, op cit, 583;

البكرى نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٨

(2) Diehl, op cit, 584.

عليها حيث رأى فيها توافر جميع المميزات التي يتطلبها[1].

وبدأ حسان بحفر البرزخ الذي يفصل البحيرة عن البحر، كما حفر في ماء البحيرة الضحلة قناة عميقة تستطيع السفن السير فيها حتى تصل الى البلد. وعرف هذا الميناء الجديد باسم تونس، وغدا له بحيرة واسعة محمية من أمواج البحر، وبعيدة عن قوات البيزنطيين البحرية. واضمحل بذلك شأن قرطاجنة، وانصرف الناس والتجار عنها ولم تعد مدينة يرغب البيزنطيون في استردادها. وهكذا حقق حسان أولى الخطوات الهامة في إبعاد خطر البيزنطيين عن ولاية إفريقية الجديدة، وجعلها مكاناً مرغوباً فيه؛ يقبل المسلمون الفاتحون على الاستقرار به واتخاذه وطناً لهم.

ويعتبر حسان بذلك أول قائد تم على يديه استقرار المسلمين النهائي بشمال إفريقيا، وانصرف بعد إتمام الفتح الى تأمين البلاد وتشجيعها على أن تأخذ بنصيب في جهاد البيزنطيين فيما تبقى لهم من أملاك بجزر البحر الأبيض المتوسط. فاتجه حسان إلى إنشاء « دار صناعة » تبنى بها السفن والأساطيل ليغير بها على سواحل البيزنطيين، ويشغلهم بالدفاع عن أنفسهم بدلا من إغارتهم على ولاية افريقية واستعان حسان بالمصريين في تأسيس هذه القاعدة البحرية الجديدة. فأرسل يطلب من الخليفة عبد الملك أن يوفد إليه جماعة من المصريين ممن لهم خبرة ببناء السفن. وكلف الخليفة أخاه عبد العزيز بن مروان والى مصر أن يرسل الى تونس ألف قبطي بأهله وولده، وأن يمدهم أحسن امداد بما يكفل لهم الراحة طيلة السفر والوصول في أمان[2].

ووصل المصريون الى تونس وحسان بن النعمان مقيما بها، وأنشأ بمساعدتهم دار صناعة للسفن، وعهد الى البربر قطع الأخشاب من سفوح الجبال ونقلها الى تونس حيث يتولى الصناع المصريون بناء السفن. ونشطت حركة الصناعة

(١) ابن عذاري، نفس المرجع، ص ٣٩؛
حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢٦١.
(٢) البكري نفس المرجع، ص ٣٨، ٣٩.

فى هذا الميناء الجديد ، وخرجت منه أساطيل المغرب تحمل راية الإسلام فى غرب البحر الأبيض المتوسط . وغدت تونس القاعدة الحربية الإسلامية الثانية بعد القيروان ، وآخر خطوة حققت انضمام شمال إفريقيا نهائياً إلى رقعة الدولة الإسلامية. إذ كان تأسيس القيروان بداية الجهاد الذى أدى إلى دخول البربر فى الدين الإسلامى، وأول قاعدة لاستقرار المسلمين فى بلادهم . ثم جاء تأسيس تونس قاعدة قضت على البيزنطيين نهائياً من شمال إفريقيا ، وانتزعت منهم هذه البلاد إلى الأبد. وأصبحت القاعدتان محوراً تدور عليه أحداث الولاية الإسلامية بشمال إفريقيا .

وبانتهاء المسلمين من تخليص البلاد من النفوذ البيزنطى اتجهوا إلى تنظيم أحوالها ونشر الإسلام بين سائر قبائلها [1] التى لم يصل الإسلام إليها بعد . وساروا فى تلك السبيل على قاعدة دلت تماما على أن هدف المسلمين فى فتح شمال إفريقيا هو نشر الإسلام بين أهاليها وطرد البيزنطيين منها . إذ اعتبر المسلمون الأرض التى كانت تابعة للبيزنطيين أرضاً مفتوحة عنوة ، وطبقوا عليها النظام الإسلامى الخاص بها . فعاملوا من تبقى فى المدن الساحلية من البيزنطيين وأحلافهم معاملة الموالى لهم ، لأنهم خشوا ما قد يثيره أولئك الناس من فتن واضطراب فى البلاد . وترتب على هذه السياسة الإسلامية اختفاء المظاهر البيزنطية من البلاد تماما ، وزوال اللغة اليونانية واللاتينية ، وأصبحت البلاد مهيأة لقبول الإسلام وحضارته .

وساعد على انتشار الإسلام سريعاً فى أرض المغرب ، واصطباغ رعاياه بالحضارة الإسلامية حسن معاملة المسلمين الفاتحين للبربر سكان البلاد الأصليين. إذ لم يطبق عليهم المسلمون السياسة التى اتبعوها مع البيزنطيين ، وأنما ساووا بينهم وبين البربر فى الحقوق والواجبات . فضم حسان عدداً كبيراً من جند البربر

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ص ١٠٠ .

الى جيوش المسلمين ، وساوى بينهم و بين جند المسلمين العرب فى الغنائم ، وحرص دائماً على تجنب أى معاملة يحس منها البربر خضوعهم للعرب المسلمين . وفضلا عن ذلك اعتبر المسلمون البقاع التى سكنها البربر أرضا مفتوحة صلحاً ، فأقروا البربر على ما بيدهم من الأرض ، وأصبحت كل قبيلة بربرية تختص بجهة تتصرف فيها وتؤدى عنها التزاماتها [١] .

وهكذا دخل البربر أفواجاً فى الدين الإسلامى على عهد حسان بن النعمان بعد أن زالت سلطات البيزنطيين ، وأحسوا أن الدين الجديد أخرجهم من عهد طويل من الذل والاضطهاد إلى حياة زاهرة عامرة بالإخاء والمساواة . وقضى حسان فترة حكمه فى شمال إفريقيا جاهداً على الإعلاء من شأن البربر الذين دخلوا فى الإسلام ، ورفع شأنهم بين الجند المسلمين الفاتحين ، حتى أدرك سائر البربر عظمة الدين الإسلامى ، وفهموا حقيقة رسالته السامية . ولكن شاءت الأقدار أن يجنى خليفة حسان وهو موسى بن نصير ثمار اعتناق البربر للدين الإسلامى .

الجناح الأيسر لدولة الإسلام :

تولى شئون شمال إفريقيا بعد حسان بن النعمان موسى بن نصير (سنة ٨٩هـ/ ٧٠٧ م) . وقد واجه موسى فتناً من البربر استطاع أن يخمدها فى سهولة ويسر . إذ كانت بقايا البيزنطيين ووكلاؤهم وأحلافهم بشمال إفريقيا ينتهزون الفرص لإثارة الشعب ضد المسلمين الفاتحين . وجاء عزل حسان بن النعمان تكئة اعتمدوا عليها فى تأليب البربر على السلطات الإسلامية بالقيروان . ولكن موسى بن نصير أثبت أنه لا يقل شكيمة و بأساً عما سبقه من قادة المسلمين ، فبادر بإقصاء المحرضين

---

(١) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٧٦ ؛
Mercier, op cit I, 216.

على الفتنة من البيزنطين عن البلاد ، وضرب على أيدى الذين انضموا تحت لوائهم بقسوة وشدة (١) . وهكذا كان أصبع البيزنطيين دائماً وراء كل حركات البربر فى هذه المرحلة الختامية من استقرار الفتح الإسلامى بأرض المغرب .

وحالف التوفيق قادة المسلمين فى نشر رسالة الإسلام بشمال إفريقيا ، لأنهم منذ أيام حسان وجهوا ضرباتهم للبيزنطيين وحدهم ، وأبعدوهم عن كل بقعة قد يتخذونها شوكة تهدد أرض الإسلام . وجعل موسى بن نصير هذه السياسة نصب عينيه بعد أن رأى وكلاء البيزنطيين يتابعون سياسة الدس ضد المسلمين ، وأن الأساطيل البيزنطية أخذت تغير من بعض قواعدها بجزر البحر الأبيض على أرض المسلمين بشمال إفريقيا . فأعد أساطيلا إسلامية غزا بها جزر منورقة وميورقة (سنة ٨٩ هـ/٧٠٨ م) ، وضمها إلى سلطان المسلمين (٢) ، وأخذت الحياة تزدهر فى هذه الجزر بعد أن استقر بها المسلمون . وأصبحت ولاية موسى بن نصير تمتد من حدود مصر الغربية إلى شواطئ المحيط الأطلسى ، ولها هيبتها فى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى . وساد السكون والهدوء هذه الولاية فى ظل الإسلام ، إذ استطاع موسى بن نصير بعدله وحبه للانصاف أن يجذب إليه كبار رجال البربر ، كما عين الفقهاء لتعليم الناس أحكام الدين ، وتفهيمهم قواعده على أسس سليمة صحيحة . وظهرت بشائر هذا العهد الجديد سريعا ، إذ حقق الإسلام معجزة كبرى شهدت له بأنه دين الفطرة . فقد صبغ البربر بالصبغة الإسلامية ، وجعل لسانهم جميعا اللسان العربى .

وكانت هذه الحقيقة حداً فاصلا فى تاريخ البربر الطويل ، إذ عجزت الحضارات القديمة ، التى وصلت بلاد المغرب منذ أقدم العصور وهى الإغريقية واللاتينية ، عن إدخال البربر فى نطاقها ، واقتصر تأثيرها على بعض مدن

---

(١) Mercier, op cit I, 217.

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

مبعثرة على طول الشريط الساحلي لشمال إفريقيا . ولكن بعد طرد البيزنطيين من شمال إفريقيا واستقرار الفتح الإسلامي بها دان البربر جميعاً بالدين الإسلامي ، ودخلوا في مضمار المدنية الإسلامية ، وأصبحوا شعباً له رسالة في العالم الإسلامي . وهذا التطور في حياة البربر هو الذي يعتبر معجزة الإسلام ، حيث تمكن من إنشاء وطن جديد له استعان به في ارتقاء سلم الزعامة العالمية .

وتجلت آية هذه المعجزة في أن الإسلام استطاع أن يجند من البربر جنداً جددا تسابقوا في مضمار الفتوح الأخرى ، وغدوا الجناح الأيسر لقوات الإسلام . وكان أولئك البربر المسلمون يتحلون بالحماس والحمية التي عرف بها المسلمون العرب في أيامهم الأولى ، والتي ظهرت في فتوحاتهم المبكرة . فأنجب البربر قادة لا يقلون عن قادة المسلمين الأول في حماسهم لإعلاء كلمة الإسلام وتفانيهم في نصرته ، منهم طارق بن زياد ، فاتح الأندلس[١] وحامل راية الإسلام به[٢] .

وقد ساهم هذا الموطن الجديد للاسلام في مشاريع الدولة الإسلامية الكبرى ضد البيزنطيين . إذ كانت جيوش الدولة الإسلامية سنة ٧١٧م تحاصر القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وتعمل جاهدة على إذلالها والحط من شأنها . وقد اشتركت قوات الإسلام في شمال إفريقيا في هذا الجهاد الرائع ، إذ أمدت ولاية إفريقية جيوش المسلمين بأساطيل ومؤن وعتاد شدت من أزر الجند الإسلامي المحاصر للقسطنطينية ، وسجلت إسمها إلى جانب سائر الولايات الإسلامية الأخرى الداخلة في حظيرة الدولة الأموية ، والمشتركة في حرب البيزنطيين .

---

(١) كانت الحملة الاسلامية في شبه جزيرة أيبريا من أروع الأعمال الحربية التي قام بها المسلمون ، ففي سنة ٧١١ م عبر طارق البحر إلى أسبانيا وبدأ سلسلة من الحملات اشترك فيها كذلك موسى بن نصير ، وانتهت باستقرار المسلمين في هذا الركن الجنوبي الغربي من أوربا .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

وهكذا حقق الأمويون بانتشار الإسلام فى شمال إفريقيا والأندلس عملا مجيداً، هو انتزاع الصفة البيزنطية القديمة الملتصقة بالبحر الأبيض المتوسط وإحلال الطابع الإسلامى محلها ، إذ كان البيزنطيون يعتزون دائماً بأن البحر الأبيض المتوسط هو بحرهم ، حيث ورثوا عن أمهم الدولة الرومانية الكبرى اللقب الذى أغدقته على هذا البحر وهو « بحر الروم » . على أن انتصار الجيوش الأموية فى شمال إفريقيا والأندلس كتب للمسلمين السيادة على الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، إلى جانب السيادة التى اكتسبوها على الحوض الشرقى من هذا البحر بعد واقعة ذات الصوارى . وأصبح البحر الأبيض المتوسط حريا أن يدعى « بحر المسلمين » نتيجة مجهودات الأمويين الجليلة .

الفصل الخامس

التجاوب الحضارى
بين الدولتين الأموية والبيزنطية

التراث البيزنطى فى نظم الأمويين الإدارية

إدارة الأقاليم :

يعتبر العصر الأموى عهد امتصاص النظم والتقاليد البيزنطية التى وجدها المسلمون فى البلاد المفتوحة ، ثم استخدامها بما يتفق والوضع الجديد لدولة الإسلام . وكان أول نظام بيزنطى أبقى عليه المسلمون هو طريقة إدارة البلاد وتصريف شئونها . إذ رأى المسلمون أقاليم الشام ومصر وشمال أفريقيا ذات إدارات ومصالح ، ومنظمات وهيئات ، تجرى وفق نظم بيزنطية راسخة الأوتاد ، وأدركوا أن حكم دولتهم وتوجيهه لما فيه الصالح العام يقتضى ألا تشل الإدارات البيزنطية ويبطل عملها فى تلك الأقاليم التى استظلت بالإسلام .

وقد أظهر المسلمون فى هذه الفترة المبكرة من بناء دولتهم عقلية فذة ، وأفقاً واسعاً فى استيعاب النظم الصالحة السائدة فى البلاد التى أخذوها من الإمبراطورية البيزنطية . وكان لهذه الظاهرة أثر كبير فى استقرار أحوال الدولة الإسلامية الفتية على عهد الأمويين ، وتجنبها المصاعب والمتاعب الاقتصادية والإجتماعية التى تواجه دائماً الدول فى المراحل الأولى من تكوينها . إذ استطاع الأمويون الاستفادة من نتائج تجارب الإدارة والحكم البيزنطى ، ووضعوا الأسس والدعائم المتينة لصرح دولة الإسلام ، وجعله أكبر قوة عرفها عالم العصور الوسطى .

وكان معاوية يسير على هدى الخليفة عمر بن الخطاب ، الذي عرف عنه الاهتمام بدولة الإسلام وحرصه على تنظيم أحوالها بما يحقق لها الرفاهية والطمأنينة. إذ اعتمد الخليفة عمر على النظم البيزنطية فى ترتيب شئون دولته [١]، إلى جانب الأنظمة الفارسية الساسانية . وظهر تقدير الخليفة عمر لنواحى الإدارة البيزنطية فى احتفاظة بكثير من مظاهرها تامة غير منقوصة . إذ حين وفد عمر إلى الشام ، وكان كثير التردد عليها أثناء الفتوحات الإسلامية ، وضع لهذا الإقليم تقسيما إداريا جاء نموذجاً لما سار عليه البيزنطيون من قبل فى إدارة هذه البلاد .

قسم الخليفة عمر إقليم الشام إلى عدة أجناد ، وهى أقاليم حربية يقيم فى حاضرة كل إقليم فيلق من فيالق الجيش ، وكان هذا النظام سائدا فى الشام البيزنطى . وجاء معاوية وخلفاؤه ودعموا هذا النظام الحربى حتى أخذ مظهراً كاملا . فكان جند فلسطين هو ما عرف عند البيزنطين باسم فلسطين الأولى (Palestina Prima) وعاصمته مدينة « الرملة » . أما جند الأردن فكان فلسطين الثانية (Palestina Secunda) وعاصمته « طبرية » . وجند دمشق اشتمل على ما سماه البيزنطيون فلسطين الثالثة (Plestina Tertia) وفينيفيا الأولى ولبنان (Ad Libanum) . ثم جند قنسرين فكان قبلا يدعى سوريا الأولى (Syria Prima)[٢].

وغدت الدولة الإسلامية على عهد الأمويين تنتظم إمارات كبرى ، يحكم كل منها والى مسلم مرتبط مباشرة مع الخليفة . وقد حافظ الأمويون فى ولايات القسم الغربى من دولتهم على طريقة الإدارة البيزنطية بها . فكانت الشام ومصر وشمال أفريقيا هى نفس الولايات التى خضعت للبيزنطيين من قبل ،

---

(١) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٤٩ .

(٢) Le Strange, Palestine Under the Muslims, 26

بإداراتها وعمالها[١] . وتعتبر مصر نموذجا للطابع الاسلامى الإدارى الجديد ، إذ انتقلت مهام الحاكم البيزنطى العــــام بها ، الذى أطلق عليه اسم سيمبولوس (Symboulos) إلى عامل إسلامى لقب « بالأمير » . وكان يشرف على شئون الوجهين البحرى والقبلى كما فعل سميه أيام سيادة البيزنطيين .

وساعد « الأمير » أو الحاكم الاسلامى العام شخص عن كل قسم من قسمى الدولة عرف باسم « صاحب » ، وهو يرادف عند البيزنطيين « كاتب » (Chartularius) . كذلك قسم الوجهان ، البحرى والقبلى إلى « كور » كانت هى الأقاليم التى عرفت فى العهد البيزنطى باسم بجارخى (Pagarchies) . وكان المهمين على شئون « الكورة » يدعى صاحب الكورة ، وهو مرادف للبجارخى (Pagarchos) . وظل دولاب العمل يسير على نسق الأداة الحكومية البيزنطية ، فكل قرية من قرى الكور احتفظت بسجل فيه أسماء دافعى الضرائب وممتلكاتهم ، وكذلك أرباب المهن والحرف . وكانت هذه السجلات تعد بمساعدة كبار رجالات القرى[٢] ، الذين عرفوا فى العهد البيزنطى باسم موازيت (Mezones) . وبعد أن تنتهى السلطات المحلية من إعداد السجلات ترسلها إلى العاصمة حيث تعتمدها السلطات العليا هناك[٣] .

وبذلك استطاع الأمويون أن ينهضوا بإدارة هذه الرقعة الكبيرة من

---

(١) كانت الدولة الأموية مقسمة إلى خمسة أقسام كبرى ، يحكم كل منها أمير مرتبط رأساً بالخليفة وهى : الحجاز واليمن ومصر والعراق ، ويتبعه بلاد ما وراء النهر والسند وخراسان وعمان والجزيرة ومعها أرمنيا وبعض أقسام من آسيا الصغرى ، ثم أخيراً إمارة إفريقية ومعها الأندلس .

(٢) تذكر المراجع التاريخية أن قادة المسلمين حرصوا عند دخولهم البلاد المفتوحة على الاستفادة من خبرة كبار الشخصيات بها . وتجلت هذه الظاهرة بصفة خاصة فى مصر ، فكان عمرو بن العاص يسأل سادتها القدامى عن اقتصاديات الاقليم ومصروفاته والطرق التى تكفل تحسين مرافقه . وسار على نهج عمرو بن العاص سائر الولاة الذين تولوا إدارة مصر .

(3) Bell, Grek Papryi, 17, 18 ;
Nabia, the Kurrah Papyri, opcit, 100.

الأراضى التى دخلت فى حظيرة دولتهم . ولكن الخلفاء الأمويين أقدموا على خطوة جليلة ساعدت على تقوية أواصر الروابط بين ولاياتهم جميعها ، وخلق الوحدة الإسلامية التى تنعم بها الدول الإسلامية اليوم ✗ إذ اتجهت السلطات الأموية إلى تعريب الدواوين والإدارات التابعة لها فى الدولة وصبغها بالصبغة العربية . وبدأت هذه الخطوة فى عهد الخليفتين عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، فنقلت لغة الدواوين فى مصر والشام من اليونانية إلى العربية ، وفى العراق والمقاطعات الشرقية من الفهلوية (الفارسية) إلى العربية [١] .

✗ وكان الدافع على تعريب الدواوين والإدارة الإسلامية تمكين الولاة المسلمين من الإشراف إشرافا تاما على شئون دولتهم . إذ كان تدوين السجلات باللغات الأجنبية حافزاً شجع صغار العمال على التزوير والتلاعب فى السجلات دون أن يكتشف أمرهم [٢] . ولا شك أن أغراضاً أخرى هامة ، منها صبغ الدولة بالصبغة العربية ، هى التى حملت خلفاء بنى أمية على تعريب الإدارة . إذ تروى بعض المراجع أسبابا مختلفة أو مبهمة لتعليل نقل الدواوين إلى العربية . فذكر البلاذرى مثلا « أن رجلا من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماء ، فبال فى الدواة . فبلغ ذلك عبد الملك ، فأدبه . وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان [٣] . »

وسار ولاة الدولة الأموية على نهج خلفائهم فى تعريب الدواوين فى مقاطعاتهم [٤] ، حتى أخذ النظام الجديد يشب وينمو ، ويشمل سائر البلاد

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢١

(٢) كان التزوير فى المكاتبات شائعاً منذ عهد معاوية بن أبى سفيان ، فأنشأ « ديوان الخاتم » للقضاء على أعمال التزوير ، وتسهيلا للمكاتبات بينه وبين عماله . وبذلك أصبحت الأوامر والرسائل لا تصدر عن بلاط الخليفة إلا بعد أن تسجل النسخة الأصلية فى سجل خاص وتختم بخاتم الخليفة نفسه .

(٣) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٠١ .

(٤) أشرف الحجاج بن يوسف الثقفى على تعريب الدواوين فى العراق والمقاطعات الشرقية =

الإسلامية . ومما ساعد على اكتمال هذا النظام سريعاً أن عبد الملك أشار باستخدام من يجيد العربية فى المناصب الرسمية بالدولة . وهكذا وضع الخلفاء الأمويون نصب أعينهم الاستفادة أولا من نظم الإدارة البيزنطية ، ثم تعريبها تدريجياً بما فيه صالح دولتهم .

وأثر الأمويون بدورهم فى نظم البيزنطيين الإدارية ، ولا سيما فى بلادهم المعرضة لهجوم المسلمين . وكان أوضح مثال على ذلك إقليم آسيا الصغرى ، فقد رأت الدولة البيزنطية ضرورة وضع نظام إدارى خاص لهذا الإقليم لصد هجمات الأمويين المتكررة عليه . وحفز الأباطرة على الاهتمام بإدارة هذا الإقليم أيضاً اتخاذه خط دفاع لحماية القسطنطينية . فوضع الأباطرة لآسيا الصغرى نظام الأقاليم الحربية الذى يعرف بالبنود (Themes)[١] ، وهو أشبه بنظام الأجناد الذى طبقه الأمويون على إقليم الشام .

وأتم الأمويون إشرافهم على إدارة البلاد التابعة لهم باقتباس نظام البريد (Veredus) من البيزنطيين . وكان معاوية واضع أسس هذا النظام الذى ظل يتطور طيلة العصر الأموى . واستخدم البريد فى نفس الأغراض التى اتبعت أيام البيزنطيين ، إذ اقتصر البريد على خدمة مصالح الدولة لا لتصريف شئون الأفراد والناس . فكان الخليفة يتصل بحواضر الولايات ويقف على أخبار عماله بها وأحوال سكانها بواسطة « عمال البريد » ، وغدت هذه الأداة أشبه بإدارة البريد (Cursus Publicus) فى النظام البيزنطى[٢] .

وأكمل الخليفة عبد الملك ما بدأه معاوية فى نظام البريد . فأصبحت هذه الإدارة تامة الإعداد ، وخيل البريد تنقل الرسائل والمسافرين من دمشق إلى سائر

= فنقل المكاتبات وأعمال الدواوين من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية . وبذلك سار تعريب الدواوين فى الدولة الأموية سيراً منتظماً مضطرداً .

(١) انظر الفصل الثالث من الكتاب ، ص ١٥٨

(٢) Hitti, op cit, 438.

حواضر الأقاليم الإسلامية . على أن أهم عمل قام به عمال البريد هو مراقبة سير الولاة والعمال فى الأقاليم الإسلامية ، و إحاطة الخليفة علماً بما يبدر منهم من أعمال حسنة أو سيئة [(١)] . وغدت هذه الإدارة حرية أن تدعى بعين الخليفة وأذنه فى شتى أرجاء دولته .

العمائر والفنون :

تعتبر مجهودات الأمويين فى العمائر والفنون النواة الأولى للفن الإسلامى وما حفل به آيات رائعة الجمال . وقد استغل الأمويون طرز البناء والفنون البيزنطية التى وجدوها فى البلاد التى دخلت فى حظيرتهم ، ثم بدأوا يصبغون هذه المظاهر البيزنطية بألوان تتفق مع الوضع الجديد لدولة الإسلام . فخرج مزاج إسلامى رائع تولاه سائر خلفاء الدولة الإسلامية فيما بعد بالرعاية حتى أصبح لكل بقعة من أرض الإسلام ذوقها وطابعها الفنى الخاص .

و يعزى نجاح الأمويين فى وضع النواة الأولى للفنون الاسلامية إلى ما عرف عنهم من الأفق الواسع ، وحسن استغلال ما تصل إليه أيديهم من وسائل بيزنطية لإعلاء و إتمام مبانيهم وسائر المرافق التى ترمز لعظمتهم وسلطانهم . و يعتبر المسجد الأموى و « القصور الريفية الأموية » نماذج رائعة للفن الاسلامى فى بدايته ، واعتماده على النماذج البيزنطية . فالمسجد الأموى كان فى الأصل كنيسة دمشق المعروفة بكنيسة القديس يوحنا [(٢)] . ولكن الوليد استولى على هذه الكنيسة سنة ٧٠٥ م وأدخل عليها كثيراً من التعديلات مما جعل البناء الجديد مسجداً إسلاميا آية فى البهاء والعظمة ، وشاهدا على ما تحلى به الأمويون من ذوق سليم .

---

(١) Hitti op cit, 484.

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص١٩٩ .

وتجلت الطرز البيزنطية فى عمارة المسجد الأموى حيث استعان الخليفة بعمال وفنانين بيزنطيين جلبهم خصيصا من القسطنطينية [١]. واشترك إلى جانب أولئك الفنانين البيزنطيين عمال من أقباط مصر [٢]، الذين تلقوا دروسهم عن الفنون فى مدارس البيزنطيين أيام تبعيتهم للدولة البيزنطيـة . وقام الفنانون البيزنطيون ببناء القبة الحجرية الشامخة التى تعلو المسجد الأموى ، والتى أصبحت أول جزء يسترعى نظر الزائر للمسجد . وعهد إلى العمال البيزنطيين كذلك زخرفة القبة من الداخل وسائر جدران المسجد بالفسيفساء التى كانت نموذجاً خاصاً بالزخرفة البيزنطية .

وكان الوليد مهتما بالحصول على الفسيفساء وتزين مسجده بها ، فبذل شتى الطرق للحصول على الفسيفساء البيزنطية وغيرها من المواد التى تصلح لزخرفة مسجده . فكان الوليد يفرض على الجيوش الإسلامية من أهل الشام ومصر والعراق أن يحمل كل جندى منها يغير على أرض البيزنطيين « قسما من الفسيفساء وذراعا فى ذراع من رخام ، فيحمله أهل العراق وأهل حلب إلى حلب ويستأجرون من يحمله إلى دمشق . ويحمله أهل حمص إلى حمص ومنه إلى دمشق ، وأهل دمشق يحملونه إلى دمشق . » [٣]

على أن الأمويين ، رغم استخدامهم للعمال البيزنطيين وغيرهم من الفنانين الأجانب ، أكسبوا المزيج الفنى طابعاً جديداً جعله إسلامياً فى مظهره ، حتى غدا المسجد الأموى بدمشق نموذجاً لسائر المساجد التى شيدت فى البقاع الإسلامية الأخرى . وكان الدليل على النتاج الإسلامى الجديد للفنون فى الدولة الأموية ظهور العقود فى المسجد التى تشبه حدوة الفرس . واستمد هـذا الطابع الجديد

---

(١) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ٢٠٢ .

(٢) Bell, Greek Papyri, 18.

(٣) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ٢١٠ .

مميزاته من خصائص الوطن الأصلي للعرب . إذ كان تقوس العقود وغيرها من المظاهر المشابهة لها فيما بعد تقليداً لتقوس وتقبيب فروع النخيل المحببة إلى قلوب العرب . وسرعان ما أصبح هذا المظهر الجديد للفن الإسلامي النموذج الذي احتذاه المسلمون في بناء مساجدهم (١) ، وغدا الرمز الذي يذكرهم بدولتهم ووحدتها مهما اتسعت رقعتها (٢) .

وقد اهتم الخلفاء الأمويون بمساكنهم التي يقضون فيها أوقات فراغهم . فكان لهم قصور في بادية الشام يذهبون إليها للاستجمام من متاعب الحكم . وشيدت هذه القصور على النماذج البيزنطية ، وتقليداً لما فعله الغساسنة وكلاء الدولة البيزنطية في الشام من قبل . إذ اتخذ أمراء الغساسنة مقاراً ريفية لأنفسهم ، جاءت آية في الروعة والاستعداد لقضاء أوقات الفراغ (٣) ، وغدت أطراف بادية الشام عامرة بقصور الخلفاء الأمويين ، وكان بعض هذه القصور حصوناً بيزنطية أعدها الخلفاء الأمويون لراحتهم . وتتعدد أسماء هذه القصور ، فمنها ما يسمى بالأخيضر ، والموقر الذي يرجح أن يزيد بن عبد الملك قام ببنائه ، والقسطل (من اللاتينية Castellum أي حصن)، والأزرق اللذين اتخذهما الوليد الثاني مقراً للصيد وغيره من الملاهي، والمُشَتّى الذي بناه الوليد الثاني كذلك (٤) .

واشتهر من هذه القصور الأموية وبذها جميعاً « قُصير عمرة (٥) » ، الواقع شرق الأردن في محاذاة الحافة الشمالية للبحر الميت . وينسب بناء هذا القصر إلى الوليد الأول فيما بين سنة ٧١٢ ، ٧١٥ م ، وتجلى فيه الطابع الفني البيزنطي ، ولا سيما في النقوش والزخرفة التي حلت جدرانه . فكان على أحد جدران هذا

---

(١) Hell, Die Kultur der Araber 120.
(٢) سيد أمير علي ، نفس المرجع ، ص ١٦٩ .
(٣) حتي ، تاريخ العرب ، (ترجمة الأستاذ مبروك نافع) ص ٣٣٢ .
(٤) حتي ، نفس المرجع ، ص ٣٣٣ .
(٥) اكتشف هذا القصر العالم ألوا موزل (Alois Mnsil) سنة ١٨٩٨ م

القصر صور أربعة ملوك يمثلون الامبراطوريات التى دانت للاسلام [١]، وفوق هذه الصور نقش بالعربية واليونانية لتمييز كل صورة من الأخرى [٢]. وكانت هذه الصور تمثل قيصر وكسرى والنجاشى ولذريق آخر ملوك أسبانيا القوطية [٣].

ويتجلى فى زخرفة هذه القصور الأموية نواة الزخارف الإسلامية المحضة، التى اختص بها الفن الإسلامى وحده، حتى عرفت فى اللغات الأوربية باسم «أرابسك» (Arabesque) نسبة إلى العرب، إذ كانت بعض الزخارف تحوى أوراق شجر ونخيل يتدلى من عراجينها البلح، وعدد من طيور الصحراء. واستخدمت الزخارف النباتية بشكل واسع فى المساجد، وبرع الفنانون فى سبكها حتى غدت ذات أشكال هندسية رائعة جميلة [٤].

وهكذا خلفت آثار الأمويين المعمارية آيات تنطق بمقدرة المسلمين على استيعاب الطرز البيزنطية الفنية وتحويلها بما يكسب مبانيهم بهاءاً وروعة. على أن الحقيقة الكبرى التى تمخضت عن مجهودات الأمويين هو ظهور نواة الفن الإسلامى، التى ازدهرت فيما بعد وملأت سائر البلاد الإسلامية بروائع الفنون.

---

(١) بروكلمان، نفس المرجع، ص ١٨٦، ١٨٧.
(٢) بروكلمان، نفس المرجع، ص ١٨٧.
(٣) بروكلمان، نفس المرجع، ص ١٨٧.
(٤) حتى، نفس المرجع، ص ٣٣٤.

الاتصال الثقافى

وصدى الحروب فى آداب المسلمين والبيزنطيين

استطاع الأمويون أن يضعوا أسس نهضة المسلمين الثقافية فى هذه الفترة المبكرة من ظهورهم على مسرح الحضارة العالمية ، وأن يكتشفوا الينابيع التى تغذى هذه النهضة وتعمل على ازدهارها . ونجح الخلفاء الأمويون فى إعداد طبقة من المسلمين كانت العمد التى شيد عليها صرح الحضارة الإسلامية ، وما حفلت به من ألوان العلم والعرفان . ويعتبر العصر الأموى عهد غرس بذور دوحة العلم التى أينعت زمن العباسيين ، وقدمت ثماراً ناضجة شهية للدولة الإسلامية ، وجعلتها تؤدى رسالتها فى مضمار الحضارة العالمية .

وتعزى قوة الدعامة الثقافية التى وضعها بنو أمية إلى حسن استغلالهم لتراث الثقافة الهلينية ، ذلك الينبوع الذى زود البيزنطيين كذلك بشتى المعارف والعلوم . وكان هذا الميدان الثقافى الحلبة التى تنافس فيها المسلمون والبيزنطيون ، كل يعمل جاهداً على إفادة نفسه وترقية مستواه . وكانت الثقافة اليونانية وحضارتها قد اتصلتا ببلاد الشرق منذ غزا الإسكندر المقدونى أرض فارس (٣٣١ ق . م) ، وتأثرت بفلسفة الشرق وأفكاره . ونجم عن هذا الاتصال مزيج ثقافى جديد يضم ألواناً يونانية (هلينية) وأخرى شرقية ، عرف باسم الثقافة الهلينستية . وظل هذا الطابع الهلينستى يسود بلاد الشرق إلى عصر انضوائه فى رقعة الدولة البيزنطية .

ولما انفرد الأمويون بحكم الدولة الإسلامية وجدوا بأرضها التى كانت تابعة للبيزنطيين من قبل ، مثل الشام ومصر مراكز حضارة هلينستية موزعة بين مدنها الكبرى . فكانت هناك أنطاكية بالشام وقيصرية بفلسطين والاسكندرية بصفة

خاصة فى مصر ، تذخر جميعها بالعلماء والمدارس والمتاحف ، ويمتلىء جوها بالحياة الفكرية والحضارة الهلينستية . وقد آل هذا الشطر الثمين من كنوز المعرفة إلى دولة الإسلام[١]، وتولى الأمويون استغلاله وتنميته لصالحهم وما فيه خير دولتهم .

اعتمد الأمويون على أنفسهم فى تنمية نصيبهم من تراث الثقافة الهلينستية ، ثم اتجهوا إلى البيزنطيين يستعينون بهم فيما يتراءى لهم . فشجع الأمويون نقل التراث اليونانى إلى اللغة العربية ، إذا كان على هذا التراث أن يصبح عربياً إسلامياً أولا وقبل كل شىء[٢]. ولذا بدأت حركة الترجمة لتعريب الكتب اليونانية على نحو تعريب النظم الإدارية وسجلاتها فى البلاد المفتوحه . واضطلع بهذه المهمة فى مبدأ أمرها رجال من رعايا الدولة الإسلامية الذين حملوا مشعل الحضارة الهلينستية فى بلادهم قبل ظهور الإسلام[٣].

وتجلى اهتمام الأمويين بتعريب التراث اليونانى فى أعمال خالد بن يزيد بن معاوية. إذ كان مغرماً بعلم الكيمياء، واستدعى بعض العلماء من الإسكندرية وكلفهم ترجمة الكتب اليونانية التى تناولت هذا الموضوع[٤] . وكانت مدرسة الأسكندرية وعلماؤها فى طليعة حركة نقل التراث اليونانى إلى العربية. وساعدت أحداث الفتح الإسلامى على استغلال جهود علماء الأسكندرية إلى أقصى حد خلال العصر الأموى . إذ كان اتخاذ الفسطاط عاصمة جديدة لمصر سبباً فى اضمحلال شأن الأسكندرية واضطرار علمائها إلى الذهاب إلى الشام ، التى غدت مقر خلفاء بنى أمية المعروف عنهم تشجيع العلم[٥].

---

(١) عبد الرحمن بدوى ، التراث اليونانى ، ص ٦ .
(٢) عبد الرحمن بدوى ، نفس المرجع ، ص ٦ .
(٣) Khuda — Bukhsh, Islamic Civilisation, 1, 2.
(٤) Hitti, History of Syria, 498.
(٥) عبد الرحمن بدوى ، نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٦٨ .

وحفلت الشام وحاضرتها دمشق بالعلماء الذين وقفوا جهودهم على نقل الثقافة الهلينستية إلى العربية، على حين تولى الخلفاء وأبناؤهم رعاية هذه الحركة الثقافية المبكرة. ولذا اجتذب بلاط الأمويين بدمشق الضليعين فى العلوم الإغريقية وغيرهم ممن يمكن الاستفادة بهم كالأطباء[١]. وغدت تربة الشام صالحة لغرس بذور المعرفة، وإحياء المراكز الحضارية بها. وظهر ذلك جلياً عندما انتقلت أخيراً مدرسة الطب بالأسكندرية إلى أنطاكية بالشام على عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز، بعد أن اضمحل شأن الأسكندرية وانتقل مركز النشاط بها إلى الفسطاط.

وكانت أنطاكية نموذجاً لاهتمام الخلفاء الأمويين بإحياء مراكز الثقافة الهلينستية بمقر حكمهم. إذ اشتهرت أنطاكية قبل الإسلام بتقدمها فى مضمار الحضارة بفضل علمائها من اليعاقبة[٢]. ولكن تدهورت أحوال هذه المدينة على عهد الإمبراطور هرقل بسبب غزو الفرس للشام. وظلت أنطاكية تئن من وضعها حتى دخول الإسلام أرض الشام. فتولى بنو أمية إعادتها إلى سيرتها الأولى وبعث دم الحياة فيها مرة أخرى. وازدهرت أنطاكية على عهد الأمويين رغم وقوعها بالقرب من منطقة التخوم القلقة الأوضاع بين الدولتين الأموية والبيزنطية. ذلك أن موقع أنطاكية ساعد على جلب المخطوطات من آسيا الصغرى[٣]، وحركة تبادل المراجع التى كانت تنشط فى فترات السلم وانتهاء الحروب[٤].

---

(١) كان أطباء بلاط الأمويين ممن يجيدون اليونانية، واشتهر منهم ابن أثال الذى كان يعالج معاوية، وتياذوق اليونانى، كما يتضح من اسمه، والذى كان يعالج الحجاج.

(٢) ينسب اليعاقبة إلى زعيم المذهب المنوفيزيتى ويدعى يعقوب براديوس، الذى ظهر فى الشام.

(٣) عبد الرحمن بدوى، نفس المرجع، ص ٦٩.

(٤) عبد الرحمن بدوى، نفس المرجع، ص ٦٩.

وزار بعض علماء المسلمين المشهورين القسطنطينية ، حيث أوفدهم الخلفاء في مهام خاصة . وكان من هؤلاء العلماء الفقيه عامر بن شراحيل الشعبي (المتوفى سنة ٧٢٨ م) . وهو من أهل الكوفة التي اشتهرت في هذه الفترة المبكرة من عهد الحضارة الإسلامية بأنها مركز هام من مراكز الثقافة . وعرف الشعبي باطلاعه الواسع وأنه سمع الأحاديث التي كان يحفظها عن ظهر قلب ويرويها دون أى خلط من نحو مائة وخمسين من الصحابة ؛ وظهر من تلاميذ الشعبي أبو حنيفة العظيم . وقد زار الشعبي بلاط القسطنطينية مبعوثاً من الخليفة عبد الملك ابن مروان ، واسترعى أنظار البيزنطيين بعلمه الواسع ، وغزارة مادته .

وقد ظهر في النواحي الثقافية آثار الاتصال السياسي والاحتكاك الحربي بين الأمويين والبيزنطيين وتردد صدى أعمالهما في الآداب والأشعار . فأدت الحروب إلى امتلاء آداب الدولتين بالقصص والأشعار التي تمجد البطولة والبسالة وتشيد بالاقدام والمغامرة ، وغدا كثير من الرجال الذين تناولتهم هذه الآداب شخصيات أسطورية ، لها قوة خارقة للعادة ، ومقدرة على أداء الصعب من الأعمال . فمن ذلك أن المراجع العربية تشيد بمحارب مسلم إسمه عبد الله البطال ؛ وتمجد مغامراته وحروبه ضد البيزنطيين ، على حين تروى المراجع البيزنطية الكثير عن مغامر هاجم الأراضي الاسلامية ويدعى ديجينيس أكريتاس Digenis Akritas [(١)]

وإذا كانت سائر كتب الأدب العربي تروى الكثير من قصص البطولة التي أبداها المسلمون في الميدان البيزنطي، فإن الشعر الأموى سجل بدورة نشاط قادة المسلمين وأشادبهم . وقد اهتم الخلفاء والأمويون بالشعراء وجذبوهم إلى بلاطهم وأغدقوا عليهم العطايا الوفيرة ، حتى أصبح أولئك الشعراء صحف بني أمية ورواة

---

(١) Ibid, 320.

أعمالهم . وكان من أشهر الشعراء الذين وفدوا على بلاط الأمويين بدمشق ، وتناولوا فى أشعارهم جهود بنى أمية فى حرب البيزنطيين و إعزاز دولة المسلمين ، الفرزدق وجرير والأخطل [١] .

وقد شاهد عصر أولئك الشعراء الثلاث الفطاحل عهد اتساع الفتوح الأموية وضم كثير من أرض البيزنطيين إلى دولة الإسلام . وكان عنوان عظمة الأمويين فى تلك الفترة ثلاثة من أعظم الخلفاء ، عبد الملك بن مروان وإبناه الوليد وسليمان . فعاصر الشعراء الثلاثة الأحداث التى قام بها أولئك الخلفاء ضد البيزنطيين وسجلوها فى أشعارهم . على أن معظمهم أشادوا بسليمان الذى اشتهر عنه تحمسه لحصار القسطنطينية وبذله أقصى الجهود لإذلال البيزنطيين . وسجل جرير فى مدائحه أفضال سليمان فى نصرة الإسلام وانتصاراته على البيزنطيين [٢] .

وتناول الشعراء كذلك أعمال قادة الأمويين ضد البيزنطيين وخلدوا أعمالهم فى أشعارهم . وكان مسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة على رأس من مدحهم جرير وسجل أعماله الرائعة ضد البيزنطيين [٣] . وقد أجاد جرير فى شعره ، وإن كان مقتضباً ، و يعد مدحه تعبيراً عما ساد عصره من حماس وحب للجهاد ، وأن الخليفة وأخاه كانا رمز الشعور الإسلامى ، وتفانى الجميع فى الذود عن حياض الإسلام وإعلاء شأنه .

---

(١) اشتهر أولئك الشعراء الثلاثة بأنهم كانوا فى طليعة شعراء العصر الأموى وأكثرهم اتصالا بالخلفاء الأمويين . وعرف عنهم الميل إلى الهجاء الشديد والمدح كذلك . وتحفل المراجع بالكثير من أخبار هؤلاء الشعراء الثلاثة وما خلفوه من قصائد .

(٢) مدح جرير الخليفة سليمان وأشاد بانتصارته على البيزنطيين ، وداهر ملك السند كذلك :

هداك الذى يهدى الخلائق للتقى ... وأعطيت نصراً لم تنله الخلائف
وأرض هرقل قد قهرت وداهرا ... وتسعى لكم من آل كسرى النواصف

(٣) أشاد جرير بما عرف عن مسلمة بن عبد الملك من حب قيادة الجيوش الاسلامية وما ناله من نصر : فقال .....

ولم تخل الأشعار الأموية من تسجيل طرائف تتردد فيها صدى أحداث الحروب بين المسلمين والبيزنطيين ، ومن ذلك أن الخليفة سليمان خرج للحج مرة وحجت معه الشعراء ، وهناك عقد مجلساً بالمدينة حيث وصلت طائفة من أسرى البيزنطيين ، بلغت نحوا من أربعمائة . وكان من بين الأسرى شخصيات رأى الخليفة قتلها ، فأمر الفرزدق الشاعر أن يتناول سيفاً ويطيح رأس أسير . ولكن أحد مناهضى الفرزدق دس له سيفاً غير ماض ، ولما ضرب به الأسير لم يمت ، فضحك الخليفة والحاضرون ، وشمت أخوال سليمان وهم بنو عبس بالفرزدق [1] . فرد بشعر يسفه به المتآمرين عليه ، ويذكر أن شيمة سليمان العفو عن الأسرى وإطلاق سراحهم . [2]

وهكذا حفلت الآداب الأموية بنماذج متعددة تصور مظاهر الاتصال الثقافى بين المسلمين والبيزنطيين ، وتبين مدى ما كان للخلفاء الأمويين من تأثير فى رقى الحركات الثقافية بالدولة الإسلامية . على أن أهم مظهر ميز الثقافة الإسلامية فى هذه الحقبة المبكرة هو ظهور الطابع الشرقى فى الحضارة الهلينسنية والاستفادة من ثقافات بلاد البحر الأبيض المتوسط . وتعد الحقيقة السالفة من أهم العوامل التى غذت حضارة المسلمين بدم جديد ، وجعلتها تزدهر على عهد العباسيين .

= مسلم حرار الجيوش إلى العدا   كما قاد أصحاب السفينة نوح
بداك تسق السمام عدونا   وأخرى بربات السحاب تفوح

(١) كتاب النقائض ، ٣٨٣ .

وأنشد الفرزدق معرضاً ببنى عبس :

إن يك سيف خان أو قدر أبى   لتأخير نفس حتفها غير شاهد
فسيف بنو عبس وقد ضربوا به   نبا بيدى ورقاء عن رأس خالد

(٢) وعرض الفرزدق فى هذه المناسبة أيضاً بأعدائه ، ومدح فضائل سليمان وميله إلى إطلاق سراح الأسرى قائلا :

فلا تقتل الأسرى ولكن تفكهم   أحق بأيام العلى والمكارم
فهل ضربة الرومى جاعلة لكم   أبا عن كليب أو أبا مثل دارم

الاتصالات الدبلوماسية

لم تقم الدولتان الأموية والبيزنطية ستاراً يفصل كل منهما عن الأخرى تمام الانفصال ويجعلهما تعيشان عيشة إنعزالية موحشة . إذ استلزمت صلة الجوار وقيام الحروب بينهما ظهور نوع من الاتصالات الدبلوماسية ، تهدف إلى حل المشاكل التي تطرأ لهما ، وخدمة سائر الأغراض الأخرى التي تعن للفريقين . ولكن يلاحظ أن العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين اختلفت عما نعرفه في الوقت الحاضر « بالتمثيل الدبلوماسي » بين دول العالم . إذ لم يكن هناك في الدولة الإسلامية أو البيزنطية دور سفارات يقيم بها ممثلون دائمون للاشراف على شئون دولتهم وحماية مصالحها .(١)

كان التمثيل الدبلوماسي بين الأمويين والبيزنطيين يقتصر علي إرسال سفير عندما تقتضي الظروف ، للاتفاق على عقد هدنة أو التفاهم على إنهاء وضع شاذ خاص بأسرى الحرب أو بمسائل تجار من رعايا الدولتين . ويشبه هذا النوع من التبادل الدبلوماسي ما نعرفه اليوم بالسفراء فوق العادة ، وهم الأشخاص الذين توفدهم الدول لحضور حفلة زفاف أو إبرام اتفاق ، ثم تنتهي مهمتهم بانتهاء المناسبة أو المهمة التي أوفدوا من أجلها ، ويعودون إلى بلادهم .

وظهر في هذه الفترة المبكرة من الاتصال الدبلوماسي بين المسلمين والبيزنطيين نظم مقررة اتبعها الفريقان ، حتى يتمكن السفراء من تأدية رسالتهم على أتم وجه . فقد راعى أولو الأمر في الدولتين الاسلامية والبيزنطية تزويد السفير بخطاب يحمل تعريفاً بشخصية الرسول والغرض من رسالته وتخويله حق التحدث رسمياً باسم دولته . وكان هذا الخطاب أشبه بأوراق الاعتماد التي يحملها السفراء اليوم

---

(١) Runciman, op cit, 156.
Baynes, the Byzantine Empire, 74.

عند مقابلتهم رؤساء الدول التي يفدون إليها . وإلى جانب ذلك تمتع السفراء المسلمون والبيزنطيون بكافة أنواع الحصانة الدبلوماسية التي نعرفها اليوم . إذ كان السفير يعتبر رمز الدولة التي توفده وله كافة الحقوق التي لرئيس دولته .[١]

وحرص الأمويون والبيزنطيون على الحفاوة بالسفراء وإغداق مظاهر التكريم عليهم . إذ قصد كل من الفريقين إظهار عظمته لممثل الطرف الآخر والعمل على ترك أطيب الأثر في نفسه . وكان ذلك من الوسائل الفعالة في حل المشاكل وتصفية الأحقاد . وخصصت الدولتان الأموية والبيزنطية مبالغ كبيرة للأغراض الدبلوماسية .

فاجتهد معاوية منذ أن كان والياً على الشام في تخصيص مبالغ للانفاق على استقبال السفراء وضيافتهم . فطلب من الخليفة عثمان بن عفان أن يترك له خراج بعض أراض وضياع كان يرسل إلى بيت المال في الحجاز للنهوض بأعباء التمثيل الدبلوماسي . فأجابه الخليفة إلى طلبه[٢] ، وغدا معاوية ينعم بدخل واسع كان أساس سياسته إزاء سفراء البيزنطيين بعد أن أصبح خليفة المسلمين .

وعرف عن الدولة البيزنطية مبالغتها في انتقاء سفرائها إلى الدولة الاسلامية[٣] ، ولاسيما أنها كانت تكن لها الهيبة والاحترام . إذ أرسلت إلى دمشق بعد انتهاء حصار القسطنطينية المعروف بحرب السنوات السبع أحد رجالها الممتازين ويدعى يوحنا . وكان هذا السفير مسناً حكيماً لبقاً ، عولت الدولة البيزنطية عليه الشيء الكثير في إنهاء حالة الحرب الطويلة المدى بينها وبين الأمويين .

وصل يوحنا إلى دمشق واستقبلته السلطات الأموية بالحفاوة والترحيب .

---

(١) ابن الفراء ، رسل الملوك ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص١٨٣ ؛ أنظر ص ٥٨ في الكتاب .

(٣) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

وعقد له مجلس كبير ضم كبار شخصيات البيت الأموى وعلية القوم من المسلمين . واكتسب هذا السفير عطف معاوية لأنه حرص دائماً على إظهار احترامه للدولة الاسلامية . واستطاع يوحنا أن يعقد صلحا مع الدولة الاسلامية مداه ثلاثون عاما ، ثم عاد إلى القسطنطينية مزوداً بأطيب الأخبار عن عظمة البلاط الأموى ونبل رجاله [١] .

وبلغ حرص الدولة البيزنطية على أن يكون سفراؤها إلى الدولة الاسلامية عنواناً للخلق الرفيع مبلغاً كبيراً . فزودتهم بتعليمات مكتوبة تحضهم على التمسك بمكارم الأخلاق ، وأداء رسالتهم بصدق وأمانة . إذ حدث أن توفى أحد السفراء البيزنطيين الذين وفدوا إلى دمشق على عهد معاوية ، فوجد فى جيبه « لوح ذهب مكتوب فيه حفراً : إذا ذهب الوفاء نزل البلاء ، وإذا مات الاعتصام عاش الانتقام ، وإذا ظهرت الخيانات قلت البركات » [٢] . وتنهض هذه الحادثة دليلا على ما كانت الدولة البيزنطية تعلقه من آمال على سفرائها ، وتذكيرهم دائماً بسمو الرسالة التى ينهضون بأعبائها .

وكان يتوقف على السفير إلى حد كبير تنفيذ أغراض دولته ورفع شأنها . ومن ثم كان تمسكه بالعفة النصيحة الأولى التى يزوده بها صاحب الأمر فى الدولة . إذ كثيراً ما جهدت السلطات فى البلاد التى يذهب إليها السفير فى اجتذابه إلى جانبها لكشف سره أو تخفيف الشروط التى يحملها . وكان ذلك يتطلب معرفة بأحوال السفير ودراسة شخصيته . إذ حدث أن أرسل معاوية أحد سفرائه إلى القسطنطينية لابرام هدنة مع السلطات البيزنطية . وكان هذا السفير مزوداً بتعليمات مشددة تقضى ألا يخفف من شروط الهدنة مع البيزنطيين . ولكن لم يستطع هذا السفير تنفيذ وصية معاوية ، وتهاون فى عقد الهدنة حتى جاءت

---

(١) Bury, op cit, 312

(٢) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٣٤ .

فى صالح البيزنطيين [١]. ولما عاد السفير عزله معاوية عن تولى مناصب الدولة ، وأثبت أنه يقف بالمرصاد لتصرفات سفرائه .

واشتهر من سفراء الأمويين إلى بلاط القسطنطينية العالم الفقيه عامر بن شراحيل الشعبي . إذ بعثه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى امبراطور الدولة البيزنطية فى رسالة خاصة . وقد استطاع الشعبي أن يثبت علو كعبه فى ميدان الدبلوماسية الاسلامية ورفع شأن دولته . اذ دخل فى مناقشات مع السلطات البيزنطية جعلته موضع احترامها و إجلالها . فأقبل عليه الامبراطور يحادثه وسأله عدة أسئلة أجاب عليها الشعبي إجابات رائعة حازت إعجاب الامبراطور . وظنت السلطات البيزنطية أن الشعبي من أبناء البيت الأموى لنبل تصرفاته واطلاعه الواسع . وقد حسد الامبراطور البيزنطى الخليفة عبد الملك على هذا الرسول الحاذق [٢] ، وعمد الى الوشاية بينهما ، لكن فطن الخليفة الى حيلة الإمبراطور وازداد تمسكا ورعاية بالشعبي . [٣]

وتعددت أغراض المهام التى أوفد من أجلها السفراء الأمويون والبيزنطيون ، ولكن كان أبرزها محاولة إنهاء حالة حرب أو الابقاء على فترات السلم أطول مدة ممكنة ، إذ يلاحظ أن العصر الأموى حفل بالحروب المستمرة تقريباً بين المسلمين والبيزنطيين وتبادل الإغارات المخربة بينهما ، على أنه لم تقم سفارات كبرى بين الدولتين الأموية والبيزنطية لتبادل الأسرى (الفداء) على نحو ماحفل به العصر العباسى فيما بعد ، رغم اتساع دائرة الحروب فى العصر الأموى ، وما يتبع ذلك من ازدياد عدد الأسرى الذين يترددون من الطرفين . فلا توجد فى المراجع إلا إشارات عابرة عن اتصالات دبلوماسية لإطلاق سراح بعض الشخصيات

---

(١) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) ابن الفراء ، نفس المرجع ص ١٣ .

الكبرى من رجال الدولتين ، واقتصر الفداء على حالات فردية [١] . وكثيراً ما استهدف المسلمون والبيزنطيون من تبادل كبار الأسرى التدليل على حسن النية أو الإسراع فى عقد معاهدة أو هدنة .

على أن هناك سفارات دبلوماسية لم تخل من طرافة فى نوع المهمة التى تقوم بها . إذ كان بعض السفراء يحملون كتباً فيها مداورات ومحاجاة على نحو مايفعل بعض رجال الدبلوماسية فى الوقت الحاضر . وكان الهدف من هذه السفارات النيل من أولى الأمر فى البلاد أو وصف بعض أعمالهم بالسفه [٢]. وتجلى هذا النوع من الرسائل حين أخذ الوليد كنيسة دمشق وحولها إلى المسجد الأموى ، إذ كتب إليه إمبراطور الدولة البيزنطية « إنك هدمت الكنيسة التى رأى أبوك تركها ، فإن كان حقاً فقد خالفت أباك ، وإن كان باطلا فقد أخطأ أبوك [٣] . » فلما وصلت الرسالة إلى الوليد رأى ما فيها من مغالطة ، وعقد مجلسا من العلماء وقرأ عليهم الرسالة وشاورهم فى طريقة الإجابة عليها . واستطاع الفرزدق الشاعر أن يأتى بأحسن الآراء . إذ أشار على الخليفة أن يرد على الامبراطور بقصة سليمان وداود الذين تعرضا للقضاء فى إحدى المشاكل ، وأبدى فيها كل منهما رأيا دون أن يختلفا معاً . واستشهد الوليد فى رسالته بالآية القرآنية « وداود وسليمان ، إذ يحكمان فى الحرث ، إذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلماً . » [٤]

ومهما يكن من أغراض السفارات الأموية البيزنطية فإن الجانب الذى راعاه الطرفان دائماً هو وضع برنامج خاص لضيافة السفراء والترفيه عنهم . إذ كانت السفارة تضم بعض شخصيات كبيرة يجب إعطاءهم صورة حسنه عن

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ١٩١ .
(٢) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٤١ .
(٣) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٤١ .
(٤) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

الأماكن التى يذهبون إليها . وكانت المبالغة فى إكرام السفراء أمراً حرص عليه الأمويون والبيزنطيون ، ولا سيما أنهما تبادلا الهدايا أحياناً [١] . فكان ركب السفارة يصل محملا بالهدايا النادرة لأولى الأمر فى البلاد وغيرهم من كبار رجالاتهم . وفى العاصمة يستقبلهم عامل خاص يلقنهم الآداب والتقاليد التى يجب أن تراعى عند مقابلة صاحب البلاد [٢] .

وخصصت دور ينزل بها السفراء طوال الفترة التى يقضونها فى العاصمة [٣] . وحرصت السلطات الأموية على مراقبة السفراء البيزنطيين حين يفدون إلى دمشق دون أن تشعرهم بذلك . إذ كثيراً ما كان السفراء البيزنطيون يفدون فى تلك الفترة المبكرة من الاتصال السياسى بين الدولتين للتجسس ، والوقوف على مبلغ استعدادات الأمويين الحربية . وفى أمثلة ذلك السفارة التى أرسلتها الدولة البيزنطية أثناء استعداد الخليفة الوليد لحصار القسطنطينية ، — وهو الحصار الأخير لها — زمن سليمان [٤] . وكانت الدولة البيزنطية تفرد دوراً مخصوصة ينزل بها السفراء المسلمون عندما يأتون إلى القسطنطينية ، وتهتم بضيافتهم ورعاية مطالبهم .

وكان من المرافق التى يحرص الأمويون على عرضها للسفراء البيزنطيين قصورهم وروائع مساجدهم ، وكثيراً ما استمع الخلفاء الأمويون للملاحظات التى كان السفراء يبدونها ويأخذون بها إذا كانت حسنة مقبولة . ذلك أنه وفد على معاوية رسول بيزنطى بعد أن فرغ من بناء قصره المعروف بالخضراء ،

---

(١) إكرام السفراء عادة قديمة ترجع إلى عهد الرسول الكريم ؛ إذ جاءه سفير من الدولة البيزنطية نال كافة الاكرام . فقد قال الرسول (ص) للسفير البيزنطى « إنك رسول قومك ، وإن لك حقاً ، ولكن جئتنا ونحن مرملون . فقال عثمان بن عفان ، أنا أكسوة حلة صفورية ، وقال رجل من الأنصار على ضيافته » .

(٢) Runciman, op cit, 157.

(٣) Hamidullah, Muslim Conduct of State, 139.

(٤) انظر الكتاب ص ١٨٤

والذى أصبح فيما بعد دار الإمارة . وكان القصر مبنياً بالطوب ، فلما شاهده السفير البيزنطى أبدى عليه بعض الملاحظات ، ورواها حين سأله معاوية « كيف ترى هذا البنيان ؟ » فرد السفير قائلا « أما أعلاه فللعصافير ، وأما أسفله فللفار » . وأدرك معاوية صحة انتقاد السفير ، وأعاد بناء قصره من الحجارة ، مما جعله رائعاً صالحاً للبقاء طويلا (١) .

وحرص الخلفاء الأمويون كذلك على جعل سفراء الدولة البيزنطية يشعرون بعظمة العمارة الإسلامية ، ولا سيا فى مساجدهم . فكان الجامع الأموى بدمشق قبلة أنظار السفراء ، يطلبون مشاهدته والتمتع بما فيه من روعة البقاء . ولم يستطع بعض السفراء البيزنطيين إخفاء ما دخل قلوبهم من هيبة وروعة عند مشاهدة الجامع الأموى .

وتجلى نجاح الأمويين فى أهدافهم عند ما وفدت سفارة بيزنطية من عشرة رجال إلى دمشق زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز . إذ عهد الخليفة إلى عشرة رجال مسلمين ممن يعرفون اللغة اليونانية بمصاحبة أفراد هذه السفارة دون أن يطلعوهم أنهم يعرفون اللغة اليونانية ، ثم كلفهم أن يدونوا له ما يبدونه من ملاحظات . ولما دخلت السفارة البيزنطية الجامع الأموى وأخذت تتفرس فى روائعه الفنية خر رئيسها مغشياً عليه ، فحمل إلى منزل الضيافة ، ولما أفاق سأله رفاقه عما حل به فجأة ، إذ كان طوال الطريق موفور الصحة والعافية . فقالوا له « ما الذى عرض لك حين دخلت هذا المسجد ؟ فقال ، إنا معشر أهل رومية (أى القسطنطينية) نتحدث أن بقاء العرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيلقونها ، فلذلك أصابنى ما أصابنى » (٢) .

---

(١) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

وكانت الدولة البيزنطية بدورها تعرض علي السفراء المسلمين روائع عاصمتها وما بها من مباهج . فكانت تعهد إلى بعض موظفيها باصطحاب السفراء لرؤية كنيسة أياصوفيا وقناطر المياة والأديرة القائمة حول القسطنطينية ، والحفلات الرياضية التى كانت تقام فى الملعب (Hippodrome)(١) . وأعجب السفراء المسلمون بنواحى النشاط فى الملعب ، حيث كان المتنفس لسائر مباهج سكان العاصمة . وكان سباق العربات أهم لون فى الاستعراضات التى تقوم فى الميدان ، وفى الفترة التى تتخلل سباق العربات كانت تعرض ألعاب يقوم بها المهرجون والبهلوانات . فمنهم من يمشي على الحبل ، ومنهم من يضع عموداً على جبهته ويتسلقه الأطفال .

وكان الامبراطور وكبار رجال دولته يحضرون مع السفراء أحياناً لمشاهدة الألعاب فى الميدان ، وكانت لهم مقاصير خاصة . وعندما يدخل الإمبراطور مقصورته ويرفع غطاء رأسه ويرسم علامة الصليب تبدأ الموسيقى تعزف وكذلك اللعب . وقام بالقرب من الميدان دار البلاط ، التى كان ينزل بها السفراء ، وكبار رجال الأسرى من المسلمين . وهذه الدار بنيت منذ أيام الخليفة عبدالملك ، وروى أحد الكتاب المتأخرين سبب بناء هذه الدار قائلا : « اعلم أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم ودخل هذا المصر شرط على كلب الروم بناء دار بإزاء قصرة فى الميدان ، ينزلها الوجوه والأشراف إذا أسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده ، فأجابه إلى ذلك ... ولا يسكن دار البلاط إلا وجيه فى إجراء وتعاهد وتنزه »(٢) .

وخلف لنا الرحالة المسلمون فيما بعد صوراً عن مشاهداتهم فى الملعب

(١) Runciman, op cit, 157, 158.

(٢) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٤٧ .

البيزنطى [١] ، ممـــا ينهض دليلا على حسن السياسة الدبلوماسية التى وضعها الأمويون ، والتى نعم خلفاؤهم بها ، وساروا على هديها فيما بعد . اذ ترعرعت نواة التمثيل الدبلوماسى التى وضعها الأمويون مع الدولة البيزنطية على عهد العباسيين ، وحفلت المراجع الإسلامية والبيزنطية بشتى الصور عن مظاهر هذا التبادل السياسى .

---

(١) ذكر ابن رسته ، فى كتابه الأعلاق النفيسة ، ص ١٢٠ ، وصفا للملعب عند البيزنطيين فيما يلى : —

« فى وسط المدينة بلاط الملك وهو قصر ، والى جانبه موضع يقال له البذرون (وهو Hippodrome) ، وهو يشبه الميدان يجتمع اليه فيه البطارقة ، فيشرف عليهم الملك من قصره وفى وسط المدينه . وعلى غربى الميدان .. بابان ، يسوقون الى هذين البابين ثمانية من الخيل. وهناك عجلتان من ذهب يشد كل عجلة على أربعة من الخيل ، ويركب فوق العجلة رجلان قد ألبسا ثياب متوجة بالذهب ، ويتركها تجرى .. حتى تخرج من تلك الأبواب ، .. فأيها سبق صاحبها ، ألقى إليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب ، وكل من فى قسطنطينية يشهدون ذلك الميدان » .

السياسة الدينية

أظهر الاتصال الدبلوماسى بين الأمويين البيزنطيين احترام الفريقين لشعائر ديانتيهما ، واتخاذ كل منهما سياسة خاصة فى المسائل الدينية التى تعرض لهما . فسارت الدولة الأموية على سياسة معاملة أهل الذمة من رعاياها بالحسنى ، وفق تعاليم الدين الإسلامى السامية . وكان أهل الذمة يكونون إحدى الطبقات الأربعة التى انقسم إليها المجتمع الأموى ؛ إذ وجد إلى جانبهم طبقة العرب المسلمين الذين قاموا بالفتوحات وقبضوا على أزمة الحكم فى الدولة الإسلامية ، ومن هذه الطبقة الأمويون الذين أخذوا أعنة السلطان فى يدهم . ثم هناك الموالى من أهالى الولايات الذين اعتنقوا الإسلام وأخيراً طبقة الرقيق . وكان المسيحيون خاصة هم حلقة الاتصال بين الأمويين والبيزنطيين وحجر الزاوية فى سياستيهما الدينية .

واشتهر عن الدولة الأموية حسن معاملتها للمسيحيين حتى وصل كثير منهم إلى مراتب عالية فى الإدارة الإسلامية . وكان لهذه السياسة أثر كبير فى استقرار أوضاع الدولة الإسلامية فى هذه الفترة المبكرة من تاريخها السياسى ، وسد الثغرات التى حاول البيزنطيون النفاذ منها إلى أرض الإسلام . إذ اتجهت الدولة البيزنطية إلى تغيير سياستها بعد ظهور الإسلام بما يحقق أغراضها ، فالمعروف أنها كانت من قبل تعامل رعاياها من أصحاب المذاهب الدينية المخالفة لمذهبها الرسمى معاملة قاسية وتعتبرهم « هراطقة » خارجين على قوانين الدولة ويستحقون أشد ألوان التعذيب .

وبظهور دولة الإسلام ودخول كثير من المسيحيين فى التبعية لها اتجهت الامبراطورية البيزنطية إلى تجديد أساليبها وسياستها ، بحيث جعلت من نفسها صاحبة الحق فى رعاية المسيحيين فى بلاد المسلمين والدفاع عن مصالحهم . وعمد

البيزنطيون بهذه السياسة الجديدة وضع العراقيل أمام دولة المسلمين الفتية ، ولا سيما فى الجهات التى لم تستقر فيها أقدامهم تماما . وتجلت هذه السياسة مع البربر المسيحيين بشمال إفريقيا ، ومحاولة ضمهم إلى جانبهم فى صد التقدم الإسلامى على بلادهم . ولكن المسيحيين لقوا كل عناية وتكريم من المسلمين ولا سيما من الأمويين حكام الدولة الاسلامية .

وأظهر معاوية مؤسس الدولة الأموية كل مودة وتقدير للمسيحيين بالشام . فتزوج بامرأة مسيحية من قبيلة كلب وتدعى ميسون . وكانت زوجته على المذهب اليعقوبى الذى اضطهدت الدولة البيزنطية من قبل أنصاره ومعتنقيه . وارتفع شأن ميسون ولا سيما أنها أنجبت لمعاوية ولى عهده يزيد . فكانت تحمل ابنها إلى مضارب قبيلتها حيث يندمج مع أقاربه من المسيحيين ، وأثبت بنو كلب أنهم أوفياء مخلصون للبيت الأموى (١) .

وشب يزيد وسط أصدقاء من المسيحيين . فكان من أعز أصدقاءه فى أيام شبابه يوحنا الدمشقى . وكان هذا الصديق المسيحى حفيد منصور بن سرجيوس الذى تولى منصب المشرف المالى لمدينة دمشق أواخر العصر البيزنطى ، ونصب معاوية والد يوحنا على إدارة الشئون المالية (٢) . وظل يوحنا الدمشقى يتمتع بحرية عقيدته فى ظل خلفاء بنى أمية حتى أنه غدا من أقطاب المسيحية وفطاحلها المدافعين عنها والمهتمين بمشاكلها . وقد خلف يوحنا أباه كذلك فى الاشراف على إدارة مالية دمشق . وظل هذا المنصب المالى حكراً على أسرة سرجيوس حتى عهد الوليد وتعريب الدواوين (٣) .

وكان الأخطل شاعر القصر الأموى مسيحيا ، إذ كان ينتمى إلى عرب

---

(١) Hitti, Hisrory of Syria, 424 440 ;
Lammens, Le Régne du Calife Mo'awia 286.

(٢) Htti, op cit, 440, 499

(٣) بروكلمان ، نفس المرجع ، ص ١٦٨ .

تغلب النصارى الذين أقاموا فى الحيرة . وكان الأخطل نديماً ليزيد كذلك وصديقا ليوحنا أيضا . ودأب الأخطل على دخول قصر الخليفة وقد تدلى من عنقه الصليب ، ويلقى قصائده التى نالت إعجاب الخليفة ومن حوله . وبلغ التسامح الدينى أقصاه فى السماح للأخطل المسيحى بالتدخل فى المنافسات التى كانت سائدة بين عرب الشام المسلمين (١) . إذ ظهر على عهد الأمويين الشعر السياسى الذى يمجد الأمويين ويشيد بأعمالهم ، ونظم الأخطل القصائد فى مدح البيت الأموي .

واستخدم الأمويون أطباء مسيحيين . حتى كان أطباء الخلفاء منهم . فكان طبيب معاوية مسيحى يدعى ابن أثال . وقد نصبه معاوية مديراً مالياً لمقاطعة حمص ، وهى وظيفة لم يسبق أن شغلها مسيحى فى الدولة الأموية (٢) . إذ كانت الوظائف التى تولاها المسيحيون على عهد الأمويين هى المناصب التى كانوا يشغلونها من قبل ، واحتفظت السلطات الاسلامية بها لهم . ولكن جاء تعيين معاوية لابن آثال على شئون مالية حمص دليلا على ما تمتع به المسيحيون من عطف ورعاية .

وكان يطيب لمعاوية أن يجلس إلى جماعات المسيحيين من المذاهب المختلفة ويستمع إلى جدلهم الدينى ومناقشاتهم المختلفة . وذخرت الكتب التى وضعها المسيحيون الأول بصور متعددة للمجالس التى عقدها المسيحيون من رعايا الدولة الأموية بحضرة الخليفة ، وهى تنطق بألوان التسامح الدينى وسمو الإسلام . وأشادت المراجع البيزنطية كذلك بما أثر عن معاوية من عطف على المسيحيين ، إذ تشير إلى أن معاوية سمح للمسيحيين بإعادة كنيسة الرها سنة ٦٧٨ م ، وكانت قد تحطمت بفعل أحد الزلازل (٣) .

---

(١) Lammens, op cit, 383

(٢) حتى ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٣) Bury, op cit, II, 413

وقد حفظ المسيحيون لمعاوية وآله هذا التسامح الدينى وما نالوه على يديهم من عطف وتكريم . فأخلصوا للبيت الأموى ، وتفانوا فى تأدية ما عهد إليهم أداءه من أعمال . فاستطاع الأمويون أن ينهضوا بأعباء إدارة شئون دولة الإسلام على أحسن الوجوه وخيرها . ومن ناحية أخرى سجل المسيحيون فيما وضعوه من مؤلفات فضائل البيت الأموى وأشادوا به بما يعلى من شأنه .

وتردد صدى المعاملة الطيبة التى لقيها المسيحيون فى الدولة البيزنطية ، إذ رأت السلطات بها أن من الأجدى الاعتراف بفضائل المسلمين ورعاية شعائر من يفد منهم إلى بلادها . وكان معظم الزائرين المسلمين لبلاط القسطنطينية من السفراء ، فضلا عن الأسرى المسلمين . وتجلى احترام الدولة البيزنطية لشعائر المسلمين الدينية أن بنت بالقسطنطينية مسجداً يؤدون فيه طقوسهم حين حضورهم إلى العاصمة . وتنسب الروايات بناء هذا الجامع إلى عهد الامبراطور ليو الثالث (١) الذى قاوم الحصار الأموى الثالث على القسطنطينية . إذ أدرك هذا الامبراطور أن من الأجدى كسب مودة المسلمين باحترام شعائرهم الدينية ولا سيما أنه عرف سمو معاملاتهم للمسيحيين فى بلادهم .

وكان الامبراطور ليو نفسه قد نشأ فى جو إسلامى وتأثر بتقاليده . إذ هو من مدينة مرعش فى منطقة التخوم الإسلامية البيزنطية ، وكان يجيد العربية إجادته للغة اليونانية . وقد نهج ليو على سياسة دينية إزاء رعاياه كان لها صدى فى الدولة الأموية ، وجاءت دليلا على ما اتصفت به الدولة الإسلامية من تسامح إزاء حرية العقيدة للمسيحيين . إذ رأى الامبراطور أن عبادة الإيقونات ، أى الصور المقدسة والتماثيل التى تصور العذراء والقديسين غدت ظاهرة متفشية بين رعاياه ، وصمم على وضع حد لهذه الظاهرة ، وشن حملة شعواء على أنصارها . وتعرف سياسة الامبراطور ليو فى التاريخ البيزنطى باسم الحركة اللا إيقونية ، أى الحركة

---

(١) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

المناهضة للصور والتماثيل المقدسة وعبادتها ، و إصلاح الحالة الدينية وتطهيرها من الماديات (١) .

أصدر الامبراطور ليو الثالث سنة ٧٢٦ م مرسوماً يطلب فيه من القائمين على شئون البيوت الدينية والأديرة رفع الصور المقدسة إلى أماكن عالية (٢) حتى يقلع الناس تدريجياً عن الوقوف والركوع أمامها خاشعين مبتهلين (٣) . وأدى هذا المرسوم المعتدل الى فتنة شديدة بالقسطنطينية ، مما يدل على أن الإيقونات كانت تحتل ركناً أساسيا من اعتقادات الناس ؛ غير أن الامبراطور رأى عدم التخاذل أمام ثورة شعبية لا تقوم على أساس . و إنما زادته الفتنة عزماً ، إذ أعقب مرسومه الأول بمرسوم آخر أزيلت بمقتضاه التماثيل والصور المقدسة الموجودة فى الكنائس وغيرها (٤) .

على أن تطبيق هذا المرسوم أثار ضجة عالية فى القسطنطينية امتدت آثارها إلى خارج العاصمة ، إذ ناهض معظم رجال الدين السياسة اللا إيقونية التى فرضها الامبراطور ليو ، وتذرعوا بأن بقاء الصور والتماثيل وسيلة لتقريب الدين إلى أذهان الناس . وظهر من طبقة رجال الدين أحد فطاحل علماء المسيحية المقيم فى أرض الدولة الأموية وهو يوحنا الدمشقى ؛ إذ عارض يوحنا سياسة الامبراطور ليو اللا إيقونية ، وكتب فى ظل الخلافة الأموية ثلاث مقالات تعد من أروع ما كتب دفاعاً عن الصور المقدسة وإجازة تقديسها . إذ قال إن ما يعبد هو الشخص الذى تمثله الصورة لإمادة الصورة نفسها (٥) .

واشتد الجدل والنزاع حول مسألة الإيقونات ، فاتهم ليو بأن سبب حملته هو محاولته التقرب من الدولة الاسلامية ، ووصفه بعض المراجع بأنه « ذوعقلية

(1) Bury, op cit II, 428,429.
(2) Vasiliev, L'Empire Byzantin I, 339, 340.
(3) Ibid, 232.
(4) Ibid, 342, 343.
(5) Hitti, op cit. 501

عربية » . وكانت الدولة الإسلامية قد بدأت منذ ثلاث سنوات ، قبل مرسوم ليو بإزالة الإيقونات — أى فى سنة ٧٢٣ م — ، بحركة أشبه بما قام به الامبراطور البيزنطى . إذ أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٣ م / ١٠٤ هـ ، بتحطيم الصلبان فى كل مكان ، ومحو الصور والتماثيل من الكنائس فى جميع بلاد الدولة الإسلامية [1] . ولكن السلطات الإسلامية لم تمنع رعاياها المسيحيين من الأدلاء بآرائهم فى المسألة اللا إيقونية ، رغماً عن أنها لم تقر عبادة الإيقونات فى أرضها نفسها .

وهكذا احترمت الدولة الإسلامية وجهة نظر رعاياها المسيحيين ، ولم تكرههم على اتخاذ عقيدة معينة فى شئونهم الدينية الخاصة . فلم تتعرض بأى أذى للقديس يوحنا الدمشقى حين طاف بأنحاء الشام يناضل من أجل عبادة الصور المقدسة ويدحض أراء المعادين لها . وبلغ من حماس يوحنا أنه خاطر بنفسه وزار بلاط القسطنطينية ليدافع عن أراءه فى المشكلة اللا إيقونية ، ويعتبر يوحنا نموذجاً لتسامح الإسلام ، إذ لم يكتف بالدفاع عن الإيقونات فحسب ، وإنما ألف ترانيم لا يزال بعضها مستعملا فى احتفالات الزواج البروتستانتية ، وتعد من أجمل ما وصل إليه شعراء الكنيسة المسيحيون من إجادة وروعة فى الأدب الكنسى . وله فضلا عن ذلك كتب دينية وأناشيد تجعله درة لامعة فى جبين الكنيسة المسيحية على عهد خلفاء بنى أمية [2] .

ومن ثم اتصفت السياسة الدينية لكل من الدولتين الأموية والبيزنطية بالابتعاد عن التعصب المذهبى ، وما يؤدى ذلك من محاولة أنصار كل ديانة القضاء على أتباع الديانة الأخرى . وهذا أمر فريد من نوعه فى تاريخ العصور الوسطى عامة ، التى نعتها بعض المؤرخين بأنها عصور دين وعصور حرب .

---

(1) Byzantium 319.
(2) Hitti, op cit, 500, 501.

إذ عرف المسلمون على عهد بنى أمية كيف يبهرون العالم المحيط بدولتهم بسمو تعاليم دينهم ، واعتدادهم بسياستهم الدينية إزاء رعاياهم من المسيحيين وأهل الكتاب عامة . وضربت الدولة الأموية بذلك المثل الأعلى على عظمة الإسلام ، وابتعادهم عما وصم به البيزنطيون من قبل من عنت واضطهاد دينى إزاء رعاياهم ، وإنزال أشد ألوان التعذيب بهم وكبت حرية عقيدتهم .

التراث الأموى فى الحضارة الإسلامية

سقوط الدولة الأموية :

إهتم الخلفاء الأمويون اهتماما كبيراً بالشطر الغربى من دولتهم المطل على البحر الأبيض المتوسط ، وسخروا ما به من مقومات وحضارات لخدمة المسلمين و بلادهم . واستطاع الأمويون بفضل هذه السياسة الوقوف وقفة الحارس الأمين المدافع عن أرض الإسلام ضد البيزنطيين ، وإعداد التربة فى هدوء وأمان لتنبت بها بذور الحضارة الإسلامية . وكان البيزنطيون طوال العصر الأموى يتربصون للدولة الاسلامية ويعملون على النيل منها كلما سنحت لهم الفرص . إذ كانت الغيرة تأكل قلوبهم لارتفاع صرح الدولة الاسلامية وعلو سلطانها فى ميدان البحر الأبيض المتوسط .

واستطاعت الدولة الأموية أن تتفرغ لجبهتها الغربية وتدفع عدوان البيزنطيين باستمرار بفضل سلسلة من الولاة المخلصين ، تولوا تصريف شئون الشطر الشرقى من الدولة الأموية . إذ نصب بنو أمية على إقليم العراق الذى كان مركز القسم الشرقى من الدولة الاسلامية عمالا عرفوا بالحزم والتفانى فى أداء الواجب والإخلاص لعرشهم . فكان المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفى نماذج رائعة لهذا النوع من الولاة الأمويين فى الشطر الشرقى من الدولة الأموية .

ويعزى إلى أولئك الولاة حسن إدارة إقليم العراق وما يتبعه من بلاد ، مما جعل الخلفاء الأمويين يطمئنون اطمئناناً تاماً إلى سير الأحوال على خير ما يرجى فى رقعة بلادهم الشرقية . وظل العمال الأمويون فى العراق وسائر البلاد الشرقية الاسلامية على الولاء لبنى أمية فى أحرج الفترات التى أخذت تجتازها

دولتهم بعد عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ — ٧٤٣ م) . إذ يعتبر حكم هذا الخليفة حداً فاصلا بين عهد إزدهار الدولة الأموية وعلو شأنها و بين عهد اضمحلالها وانتشار العوامل الفتاكة فى جسمها .

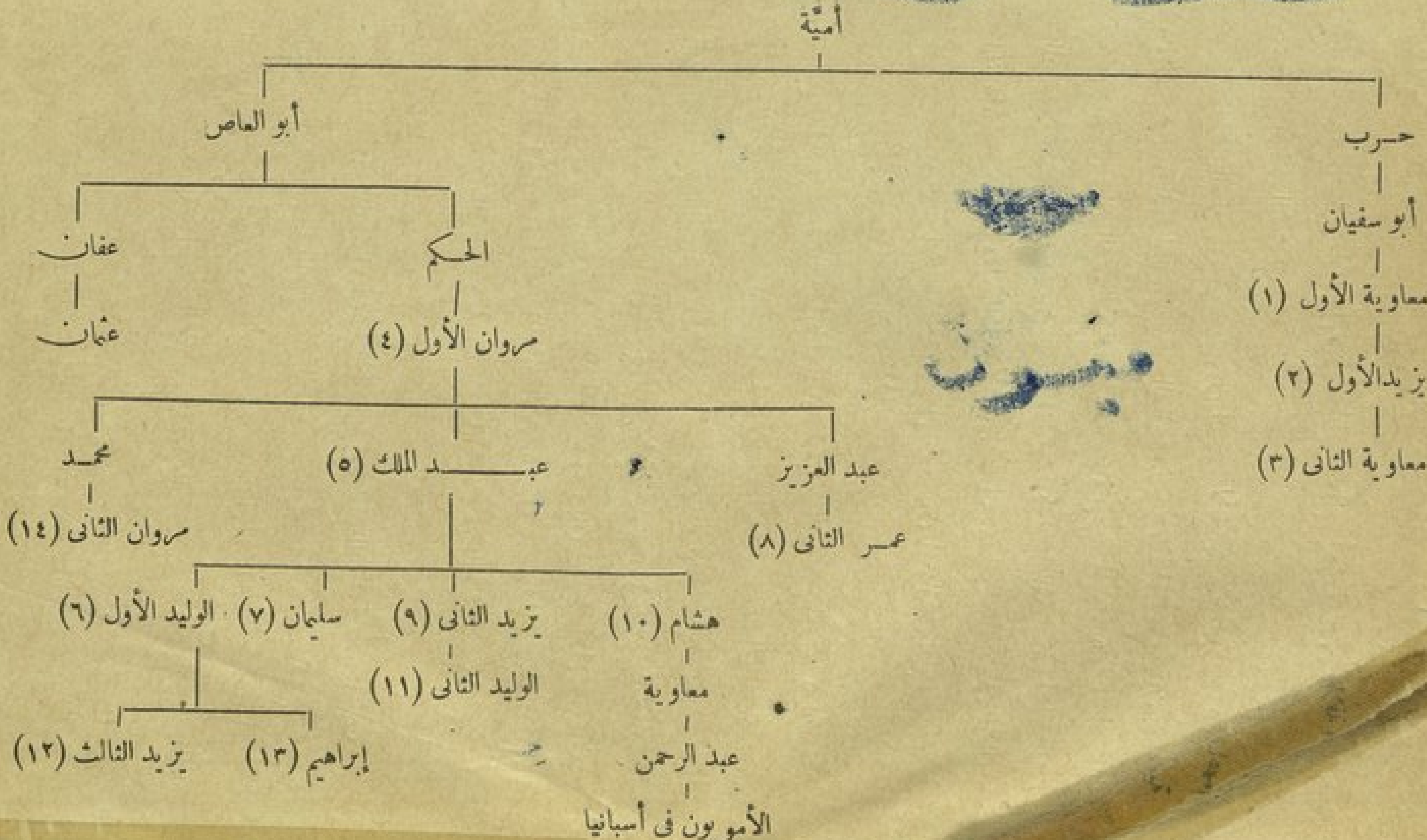
وخرجت معاول الهدم التى أطاحت بالدولة الأموية من القسم الشرقى من بلادها ، واستغلت اضطراب الأحوال فى القسم الغربى من الدولة وأزالت نهائياً الأمويين عن عرش الخلافة الاسلامية . فبينما كرس الخلفاء الأمويون جهودهم فى صهر حضارات البحر الأبيض المتوسط وتحويلها لمنفعة الدولة الإسلامية كانت أرض العراق و إيران تضطرب بحركات وراء ظهر الأمويين ، هدفها التخلص من سلطانهم و إقصائهم عن الخلافة .

وقد بدأت عوامل الاضطراب تحدث أحداثها فى أراضى الشطر الشرقى من الدولة الأموية بعد حادثة كربلاء ومقتل الحسين بن على بن أبى طالب (٦١ هـ / ٦٨٠ م) . إذا اختار الشيعة أنصار على بن أبى طالب وأولاده العراق مقراً لهم ، ونشروا هناك دعوتهم . والتف حولهم السواد الأعظم من أهل العراق تكفيراً عن تخاذلهم فى نصرة الحسين (١) . وكان سكان العراق يحقدون على أهل الشام علو ذكرهم وقيام حاضرة الدولة الأموية فى ديارهم . وظل الشيعة يتربصون الدوائر بالأمويين و يعملون على الانتقام لما حل بهم هوان .

وساعد على انتشار روح التذمير فى العراق ظهور حركة العباسيين ، التى عمل أصحابها على انتزاع السلطة من أيدى بنى أمية . إذ جهد العباسيون بما عرف عنهم من الدهاء على احتضان الشيعة والاستفادة منهم فى زلزلة دعائم الدولة الأموية . ونجح العباسيون فى تحقيق أهدافهم بأن مزجوا دعوتهم مع العلويين بتظاهرهم بالمطالبة بحقوق آل البيت (البيت الهاشمى) . وكان الشيعة يعتقدون

---

(1) Nicholson, Literary History of the Arabs, 167, 198.


أمية
أبو العاص
حرب
أبو سفيان
معاوية الأول (١)
يزيد الأول (٢)
معاوية الثانى (٣)
عفان
عثمان
الحكم
مروان الأول (٤)
محمد
مروان الثانى (١٤)
عبد الملك (٥)
عبد العزيز
عمر الثانى (٨)
الوليد الأول (٦)
سليمان (٧)
يزيد الثانى (٩)
الوليد الثانى (١١)
هشام (١٠)
معاوية
عبد الرحمن
الأمويون فى أسبانيا
يزيد الثالث (١٢)
إبراهيم (١٣)

أن المقصود بالدعاية سلالة على بن أبى طالب ، وأنهم أحق الناس بالخلافة من سائر أفراد آل البيت .

وعرف العباسيون كيف يديرون الدعوة لأنفسهم ويزيدون عدد أتباعهم وأنصارهم . فاتخذوا لأنفسهم حق الدفاع عن الدين الحق ، متهمين بنى أمية بخروجهم على تعاليم الدين الاسلامى وعدم مساواتهم فى المعاملة بين سائر المسلمين المنضوين تحت رايتهم. وكان العباسيون يهدفون من ذلك كسب أهل فارس الذين انتشرت بينهم دعاية الشيعة (١) ، ولا سيما فى منطقة خراسان فى الشمال . إذ كان سكان هذه الجهات يحقدون على الأمويين اعتزازهم بالعنجهية العربية وتعاليهم على رعاياهم من غير العرب (٢) .

وغدا العباسيون بذلك أبطال المعارضة للبيت الأموى وقادة حركة المقاومة . وأجادوا تدبير دعايتهم ضد بنى أمية ، فتخيروا قرية صغيرة إلى الجنوب من البحر الميت تدعى الحميمة وجعلوها مركزاً لهم . وتمتاز هذه القرية بحسن موقعها وصلاحيتها لنشر الدعوة ، إذ تقع فى ملتقى طرق تجارية وعلى طريق الحجاج إلى مكة . ونجح العباسيون فى إيجاد اتحاد بينهم وبين الشيعة وأهل خراسان ، وكان ذلك إيذاناً بأفول نجم الخلافة الأموية . اذ عرف الحلف الجديد كيف يستفيد من مظاهر الاضطراب التى انتشرت فى الدولة الأموية بعد عهد الخليفة هشام .

وكان أول مظاهر الاضمحلال التى طرأت على الدولة الأموية تجدد روح التعصب القبلى بين القبائل العربية المنتشرة فى أرجاء البلاد الاسلامية . اذ قام الشقاق بين عرب الجنوب أى اليمنيين وعرب الشمال أى المضريين واشتد النزاع بينهما . وانفجر الصراع فى الشام مقر الخلافة الأموية بين قيس أشهر القبائل

(1) Browne, op cit, 130, 131.

(2) Nicholson, op cit, 280, 281.

المضرية وقبيلة كلب أشهر اليمنيين ، وفى خراسان والعراق تجدد النزاع بين تميم أشهر قبائل عرب الشمال ، و بين الأزدية من عرب الجنوب .

ووقفت القبائل العربية وجها لوجه من عرب الشمال وعرب الجنوب فى سائر أرجاء الدولة الأموية. وأذكى نارالتنافس بينهما أن الخلفاء المتأخرين من بنى أمية لم يستطيعوا حفظ التوازن بينها على نحو ما فعل معاوية من قبل ، وغيره من الخلفاء الأقوياء . فقد أخذ كل خليفة أموى يحابى بعض القبائل و يناصرها على غيرها . وتطور النزاع بين القبائل إلى أنهـا غدت ساعد أمراء البيت الأموى فى الوصول إلى العرش . فكان الوليد الثانى يناصر القيسية ، على حين استطاع يزيد الثالث أن يغتصب العرش منه بمساعدة اليمنيين ، الذين أصبحوا منذئذ موضع رعايته . وغدا الخلفاء الأمويون بذلك رؤساء أحزاب خاصة ، لا خلفاء للدولة الأموية المتحدة (1) .

وزاد هذه الاضطرابات سوءاً مبدأ ولاية العهد الذى وضعه الخلفاء الأمويون. فكان نظام ولاية العهد غير ثابت أو مستقر الأوضاع ، إذ جرى شكليا وفق طريقة البيعة العامة دون أن يستطيع الخلفاء تقرير أسلوب خاص لولاية العهد بين أبنائهم . ثم زاد هذه المشكلة تعقيداً السابقة الخطيرة التى سنها مروان بن الحكم مؤسس الفرع المروانى ، إذ لم يكتف بتعيين إبنه ولياً لعهده ، و إنما عدد الأشخاص الذين يخلفونه فى ولاية العهد . ونجم عن ذلك أن كل خليفة يتولى العرش يعمل جاهداً على إقصاء من عينه سلفه ويقصر ولاية العهد على ابنه فقط . وأصبحت الخلافة تبعاً لذلك مسرحا للدسائس فى الفترة المتأخرة من عهد الدولة الأموية وصرفت الخلفاء عن المشاكل الداخلية التى أخذت تعرقل مرافق الدولة وتشل أداتها .

وكان الجو بذلك ممهداً أمام التحالف المعادى لبنى أمية ليضرب ضربته .

(1) Hitti, op cit, 528, 529.

الأخيرة . وبدأت نهاية الأمويين سنة ٧٤٧ م عندما نشر أبو مسلم الخراسانى ، أحد دعاة العباسيين ، العلم الأسود شعار العباسيين فى خرسان ، التى أصبحت أولى البقاع التى رفعت راية العصيان على الامويين . وأظهر عامل الأمويين فى خرسان وهو نصر بن سيار ولاءه للبيت الأموى ، إذ أسرع بإرسال وصف للحالة فى خرسان وطلب من الخليفة الاموى إذ ذاك وهو مروان الثانى (٧٤٤ — ١٧٥٠م) تدارك الثورة فى خراسان . وكان مروان يتصف بالجلد الشديد فى الحرب مما جعله يلقب بمروان الحمار ، واشتهر أيضاً ببراعته فى فنون القتال حتى أنه يعزى إليه تدعيم نظام الكراديس ، وهى وحدات صغيرة شديدة التماسك ، وإزالة نظام الصفوف الذى كان مستعملا من قبل .

ولم يستطع مروان رغم صفاته الشخصية أن ينقذ الموقف ، إذ كان منغمساً فى إخماد فتنة ثارت بالشام وامتدت إلى فلسطين وحمص ، وأذكى نيرانها الطامعون فى الخلافة . وزاد موقف مروان سوءاً أن ولاء أهل الشام بدأ يتحول عنه ، ذلك أن مروان ارتكب خطأ فاحشاً عندما نقل مقر حكمه وخزائنه إلى حران فى العراق الأعلى . وكان أهل الشام يرون بقاء الخليفة فى دمشق رمزاً لعظمتهم وشرطاً للتفانى فى خدمته . وبذلك ذهبت صيحات نصر بن سيار سدى ، وغدا الطريق مفتوحاً أمام العباسيين لإكمال دعوتهم وحركاتهم ضد الامويين .

ودخل أبو مسلم مرو عاصمة خراسان سنة ٧٤٧ م بمساعدة قبيلة الأزد اليمنية وفلاحى الفرس ، ثم تلا ذلك سقوط الكوفة أهم مدن العراق سنة ٧٤٩ م . وفى أكتوبر من نفس السنة أخذت البيعة العامة فى مسجد الكوفة لأبى العباس ، ونودى به أول خليفة عباسى . وعندئذ أخذت راية الأمويين تتقهقر أمام علم العباسيين الأسود . وقد أفاق مروان الثانى لما دهمه من خطر ساحق بعد فوات الأوان . إذ صمم على صد الزحف العباسى ، والتوجه إلى العراق قبل وصول جيوش العباسيين إلى الشام .

وسار مروان على رأس قواته والتقى بجيوش العباسيين التى كانت تحت قيادة عبدالله بن على ، عم الخليفة العباسى ، على الضفة اليسرى للزاب الكبير أحد فروع دجلة ، وأسفرت المعركة عن هزيمة الجيوش الأموية وفرار مروان الثانى . وقد قررت معركة الزاب مصير إقليم الشام ، إذ دخل العباسيون هذا الأقليم فى سهولة ويسر ما عدا مدينة دمشق ، إذ أبت هذه العاصمة أن تستسلم دون مقاومة . ولكن العباسيين حاصروا المدينة العاتية المتكبرة ، وضيقوا عليها الخناق حتى سلمت فى إبريل سنة ٧٥٠ م ، بعد حصار دام أياما قلائل .

وبسقوط دمشق زالت دولة الأمويين عن مسرح التاريخ الإسلامى . وقد جهد مروان الثانى على القيام بمحاولة أخيرة لينقذ ما بقى له من سلطان [1] . ولكن أعماله كانت كصحوة الموت وضربا من حب الحياة والتمسك بها . إذ تابع العباسيون زحفهم واستولوا على فلسطين ، ثم أرسلت فرق من الجيش لتتعقب مروان الثانى فى مصر . واستطاع العباسيون القبض على مروان الثانى فى مدينة بوصير ، ووضعوا حداً لما كان يجيش فى نفسه من أطماع بإعدامه ، وذلك فى أغسطس سنة ٧٥٠ م .

وبدأ العباسيون بعد ذلك فى استئصال أبناء البيت الأموى ، فأعملوا فى أفراده القائمين بالشام القتل ليطيحوا بهم تماما عن دائرة السلطان والنفوذ ، وليأمنوا حركات المقاومة التى قد يثيرونها ضد النظام الجديد . فبث العباسيون العيون والجواسيس فى سائر أرجاء البلاد الإسلامية للقبض على الأمويين المختفين بها وقطع دابرهم . ولكن استطاع أحد أبناء البيت الأموى أن يحافظ على تراث

---

(١) كان مروان قد عقد النية على الرحيل الى إحدى مدن الدولة البيزنطية ليستنجد بالامبراطور قنسطنطين الخامس . ولكن بعض مشيرية الذين لم يتخلوا عنه فى محنته أشاروا عليه بالإقلاع عن هذه الفكرة ونصحوه بالارتحال الى مصر أو إفريقيا ، والتأهب هناك للدفاع عن ملكه واسترداده مرة أخرى . لكن سرعة الزحف العباسى قضت على هذه الفكرة فى مهدها . وقد حقق عبد الرحمن الأموى هذه الفكرة حين استطاع الهرب الى الأندلس .

آباءه وأجداده وأن يفر من حملة الاضطهاد والتقتيل التى قام بها العباسيون . إذ استطاع حفيد هشام، الخليفة الأموى العاشر، ويدعى عبد الرحمن الخلاص من يد العباسيين القوية ، ووصل إلى أرض الأندلس فى أقصى أطراف الدولة الإسلامية فى الغرب وأسس لنفسه دولة هناك مستقلة عن الدولة العباسية .

التراث الأموى :

غربت شمس الدولة الأموية سنه ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ولكن خلفت وراءها دفئاً نعم به المسلمون قروناً طويلة . إذ تولى الأمويون تدعيم دوحة الإسلام فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ووضع نواة حضارة المسلمين فى تربة هذا البحر، الذى شاهد الحضارات التى عرفها العالم القديم . ونجح الأمويون فى الإعلاء من شأن الإسلام والمسلمين باتجاههم صوب البحر الأبيض المتوسط ، الذى كان قطب الرحى فى الأحداث العالمية ومحط أنظار كل دولة كبرى تبغى لنفسها مقاما سامياً وعظمة خالدة .

وكان الأمويون يتحلون بخلق سكان البحر الأبيض المتوسط ، وهو بعد النظر وما يتبعه من الاهتمام بالمستقبل والاستعداد له ، والمقدرة على إيجاد روح التعاون والترابط وما يتطلبه ذلك من مثابرة وعزم صادق . وتجلت هذه الصفات التى فطرت عليها نفوس بنى أمية منذ عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، وتمسك بها سائر آل بيته الذين تداولوا عرش الخلافة حتى زوالها عنهم . فأدرك معاوية أن البحر الأبيض المتوسط هو الميدان الجدير بأن تتجه إليه قوى المسلمين لإعزاز دولتهم الناشئة وحمايتها من الأخطار المفاجئة .

ورسم معاوية لخلفائه السياسة التى كفلت للمسلمين ودولتهم العزة والمنعة، وحققت لهم السيادة على غيرهم من الأقوام المجاورة لدولتهم . فكرس الأمويون جهودهم لخلق بحرية إسلامية قوية دفعت عن أرض الإسلام أخطار البيزنطيين ،

العدو اللدود ، ومكنت المسلمين من التوسع على شواطىء البحر الأبيض المتوسط والاستيلاء على شمال إفريقيا . ولذا ما أن ظهر العباسيون ونقلوا حاضرتهم إلى بغداد حتى سارت البلاد الإسلامية فى غرب الدولة على تراث القوة البحرية التى خلفها الأمويون فى تلك الجهات [1] .

وهكذا حافظ الأمويون على الفتوحات والمجهودات التى بدأها الخلفاء الراشدون ، ثم تابعوا فى نشاط رائع بسط رقعة الإسلام ولا سيما فى حوض البحر الأبيض المتوسط . فغدت شواطىء البحر الأبيض المتوسط الجنوبية أراض إسلامية فضلا عن شواطىء الأندلس . ولم يكتف الامويون بهذا السلطان الواسع ، وإنما بدأوا خطوة جعلت من البلاد التى وصل إليها الإسلام وحدة وثيقة العرى لا انفصام لها مهما تعاقبت الازمان والأجيال . إذ بدأ عبد الملك بن مروان صبغ الدولة الإسلامية على عهده بالصبغة العربية ، وتابع ابنه الوليد سياسة تعريب مرافق البلاد حتى ظهر رباط اللغة العربية رويداً ، وبدأ يحيط أرض الاسلام بسياج قوى متين .

ووضع الامويون بذلك أسس الثقافة العربية التى ألفت بين قلوب المسلمين فى سائر البلاد وقربت من عقلياتهم ومشاعرهم وأحاسيسهم . فبعد أن قويت جذور اللغة العربية فى سائر أنحاء الدولة الإسلامية غدا المسلم الذى يرتحل من أى بلد يجد فى المكان الذى ينزل به إخوة له فى الدين يستطيع أن يتفاهم معهم بلغة واحدة . ولذا نعم الرحالة المسلمون على عهد الدولة العباسية ببذور اللغة العربية التى غرسها بنو أمية فى سائر البلاد التى استظلت على عهدهم براية الاسلام .

وخلف لنا أولئك الرحالة صوراً صادقة عن أحوال العالم الاسلامى ، من طبيعة بلاده الجغرافية ومزاج سكانه وتقاليدهم وطرق كسب معاشهم ، وذلك بفضل اللغة العربية التى أصبحت وسيلة التخاطب ، وهيأت للرحالة المسلمين سبل الدراسة الصحيحة لسائر مظاهر الحياة فى البلاد الإسلامية . ولا أدل على قوة رباط اللغة

---

(١) تناول الدكتور حسين مؤنس فى محاضرات الجمعية الملكية للدراسات التاريخية (مارس ١٩٥٣) بيان هذه المظاهر السالفة ، ومدى ما كان للأمويين من نشاط عظيم فى ميدان البحر الأبيض المتوسط .

العربية من أنها غدت إلى جانب رباط الدين الاسلامى المظهر الذى أبقى على وحدة المسلمين فى شتى أنحاء البلاد ، بعد أن زالت الوحدة السياسية بينهم وغدوا شعوبا وأقواما شتى . ومازال هذا المظهر الثقافى الذى وضع الأمويون نواته الأولى يلعب دوراً كبيراً فى خلق لون من الوحدة السياسية بين دول المسلمين التى ظهرت على مر العصور حتى الوقت الحاضر .

وقد ترك الأمويون نموذجا يتفق والعصر الذى نشأوا به عن ضم صفوف المسلمين سياسياً وتوجيههم ضد أى عدو يدهم أرضهم عامة . فكان أمام الدولة الأموية مهمة إعداد المسلمين لمحاربة البيزنطيين وصد عدوانهم المتكرر . ونجح الأمويون فى تنسيق قوى مصر وشمال إفريقيا وأرض العراق مع القوات المركزية بالشام فى الحملات الإسلامية الثلاثة التى حاصرت القسطنطينية . فكانت أساطيل مصر وشمال إفريقيا تتخذ قواعد لها فى موانى الشام ، على حين يتجمع العمال الأقباط من مصر فى أرض الشام للمساهمة فى الأعمال الحربية حسب ما تحتاجه السلطات الأموية .

وظل التعاون الحربى الذى حققه الخلفاء الأمويون بين بلاد الدولة الاسلامية المنهاج الذى جهد خلفاء الدولة العباسية على السير على هديه . وتفاوت قادة الدولة الإسلامية فيما بعد فى المحافظة على هذا التآزر والتضامن باختلاف الملابسات والأوضاع الزمنية . وبقدر نجاح أولى الأمر فى البلاد الاسلامية فى إيجاد ضرب من التعاون الحربى بين بعضهم بعضاً بقدر ما كتب لهم من فوز واستقرار . فجهدت الدولة العباسية فى عصرها الزاهر على إبقاء التعاون البحرى بين مصر والشام وشمال إفريقيا . إذ أن الدولة البيزنطية جهدت على الإغارة على سواحل المسلمين المطلة على البحر الأبيض المتوسط والاستفادة من ابتعاد بغداد عن هذا البحر .

وهكذا استطاع العباسيون بفضل الخطة البحرية التى آلت إليهم عن بنى أمية الدفاع عن دولتهم وحمايتها من أخطار البيزنطيين . ولكن الدولة العباسية لم تلبث أن تعرضت للتفكك السياسى ، وتفشت فيها ظاهرة استقلال الولاة عما يديرونه من بلاد خلال العصر العباسى الثانى (منذ ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م) ومن

ثم ضعفت الروابط بين الحكام الجدد ، وغدا التعاون بينهما قاصراً على ما يمكن أن يحصل عليه كل منهما من عقد تحالف أو تضامن .

وقد تجنب الأمويون المصير الذى تردت فيه الدولة العباسية ،ولاسيما تفككها فى أواخر أيامها ،بانتقاء العمال والولاة الذين تولوا تصريف شئون البلاد الاسلامية . إذ كان العمال الأمويون نموذجاً عاليا للطاعة والإخلاص، فلم يفكر أحدهم فى الخروج على السلطة المركزية بدمشق أو الانفصال عن جسم الدولة فى الأزمات التى تعرضت لها . إذ كان أولئك العمال أشبه بقناصل الدولة الرومانية وحكام الدولة البيزنطية على الأقاليم المختلفة . فاتصف عمال بنى أمية كما اتصف أسلافهم من قناصل الرومان والبيزنطيين باحترام السلطة المركزية وتنفيذ أوامرها دون تردد أو إهمال .

وتجلت الظاهرة السالفة طوال العصر الأموى حتى نهايته . فكان الحجاج بن يوسف الثقفى مثلا جنديا كرس نفسه لخدمة البيت الأموى دون اعتبار للوسائل التى تذرع بها لتحقيق هذا الهدف . إذ أخمد ثورة عبد الله بن الزبير بالحجاز فى غير هوادة أو لين ، وبعد أن فرغ منها امتثل لأمر الخليفة عبد الملك بن مروان وانتقل إلى إقليم العراق حيث تولى نشر الهدوء والاستقرار فى ربوعه . ولم يظهر الحجاج ضجراً فى نقله من ميدان إلى ميدان ، وإنما ظل عاملا مخلصاً أمينا . فكان يبعث إلى دمشق خيرة الشعراء والعلماء الذين علا كعبهم فى إقليم العراق ، واستفاد الخليفة عبد الملك من بعض هؤلاء العلماء مثل عامر بن شراحيل الشعبى الذى أوفده سفيراً إلى بلاط الدولة البيزنطية .

وكان موسى بن نصير عامل الأمويين على شمال إفريقيا مثالا آخر لطاعة الولاة للسلطة المركزية . فبعد أن أتم موسى إخضاع شمال إفريقيا وقطع شوطاً كبيرا فى فتح الأندلس استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق . ورغماً عن أن الموقف الحربى فى بلاد الأندلس كان يستدعى بقاء موسى بن نصير واستمراره فى عملية الفتح فإنه أسرع بالذهاب إلى العاصمة فى الشام ومعه كثير من الهدايا والتحف للخليفة . واستهدف الوليد من استدعاء موسى خوفه من اتساع نفوذه ، ولكن

موسى ظل خاضعاً لمشيئة بنى أمية ، ولا سيما بعد أن منعه سليمان ، خليفة الوليد من العودة إلى مقر ولايته بالمغرب .

وإذا كان الحجاج وموسى بن نصير نموذجين لارتباط العمال الأمويين بالخلفاء فى دمشق إبان مجد الدولة الأموية فإن نصر بن سيار يعتبر خير مثال لإخلاص عمال بنى أمية ساعة المحنة والخطوب . وكان نصر بن سيار عاملا على خراسان التى بدأت منها الشرارة التى أطاحت بالدولة الأموية . وظل يرقب بعين ساهرة تطور الموقف فى خراسان ويبلغ الخليفة مروان الثانى بانتظام أنباء الثوار وحركاتهم . وعندما اضطر أن يغادر مروان حاضرة خراسان أمام ضغط وهجمات أبو مسلم الخراسانى بعث نداءا مؤثرا إلى الخليفة ، ظلت أصداؤه تدوى على مر العصور(١) . وكان باستطاعة نصر بن سيار أن ينضم إلى أنصار الدعوة الجديدة والتى بدا أن نصرها مؤكدا ، ولكنه ظل على ولائه يؤدى واجبه مهما كانت النتائج والعواقب .

وهكذا كانت الأسس والنماذج التى وضعها خلفاء بنى أمية وعمالهم قوية راسخة الأوتاد ، هيأت لدولة الإسلام مكاناً عاليا فى عالم العصور الوسطى ، وكفلت لها إسماً خالداً لا يفنى . إذ اقترن تاريخ المسلمين بالبحر الأبيض المتوسط مهد الحضارات القديمة وعصب الحياة فى العالم القديم . فأصبحت شواطئه تذخر بالشعوب الإسلامية ومظاهر حضارتها ، ومياهه تغص بالسفن الإسلامية ونشاطها . وقد آذن هذا المظهر الجديد بعهد حرى أن يذكره المسلمون بأن البحر الأبيض المتوسط غدا فيه بحيرة إسلامية .

---

(١) ظلت أبيات الشعر التى بعث بها نصر بن سيار إلى مروان الثانى نموذجاً تردده الألسن كلما واجهت الدول فتناً أو مشاكل . ومن هذه الأبيات قوله :

أرى بين الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وأن الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام

المراجع

ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ (بولاق)

البكرى ، كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (باريس ١٩١٢)

البلاذرى ، فتوح البلدان (القاهرة ١٩٠١ م)

أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة (ليدن ١٨٥١ م)

جرير ، ديوان جرير (مصر ١٣١٣ هـ)

حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب (١٩٤٧ م)

ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدا والخبر (القاهرة)

ابن رسته ، كتاب الأعلاق النفيسة (ليدن ١٨٩١)

السلاوى ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى

ابن طباطبا ، الفخرى فى الآداب السلطانية (مصر ١٣١٧ هـ)

الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك (القاهرة ١٣٢٦ هـ)

ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب (ليدن ١٩٢٠)

ابن عبد ربه ، العقد الفريد (القاهرة)

عبد الرحمن بدوى ، التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية (١٩٤٠)

العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية (١٩٥١)

ابن غدارى ، البيان المغرب فى أخبار المغرب (ليدن ١٨٤٨)

ابن العربى ، تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٨٩٠)

ابن عساكر ، التاريخ الكبير (١٩٢٩)

ابن الفراء ، كتاب رسل الملوك (القاهرة ١٩٤٧ م)

فردريك بيك ، تاريخ شرق الأردن وقبائلها (تعريب بهاء الدين طوقان ١٩٣٤)

فيليب حتى ، تاريخ العرب (ترجمة محمد مبروك نافع)
قدامة بن جعفر ، نبذة من كتاب الخراج (ليدن)
القلقشندى ، صبح الأعشا فى صناعة الإنشا (القاهرة ١٩٢٢ م)
كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب العربية (نقلة إلى العربية نبيه فارس ومنير البعلبكى — بيروت ١٩٤٨)
كردعلى ، خطط الشام (دمشق ١٩٢٥)
المالكى ، رياض النفوس (نشر الدكتور حسين مؤنس)
محمد مبروك نافع ، عصر ما قبل الاسلام (١٩٤٨)
المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة ١٢٨٣ هـ)
التنبيه والاشراف (مصر ١٩٣٨)
المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ليدن)
المقريزى ، كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أميـــة وبنى هاشم (ليدن ١٨٨٨)
نلدكة ، أمراء غسان (ترجمة بندلى جوزى ، وقسطنطين زريق — بيروت ١٩٣٣)
الهمدانى ، صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤)
ياقوت ، معجم بالبلدان (القاهرة ١٩٠٧)

Arculf,
The pilgrimage of Arculf in the Holly Land (Trans. by Mac. pherson-London 1889)

Baynes, N. H.
The Byzantine Empire « London 1925 »,
Byzantium (Ed. Byanes — 1948.)

Bell, H.I,
The Aphrodito Papyri (Der Islam)

Bréhier, L,
Vie et Mort de Byzance (Paris 1949).

Browne E. G,
A Literary History of Persia (London 1920).

Bury, J. B.,
A Histry of the later Roman Empire (London. 1889,1931)

Charlesworth, M. P.,
Trade Routes and Commerce of the Roman Empire (1926)

Cheira, M. A,
La Lutte entre Arabes et Byzantins (1947)

Daussaud, R,
Les Arabes en Syrie avant L'Islam (1907)

De Lacy O'Leary,
Arabia before Muhammed (1927)

Diehl, ch.,
L' Afrique Byzantine (1896)

Encyc. of Islam.
Feddan R., Syria (1947)

Finlay , History of Greece (1877)

Fournel, H., Etude sur la Conquête de L'Afrique Par Les Arabes.

Grant, C.P.,
The Syrian desert (1938)

Hamidullah, M,
Muslim Conduct of State (1945)

Hill. J.,
Die Kultur der Araber (Leipzig 1919)

Hell. G.,
A History of Cyprus (1940)

Hitti, P. K.,
History of Syria (1951)

Kammerer, A.,
Petar et la Nabatine (Paris 1929)

✓Khuda-Bukhsh,
Islamic Civilisation (1930)

Kremer
Orient under the Caliphs (Trans-by Khuda-Bukhsh-1920)

✓Lammens.P.H,
L'Arabie Occidentale avant L'Hegire (1928)
Etudes sur le régne du Calife Mo'awia Ier (1908)
La Syrie (1921)

Laurent, J.,
L'Armenie Entre Byzance et L' Islam (1919)

Le Styange, G;,
Palestine under the Moslems (1890)
The Lands of the Eastern Calphate (1930)

Mercier, F.
Histoire de L'Afrique Septerionale (1888)

Mommsen, T.,
The Provinces of the Raman Empire (1909)

Muir , W.,
The Caliphate (1951)
The Life of Mohamad (1912)

Nabia Abbot,
The Kurrah Papyri

Oman, ch.,
A History of the War in the Middle Ages (1924)

✓Runciman, S.,
Byzantine Civilisation (1933)

Semple, E.C.,
The Geography of the Mediterranean Region (1932)

✓Vasiliev,
Histoire de L'Empire Byzantin
Byzance et Les Arabes (1935)

Wellhausen, J.,
The Arab Kingdom and its Fall (1927)

الفهـــــرس

[تم طبع كتاب « الأمويون والبيزنطيون » فى مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة فى يوم الاثنين ٦ من شعبان سنة ١٣٧٢ هـ (الموافق ٢٠ من أبريل سنة ١٩٥٣ م) . والحمد لله أولاً وآخراً] .

سيد محفوظ كامل

المدير الفنى للمطبعة

However in spite of the war between the Omayyads and Byzantines they exchanged diplomtic missions, and the Omayyads, especially, did not hesitate to make use of the Byzantine artists and their methods of work. Therefore the Omayyads were able to lay the solid foundation of the Islamic Empire and its civilisation. They acheived their role with Success because they had officials of Mediterranean mentality. They were like the consuls and prefects of the Roman and Byzantine Empires, and showed no interest in self-government during the decline of the Omayyad dynasty.

The Omayyad dynasty was thus able to leave a heritage, which gave the Muslims cultural unity, and also examples of political unity. These models are of great value to Modern Muslim States nowadays, and may help them to take part in the contribution to the world affairs to-day.

I. A. El-Adawi

THE OMAYYADS & BYZANTINES

The Mediterranean an Islamic Lake

By

Dr. Ibrahim Ahmed EL-Adawi

B. A. Hon. (Cairo)

Ph. D. (Liverpool)

Lecturer in Mediaeval History

University of Cairo

Published by

The Anglo-Egyptian Bookshop

El-Bayan El-Arabi Press